زعماء الإسلام

تراجم واحد وثلاثين من زعماء المسلمين من البعثة النبوية إلى آخر العصر الأموى

تأليف

الدكتور

حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة محمد على سابقا

وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة سابقا

استاذ الدراسات الإسلامية بجامعة بنسلفينيا

الولايات المتحدة الأمريكية

الناشر — مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٩ حارة الباسطى بالحلمية الجديدة

الطبعة الأولى ١٩٥٣

[illegible]

محتويات الكتاب

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس أحب الى النفس من إحياء ذكرى السلف الصالح ، الذين وقفوا حياتهم على الجهاد ، وأراقوا دماءهم الزكية فوق بطاح المشرق والمغرب ، إعلاء لكلمة الإسلام ، وإحياء لتراثه . فقد أنكروا ذواتهم ، وباعوا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله ، لم يلههم عرض الدنيا الزائل عن التماس الخلود فى جنات النعيم والرضوان.

وإن خير مايستطيع الباحث لتحقيق هذه الغاية السامية ، أن يعيد كتابة سير هذا الرعيل الأول من المجاهدين الأبرار ، لا كما يكتبها رجال العلم الذين يحكمون منطق البحث ووسائله ومناهجه ، أو كما يكتبها الرواة وكتاب الطبقات الذين يخلطون بين الحقيقة والخيال أو بين الرواية والأسطورة . إنما نكتب هذه السير لإبراز النواحى التى لا يعنى بها أهل التاريخ ، ولا يهملها كتاب السير والتراجم ، حتى يبين الدور الذى قام به كل من هؤلاء القادة الأعلام فى بناء صرح الإسلام ، فتصبح سيرهم عظة وعبرة لمن يعتبر ، ونبراسا يهتدى به الجيل الجديد الذى نعده للاضطلاع بالأمانة من بعدنا .

وكنت قد نشرت فى مجلة لواء الإسلام سلسلة من التراجم فى فترات ؛ فأعدت النظر فيها ، وغيرت منها ما غيرت ، وأضفت إليها ما أضفت ، وترجمت لمن لم أترجم لهم ممن يضمهم هذا السفر ، ليخرج فى صورة يرضى عنها جمهرة القراء من المسلمين.

وقد دفعنى إلى ذلك أيضاً ، أن وزارة معارف حكومة الباكستان بكراتشى قد قررت ترجمة هذه السير إلى اللغة الأردية ، لغة الباكستان والهند ، لتوزع على طلاب المدارس والمعاهد . فأكون بذلك قد أسهمت بنصيب متواضع فى التقريب بين نفوس إخواننا المسلمين فى الشرق والغرب . وكم كنت أود أن تتصدر سيرة

الرسول الكريم هذه السلسلة ، لولا أن ترجمته — صلوات الله عليه — أجل من أن نحيط بها فى صفحات .

ولا يفوتنى — فى هذا المقام — أن أتوجه بأجزل الشكر وأطيب الثناء إلى سعادة السيد فضل الرحمن وزير معارف الباكستان السابق ورئيس الجمعية التاريخية بكراتشى الآن . كما أسدى الشكر خالصاً لجمعية الدراسات التاريخية بكراتشى ، لاضطلاعها بمهمة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الأردية . كما أشكر لتلميذى النابه الدكتور حسن أحمد محمود المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة مساعدته القيمة التى كان لها أكبر الأثر فى إبراز هذا الكتاب بصورته الحالية وإتمام فهارسه . كما أشكر تلميذى الأستاذ محمد عبدالرحيم غنيمة الحائز درجة الماجستير فى الآداب من جامعة القاهرة على تفضله بالاسهام فى عمل فهارس الكتاب .

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد ، إنه سميع مجيب .

٤ سبتمبر سنة ١٩٥٣

حسن ابراهيم حسن

١ - أبو بكر الصديق

«من سره أن ينظر إلى عتيق من
النار فلينظر إلى ابي بكر»

اختار الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم إلى جواره ، بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته ، ورفع لواء الإسلام ، وأعلى شأن العرب والمسلمين ، وأنار لهم الطريق ، ورسم الخطط . وكان لهذه الحوادث الجسام التى امتلأت بها حياة الرسول ، وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته ؛ — أثرها فى نفوس الصحابة والتابعين ، ومن جاء بعدهم من المسلمين ؛ فترك للعرب والإسلام ، تراثا خالدا تمثل فى هؤلاء الأعلام الذين ملأت أسماؤهم بطون الكتب ، فأصبحت سيرا تتعطر بذكرها المجالس ، ويتناقلها الخلف عن السلف .

من هؤلاء الأعلام رجل فذ ، كان من أخلص صحابة الرسول ، واتصف بصفات قل أن تجتمع فى شخص : ذلكم هو ، عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى . كان يسمى فى الجاهلية : عبد الكعبة ، وقيل : عبد اللات ، وقيل : عبد العزى ، وسماه الرسول : عبد الله ، ولقب عتيقا ؛ لأنه كان لا يعيش لأمه ولد ، فاستقبلت به البيت وقالت : اللهم هذا عتيقك من الموت . كما لقب : الصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ، ولا سيما فى صبيحة الإسراء .

ولد أبو بكر بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر ، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ، ابنة عم أبيه . وكانت تبدو عليه مخايل الذكاء منذ نعومة أظفاره ، وحباه الله جمال الخلقة وحسن الخلق ؛ فقد روى ابن حجر أنه كان أبيض الوجه

نحيفا، وكان طيب المعشر لطيف المجالسة، حتى وثق به قومه وأحبوه ؛ لأنه كان يسعى إلى تأليف قلوبهم ، ولأنه لم يكن يشرب الخمر التى كانت فاشية بين العرب فى الجاهلية . وقد جمع أبو بكر إلى جمال الخلق رجاحة العقل وسَعة الاطلاع : فكان عالماً بأنساب العرب وأخبارهم، حتى قيل إنه كان أنسب قريش لقريش، وأعلمهم بما كان فيها من خير أو شر .

كذلك اشتهر أبو بكر بالصدق والأمانة، فوثقت به عشيرته، وكانت تساق إليه الأشناق ، وهى الديات والمغارم التى يتحملها من يتقرب لذلك من العشيرة.

اشتغل أبو بكر بالتجارة، فكان يتجر فى الثياب، وراجت تجارته ونمت ثروته حتى بلغ رأس ماله أربعين ألف درهم . ولا عجب فقد كانت قوافل قريش تجوب البلاد طولا وعرضا، حتى وصلت إلى غزة وبيت المقدس ودمشق، وعبرت البحر الأحمر . ولم يكن حب أبناء الأشراف فى مكة للفروسية بأقل من حبهم للتجارة، التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم، فوصلوا إلى مستوى فكرى لم يصل إليه أهل البدو وسكان الواحات .

شاءت الأقدار أن يتعرف أبو بكر بمحمد بن عبد الله ، قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بعام واحد : فتآلفا وتحابا، وتوطدت بينهما عرا صداقة كانت بعيدة الأثر فى تاريخ العرب والإسلام . فلم يكد ينقضى على هذه الصداقة سنة واحدة، حتى بعث الله محمدا برسالة إلى هذا العالم، يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك إلا إله واحد، يدبّر ويراقب أعمال الإنسان ، ويعاقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت، كلٌّ بمقدار عمله . كما دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله، فاعتنق هذا الدين السهل أول الأمر، الأفراد المتصلون بالرسول ، كزوجه خديجة، وابن عمه على بن أبى طالب . ولكن الأمر لم يقتصر على أقاربه ومواليه، بل تعدّاهم إلى بعض رجالات قريش . وكان أبو بكر أسرع العرب إلى التصديق بدعوة الرسول وقبول الإسلام . فكان أول من أسلم من الرجال ؛ فسمى صديقا لسبقه إلى الإسلام ؛ أو لأن الرسول بشره بأن الله أعتقه من النار . روى

أن الرسول كان هو وأصحابه بفناء الكعبة ، إذ جاء أبو بكر فقال الرسول : من سرّه أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر ، فغلب عليه اسم عتيق .

لم يلبث أن خف أبو بكر بعد إسلامه إلى الجهاد . فترك التجارة ليتفرغ إلى الدعوة الإسلامية مع رسول الله ، حتى أسلم بدعوته كثير من العرب الذين اعتز بهم الإسلام ، كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عَوْف ، وسعد بن أبي وقّاص ، وطلحة بن عبيد الله . وكان يبذل ماله فى سبيل الله ، يفتدى به الأسير والعانى ، ويعتق منه المسلمين ويعولهم . فقد اشتد إيذاء قريش لبلال مؤذن رسول الله ، حتى كان يقاسى أشد ألوان العذاب ، فكان أمية بن خلف الجُمَحى من مشركى قريش ، يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فَتُلْقَى على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموتَ أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعُزَّى .

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ ! فيقول ورقة : أَحَد أحد والله يا بلال ! ولم يزل على هذا العذاب حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه . وكان عمر قبل إسلامه يمعن فى تعذيب لُبَيْنَة جارية بنى مؤمن ثم يدعها ويقول : إنى لم أدعك إلا سآمة . ولم تزل فى هذا العذاب حتى اشتراها أبو بكر وأعتقها .

اشتد العسر بالمسلمين يوما ، فأمر الرسول أصحابه أن يتصدقوا بشىء من مالهم ، فمنهم من تصدق بنصف ماله ، ومنهم من تصدق بثلثه ، ومنهم من تصدق ببعض ماله .

روى عن عمر رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، ووافق ذلك مالا عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما . قال : فجئت بنصف مالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيتَ لأهلك ؟ فقلت مثله . وَأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه أبداً (١)

(١) مصابيح السنة ص ١٩٥ (طبعة المطبعة الاميرية) .

ومن الحوادث الجسام التى امتلأت بها حياة الرسول وتخللت كفاحه لتبليغ رسالته ، حادث عظيم فذ ، هو هجرته إلى المدينة ، والتجاؤه إلى من آمن به من أهلها، ليؤوه وأصحابه ، وليحموا دعوته مما نصبت لها قريش . ذلك أنه لما بلغهم نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب، تآمروا على اغتياله ، واجتمعوا فى دار الندوة للتشاور فى هذا الأمر الخطير ، فأشار بعضهم بحبسه ، وبعضهم بنفيه ، وبعضهم بقتله، وانتهى بهم الرأى إلى أن يؤخذ من كل قبيلة فتى جَلْد، وأن يُعْطى كل منهم سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل واحد ؛ وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعا . فنزل على الرسول قوله تعالى فى سورة الأنفال (وإذ يمْكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وَيمْكرون وَيمْكر الله والله ُ خير ُ الماكرين) .

ولما أحدق الخطر بالرسول لم يفكر إلا فى صاحبه أبى بكر ، فسعى إلى داره ، يشاوره فى هذا الأمر ، ويطلعه على ما أخبره الله به من تآمر قريش به ، وقال له: إن الله قد أمرنى بالهجرة . فطلب منه أبو بكر أن يصحبه ، وألح فى ذلك ، وخرج الرسول ورفيقه من باب صغير خلف دار أبى بكر ، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور بأسفل مكة فدخلاه . « وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر ابن فُهَيْرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تاتيهما من الطعام — إذا أمست — بما يصلحهما . » وقد شقَّت أسماء نطاقها لتشد به الطعام حيث لم تجد ماتشد به ، فسميت لهذا ذات النطاقين .

وخشى الرسول وأبو بكر أن يلحقهما أذى قريش ، فتدرعا بالصبر . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى سورة التوبة : (إلاَّ تنْصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذْ هما فى الغار إذْ يقول لصاحبه لاتحزَنْ إنَّ الله معنا فأنزَل الله سكينته عليه وأيَّده بجنود لم تروْها ، وجعل كلمة الذين

كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم) .

عرف الرسول لأبى بكر مابذل فى سبيل الله والمحافظة على حياة رسوله من تضحيات جسام ، فعبر عن إعجابه بصدق جهاده فى هذه العبارة التى قالها وهما فى الغار : « ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

روى عن أبى هريرة أن الرسول قال : مالأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبا بكر ؛ فإن له عندنا يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة . ومانفعنى مال أحد قط مانفعنى مال أبى بكر ، ولو كنتُ متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، وإن صاحبكم خليل الله .

ولما استقر الرسول فى المدينة المنورة ،كان أبو بكر ساعده الأيمن الذى لا ينفك عنه كظله ، نخصه بمزايا لم يخص بها أحدا سواه . يقول ابن خلدون : « كان يفاوض أصحابه ويشاورهم فى مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، فكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها — فى كسرى وقيصر والنجاشي — يسمون أبا بكر وزيره . » ويقول ابن حجر : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يرسل معاذاً إلى اليمن ، استشار ، فقال كل برأيه ، فقال : إن الله يكره فوق سمائه أن يخطأ أبو بكر . »

من ذلك نرى كيف أن أبا بكر قاسم الرسول مر العيش وحلوه ، وآلام الحياة ومافيها من نصر وظفر ، وبقى معه كظله لاينفك عنه ، حتى روى أن الرسول قال فى آخر خطبة له : « إن عبدا من عباد الله خيّره بين الدنيا وبين ماعنده ، فاختار ماعند الله» . ففهمها أبو بكر ، وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه، وأن منيته قد حانت ، فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال : على رسْلك يا أبا بكر ! انظروا هذه الأبواب والشوارع اللافظة فى المسجد ، فسدوها إلا ما كان من بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحدا كان أفضل عندى فى الصحبة يدا منه. وروى عن عمرو بن العاص أنه قال : يارسول الله ! أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ؟ قلت : من الرجال ؟ قال : أبوها .

لم يوص الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لأحد من أصحابه، بل ترك الخلافة شورى بينهم. فلما انتقل إلى جوار ربه، اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة، وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عُبادة سيد الخزرج. فحضر إليهم نفر من المهاجرين، وكاد يقوم الخلاف بين هؤلاء وأولئك، لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيبا، وأدلى لهم بالحجة على أن هذا الأمر لقريش، وحذر الأنصار إنْ وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس. وذكر الأنصار ماكان بينهم فى الجاهلية، وخشوا أن تعود العداوة بينهم سيرتها الأولى، وصادف كلام أبى بكر هوى فى نفوسهم، وعرض عليهم مبايعة عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة بن الجراح. ولما رأى عمر أن الأصوات قد ارتفعت واللغط قد كثر، أشفق من الاختلاف، وخشى أن يضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر، الذى عرف له المسلمون سنه وسبقه إلى الإسلام وأثره فى نشر الدين، فقال له عمر: «ألمْ يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته، ونحن نبايعك فنبايع خيرَ من أحب رسول الله منا جميعا»، ثم قال لأبى بكر: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده، فبايعه، وبايعه المهاجرون والأنصار. وتسمى هذه البيعة: البيعة الخاصة، لأنه لم يبايعها إلا نفر قليل من المسلمين، هم الذين حضروا السقيفة. فلما كان الغد، جلس أبو بكر على المنبر فى المسجد، وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة. وبذلك جوزى صاحب النفس السمحة، والخلق القويم، والسيرة العطرة، والعقل الراجح، والإيمان الصادق، وإنكار الذات، وأصبح أبو بكر رضى الله عنه خليفة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

يتجلى ذلك من هذه الخطبة القصيرة الجامعة التى خطبها أبو بكر فى مسجد الرسول بعد بيعته، وهى مع إيجازها، تعد بحق دستورا للحكم، واستمساكا بسنة الرسول، والجهاد فى الدين والتأليف بين قلوب المسلمين. قال أبو بكر: «أيها الناس! إنى قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإنْ أسأت فقومونى. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ

الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله ، إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ! »

كان أبو بكر رءوفا رحيما ، حسن السياسة بعيد النظر ، حريصا على وحدة المسلمين وسلامة كيانهم ، حتى لا يتعرضوا للفتنة والخلاف. يظهر ذلك من موقفه الرائع من علىّ بن أبى طالب ، حين أشيع أنه نكص على بيعة أبى بكر ، وقعد فى داره ، وجنح إلى العزلة ، فظن الناس به الظنون ، وذهبوا فى تفسير موقفه مذاهب شتى ، فشاور أبو بكر ، عمر بن الخطاب فى الأمر ، وبعث فى طلب أبى عبيدة بن الجراح ، لسنه وأمانته ومكانته من المسلمين ، وهو الذى قال فيه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ، وطلب إليه أن يمضى إلى علىّ ويقول له على لسانه :

ما هذا الذى تسوّل لك نفسك ويدوى (١) به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص (٢) به طرفك ، ويسرى به ظعنك ، ويترادف معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ؟ أمثلى تمشى إليه الضرّاء وتدبّ له الخمر (٣) ؟ أو مثلك ينقبض عليه الفضاء ويكسف (٤) فى عينه القمر ؟ ما هذه القعقعة (٥)

---

(١) من الدوى (بفتح الواو) وهو داء باطن فى الصدر .

(٢) التخاوص غض البصر مع تحديق كمن يقوم سهما .

(٣) يقال للرجل إذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر ، ويقال : لاأمشى له الضراء ولا الخمر ، أى أجاهره ولا أخاتله . والضراء الاستخفاء . ويقال : ماوارك من شىء وأدرأت به فهو خمر .

(٤) نقل عن ثعلب أن الأجود أن يقال : كسفت الشمس وخسف القمر . انظر اللسان والمصباح مادة « خسف » .

(٥) قال فى اللسان مادة قعع : وفى المثل فلان لايقعقع له بالشنان ، أي لايخدع ولا يروع وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع .

بالشّنان ؟ وما هذه الوعوعة باللسان ؟ إنك والله جِدُّ عارف باستجابتنا إلى الله عز وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا لله عزّ وجل ولرسوله ونصرة دينه ، فى زمان أنتَ فيه فى كِنِّ الصِّبا ، وخدر الغرارة ، وعنفوان الشَّبيبة ، غافلاً عما يشيب ويريب ، لا تعى ما يُراد ويُشاد ، ولا تحصّل ما يُساق ويُقاد ، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التى إليها عُدل بك ، وعندها حُطّ رَحْلُك ، غيرَ مجهول القَدْر ، ولا مجحود الفضل . ونحن فى أثناء ذلك نُعانى أحوالا تُزيل الرواسى ، ونقاسى أهوالا تُشيب النواصى ؛ خائضين غمارَها ، راكبين تيارها ، نتجرّع صابها ونُشرج (١) عِيابها ، ونحكم أساسها . . . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لى : يا أبا بكر ! هو لمن يرغب فيه ، لا لمن يجاحش (يدافع) عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن ينتفج (٢) إليه ، هو لمن يقال : هو لك لا لمن يقول هو لى » . ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القهر ، ؛ فذكر فتياناً من قريش ، فقلت : أين أنت من على ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحداثة سنّه ، فقلت له : متى كنفته يدُك ورعته عينك ، حفَّت بهما البركة ، وأسبغَت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنتُ عرفتُ منك فى ذلك حوْجاء ولا لوْجاء ، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى ؛ ولئن كان عرّض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر فلم يكن مُعْرضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك ، فما سكت عن سواك . . . وبعدُ ، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ، ودار جامعة ؛ إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضع يدى فى يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخلْ فى صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن

---

(١) أشرج العيبة وشرجها بدون همز : شد عراها .

(٢) الانتفاج : الارتفاع ، أو هو مستعار هنا من قولهم : انتفجت الارنب إذا وثبت .

العونَ على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم (١) ، والمرشد لضالتهم ، والرادع لغوايتهم ، فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البرّ والتقوى ، والتناصر على الحق . ودعنا نَقض هذه الحياة بصدور بريئة من الغِل ّ؛ سليمة من الضغائن والحقد ، ونَلْق الله تعالى بقلوب سليمة من الضّغن ؛ وبعد ، فالناس ثمامة (٢) فارفُق بهم ، واحْن عليهم ، ولنْ لهم ، ولا تُشق نفسك بنا خاصَّة منهم ، واترك ناجمَ الشر حصيداً وطائر الشر واقعاً ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ، ولا لوم ولا تعنيف ، والله على مانقوله شهيد ، وبما نحن عليه بصير» (٣)

وهنا تجلى بعد نظر أبى بكر حين آثر أن يتصل بعليّ مباشرة ، وأن يختار خير رسول يسعى بينهما إلى الخير . ولم يصدّق كلام الوشاة ولا ماتروّجه الإشاعات من أباطيل ، تنال من كيان الوحدة الإسلامية وتفرق كلمة المسلمين . وماكاد أبو عبيدة يؤدى رسالته خير الأداء ، حتى تجلى خلق عليّ – كرم الله وجهه – الرضى ، ونفسه السمحة ، وإيثاره مصلحة المسلمين ، فتبيّن أنه برىء مما رمى به ، وأنه لم يتخلف عن أبى بكر عامدا ، وإنما تخلف لأسباب تمتّ إلى حزنه على وفاة الرسول ، وخلوه إلى نفسه حتى يفيق من هول مارزىء من فقد وليه ، وحميمه وصهره فقال:

« والله ماكان قعودى فى كِسْر هذا البيت قَصْدا للخلاف ، ولا إنكارا للمعروف ، ولا زرايةً على مسلم ، بل لما وقَذَنى (٤) به رسول الله صلى الله عليه من فراقه ، وأودعنى من الحزن لفقده ، وذلك أننى لم أشهدْ بعده مشهدا إلا جدّد علىّ حزنا ، وذكّرنى شجَنا . وإنّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ... وإنى غادٍ إلى جماعتكم ، مبايعٌ لصاحبكم ، صابرٌ على ماساءنى وسرّكم ، ليقضى الله

---

(١) المغالق : جمع مغلاق بكسر الميم ، والمغلاق : مايغلق به الباب كالمغلاق ، كما فى شرح القاموس مادة « غلق » نقلا عن الراغب .

(٢) الثمامة بضم الثاء : واحدة الثمام ، وهو نبت ضعيف له خوص . وربما حشى به وسد به خصاص البيوت ، ويشبه . به في الضعف

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٧ ص ٢١٨ — ٢٢٣ .

(٤) وقذه : تركه عليلا .

أمر آكان مفعولا »(١)

اشتهر أبو بكر فى جميع مواقفه بالشجاعة والثبات فى الخطوب. ولا غرو فقد نهض بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة العرب. يتجلى ذلك من موقف أبى بكر الخالد، حين رأى الخلاف يدب بين العرب منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه ، فلا يخضع أكثر القبائل العربية لسلطانه، وترتد عن الإسلام ، ويمتنع بعضها عن أداء الزكاة ، بل إن بعض العرب يدعون النبوة . نعم ! لقد شك فريق من العرب فى أمر هذا الدين الذى خلفه الرسول ، واعتقد غيرهم أن قريشا أو غيرها إذا وليت هذا الأمر سوف تحيله ملكا عضودا ، وخشوا أن من يخلف الرسول قد يحكم هواه وأهله وعشيرته فى الناس ومصالحهم ، كما خشوا أن يؤدى هذا الأمر إلى إعلاء شأن القبيلة التى ينتمى إليها الخليفة ، ويغض من شأن غيرها من القبائل ، فيميل ميزان العدل بين الناس . وقد رأى أبو بكر التمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل ، حتى كاد يتزعزع مركز الإسلام ، وانكمش إلى مكة والمدينة والطائف وبنى عبدالقيس .

بادر أبو بكر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وعقد اللواء لقتالهم على أحد عشر قائدا فى وقت واحد ، وأرسل إلى جميع المرتدين كتابا يدعوهم فيه للرجوع إلى حظيرة الدين ، ورد الشبهة التى نشأت عن موت الرسول ، بأنه بشر يموت كما يموت كل إنسان ، ثم هددهم بالقتل إذا لم يرجعوا . وبفضل شجاعة أبى بكر وما عرف عنه من حزم وغيرة على الدين ، كانت الغلبة للجيوش الإسلامية ، وعلت كلمة الإسلام من جديد ، ثم جعل أبو بكر من المسلمين جندا ، لبث الدعوة والجهاد فى سبيل الله فى خارج الجزيرة العربية ، حتى أديل لهم من دولتى الفرس والروم العظيمتين ، وفتحوا ما فتحوا من بلادهم .

شرع الخليفة الرشيد الأول ، أبو بكر الصديق ، للمسلمين آداب الحرب ، فأوصاهم بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم ،

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٧ ص ٢٢٩ .

ولا يعرضوا لشعائرهم الدينية ، فقال لأسامة بن زيد حين سيره لغزو بلاد الشام : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فأخفقوهم بالسيف خفقا ، ثم اندفعوا باسم الله .

كان أبو بكر لينا رحيما فى مواضع اللين والرحمة ، قاسيا شديداً حيث تحسن الشدة وتصلح القسوة ، فقد روى أنه كان بين عائشة والنبى كلام ، فخيرها النبى أن تحكّم بينهما من تشاء ، وذكر لها بعض الأسماء ، وممن سماهم «أبو عبيدة بن الجراح» ، فقالت عائشة : «إنه رجل هين لين ، هواه معك وميله إليك ، فهو لا شك يقضى لك» ، فقال الرسول : «أترضين أبا بكر حكماً بيننا ؟» فرضيت ، وقالت : نعم ! فلما قدم أبوها ، قال الرسول : قصّى على مسامع ابن أبى قحافة قصتنا ، فتمنعت وقالت : بل اقصص أنت ! فأخذ الرسول يسرد ما جرى بينهما من حديث ، وأفلتت كلمة من أم المؤمنين عائشة لم تكن تقصدها ، وقالت : اقصد (أى اختصر فى الكلام ولا تزد) ؛ فثارت ثائرة أبى بكر ، ولطمها غاضبا ، وانتهرها ، وقال : يا بنت أم رومان ! تأمرين الرسول بالقصد فى الكلام ؟ ومَن أبلغ من رسول الله قصدا حتى تجرئين على مقامه بمثل هذا ؟ وسال الدم من أنف عائشة من شدة اللطمة ، والرسول عليه السلام يحول بينه وبينها ملطفا من حدة الموقف بقوله : ما لهذا قصدنا ! ولم يزل بأبى بكر حتى انصرف بعد أن رضى رسول الله الذى عاد إلى عائشة ، يعتب عليها ويداعبها بقوله : أرأيت كيف أنقذتك من أبيك ؟

فهذه قسوة الأب الرحيم على ابنته ، يوطىء لها فى بيت زوجها مقاما ، ويمهد لها عيشا سعيدا أساسه هناءة الزوجة برضا الزوج .

وهذا مثل آخر من مُثُل الرحمة والعاطفة فى موضع الحق والنَّصفة ، دون

أن يكون للصداقة والعاطفة شأن فى حكمه وقضائه ؛ فقد روى أن عمر بن الخطاب لما أخذ ابنه عاصما من زوجه المطلقة ، اختصما إلى أبى بكر ليقضى بينهما فى احتضان الولد ، فقضى أبو بكر بحضانة الأم للولد مخاطبا عمر : « ريحها وشمها ولطفها خير له منك »

هكذا قضى أبو بكر بالحق دون أن يكترث بمكانة عمر ، وهو ممن هو عند أبى بكر مكانة وإعزازا ، ولكن شفقة أبى بكر جعلته يضع الرحمة فى خير مكان ، دون مساس بالعدالة أو جور على الحق .

كانت زلة اللسان مهما صغرت تؤلمه ألما يتململ منه ضميره ، فلا يستريح من عذابه حتى يقتص من نفسه .

فقد أخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الأسلمى رضى الله عنه قال : جرى بينى وبين أبى بكر كلام ، فقال لى كلمة كرهتها وندم ، فقال : ياربيعة ! رد علىّ مثلها حتى يكون قصاصا ! قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدينّ عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر ، وجاء أناس من أسلمة ، فقالوا لى : رحم الله أبا بكر ! فى أى شىء يستعدى عليك وهو الذى قال عليك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثانى اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين إياكم ، لا يلتفت فيراكم تنصروننى عليه ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة . قال فتبعت أبا بكر وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الحديث كما كان ، فرفع الرسول رأسه ثم قال : ياربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت : يارسول الله ! كان كذا وكذا ، فقال لى كلمة كرهتها . فقال لى : قل كما قلت حتى يكون قصاصا ، فأبيت ، فقال رسول الله : أجل ، لا ترد عليه ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر .

كان أبو بكر يؤدب الأمراء وينهاهم عن المثلة فى الناس : ذكر السيوطى أن المهاجر بن أبى أمية كان أميرا على اليمامة ، فرفع إليه امرأتان مغنيتان ، غنت إحداهما بشتم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقطع يدها وقطع ثنيتها ، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين ، ففعل بها مثل ذلك ، فكتب إليه أبو بكر رضى الله

عنه : بلغنى الذى فعلتَ بالمرأة التى تغنت بشتم النبى صلى الله عليه وسلم ، فلولا ماسبقتنى فيه لأمرتك بقتلها، لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود ، فمن تعاطى ذلك من المسلمين فهو مرتد ، أو معاهد فهو محارب غادر. وأما التى تغنت بهجاء المسلمين؛ فإن كانت ممن يدعى الإسلام ، فأدب وتعزير دون المثلة، وإن كانت ذمـيّة، فلعمرى لمَا صفحتَ عنه من الشرك أعظم . ولو كنتُ تقدمت إليك فى مثل هذا لبلغتَ مكروها . فاقبل الدعة، وإياك والمثلة فى الناس، فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص .

كان أبو بكر كريم اليد سخيا، حتى لقد أنفق ثروته فى سبيل الله ، قالت عائشة: إنه مات وما ترك درهما ولا دينارا ، فقد أنفق ثروته فى سبيل الله ، وأعتق سبعة من المسلمين ، كان القرشيون يعذّبونهم ليرتدوا إلى الوثنية ، ومن هؤلاء بلال ، وعامر ابن فهيرة ، وجارية بنى المؤمل. وكان رضى الله عنه معروفا بين الصحابة بالعلم والفقه فى الدين والفصاحة .

ذكر النووى عن على بن أبى طالب أنه قال : « قدّم رسول الله أبا بكر يصلى بالناس ، وأنا حاضر غير غائب ، وصحيح غير مريض . ولو شاء أن يقدمنى لقدمنى ، فرضينا لدنيانا مَنْ رضيه الله ورسوله عليه السلام لديننا . »

وإلى أبى بكر رضى الله عنه يرجع الفضل فى جمع القرآن الكريم الذى نزل مُنَجّما(١) فى بضع وعشرين سنة . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يكتبون ما ينزل من الآيات من تلقاء أنفسهم ، أو بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم على سعف النخل والرقاع وقطع الأديم وعظام ألواح الشاة والإبل وأضلاعها .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه، وقامت حروب الردة التى قتل فيها أكثر القراء من الصحابة ، ولاسيما فى يوم اليمامة حيث قتل أكثر من سبعين من هؤلاء القراء (٢) ، شق هذا الأمر على عمر بن الخطاب، وخشى أن يضيع القرآن ، فقال لأبى بكر : إن القتل قد كثر واستحرّ بقراء القرآن يوم اليمامة، وإنى

(١) يقال نجم المال تنجيما إذا أداه نجوما أى على أقساط .

(٢) قيل إنه قتل مثل هذا العدد فى غزوة بئر معونة .

أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير ،وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فلم ير أبو بكر بدا من تلبية نداء مستشاره وساعده الأيمن عمر، أبتغاء مرضاة الله وحرصا على كتاب الله أن تذهب بسوره يد الضياع ، فأمر زيد ابن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال ، وقد ضم أبو بكر إلى زيد سالم مولى أبى حذيفة — وكان يكتب الوحى للرسول — ليعاونه فى جمع القرآن ، على أن يقوم زيد بتدوينه .

وقال أبو بكر لعمر وزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على كتاب الله ، فاكتباه. وشمر زيد عن ساعد الجد فى جمع القرآن على هذا النحو، حتى وجد الآيتين الأخيرتين من سورة براءة (التوبة) مع أبى خزيمة بن ثابت ، ولم يجدهما مع غيره ،وهما : (لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولَّوْا فقل حسبىَ اللهُ لا إله إلاَّ هو عليه توكَّلتُ وهو رب العرش العظيم) . وقد حفظت هذه الصحف عند أبى بكر ، ثم عند عمر حتى مات ، فحفظت عند ابنته حفصه بنت عمر حتى ولى عثمان الخلافة.

وقد جمع القرآن فى آخر سنة من حياة النبى صلى الله عليه وسلم .ولكن لم يضم بعضه إلى بعض ، بل إن النبى علم بعض الصحابة ترتيب آياته ، والناسخ منها والمنسوخ . وجماع القرآن على عهد النبى : على بن أبى طالب ، وسعد بن عُبيد بن النعمان ، وابو الدَّرْدَاء عُويمْر بن زيد ، ومُعَاذ بن جبل بن أوْس ، وأبو زَيْد ثابت بن زيد ، وأُبَىّ بن كعب بن زيد .

تزوج أبو بكر فى الجاهلية : قتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد بن أسعد بن جابر بن مالك بن لؤى ، فولدت له ابنه عبدالله ، وابنته أسماء ذات النطاقين ، أم عبدالله بن الزبير . ثم تزوج أم رومان بنت عامر بن عَميرَة بن ذُهْل بن دُهان ابن الحارث بن كنانة ، فأنجب منها عبدالرحمن ، وعائشة أم المؤمنين . أما فى الاسلام فقد تزوج أسماء بنت عُمَيْس ، فولدت له محمد بن أبى بكر ، وكان محمد ربيبا فى بيت على الذى تزوج أمه بعد وفاة أبى بكر . وقد تزوج محمد والحسين بن على ابنتى

يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان من الفرس . ولما آلت الخلافة إلى على ، ولاه مصر ، فلما فتحها عمرو بن العاص فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، أحل الهزيمة بمحمد ، وقتله ، ووضع جثته فى جيفة حمار . كذلك تزوج أبو بكر حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبى زهير ، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم .

لم تطل خلافة أبى بكر ، فوافاه أجله المحتوم فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، بعد سنتين من خلافته . وقد ترك فى تاريخ الإسلام صفحة مجيدة خالدة : دخل الإسلام موسرا ، فأنفق ماله فى سبيل الله ، ومات فقيرا ، وكانت حياته عبرة وعظة .

وفى عهد أبى بكر القصير ، توطدت أركان الإسلام ، وأصبح لا يخشى عليه من ضعاف القلوب والعقائد . كما تم فتح كثير من بلاد الشام والعراق قبل أن يلحق بربه راضيا مرضيا . وكان فى الثالثة والستين من عمره ، ودفن إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان رفيقه فى الدنيا والآخرة .

٢ – عمر بن الخطاب

«اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين»
(عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب)

من أعلام المسلمين الذين ملأت أسماؤهم بطون الكتب، رجل قد اتصف بصفات قلّ أن تجتمع فى شخص، وكان له أثر بالغ فى رفع منار الإسلام، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وتنظيمها — ذلكم هو عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رَباح بن كعب بن لؤى القرشى. يرجع نسبه إلى بنى عَدِىّ، وهم بطن من بطون قريش اشتهروا بالشرف والمجد. ويجتمع نسب عمر مع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام فى الجد السابع، ويجتمع معه من جهة أمه فى الجد السادس. وقد كنّاه الرسول أبا حفص، لما رآه فيه من الشدة فى الحق.

ولد عمر بمكة قبل حرب الفجار الأعظم(١) بأربع سنين، وفى رواية أخرى أنه ولد بعد الرسول بثلاث عشرة سنة، أى فى سنة ٥٨٤ ميلادية.

نشأ عمر نشأة عالية كغيره من فتيان الطبقة الراقية فى قريش، فكان مثال الفصاحة والبلاغة والصراحة فى الحق. وكان فى صغره يرعى الغنم لأبيه، ثم احترف التجارة، وكان يختلف فيها إلى بلاد الشام، فاتسعت مداركه وتجاربه بما شاهده من أحوال هذه البلاد، وطرق التعامل وأخلاق الناس.

---

(١) الفجار: هى حروب وقعت بين قبائل من عرب الحجاز، فى الأشهر الحرم وهى الشهور التى يحرم فيها القتال. وكان الفجار الأعظم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة، وقد شهدها النبي وهو ابن أربع عشرة سنة وقال: كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة، يعني أناولهم النبل.

كان عمر رضى الله عنه يعارض الدعوة الإسلامية معارضة شديدة فى مبدإ الأمر . فقد قيل إنه كان قبل إسلامه يمعن فى تعذيب لُبَيْنة جارية بنى مؤمن (وهو حى بنى عدى بن كعب) حتى يمل ، ثم يدعها و يقول: إنى لم أدَعْك إلا سآمة. ولم تزل لبينة على ذلك حتى اشتراها أبو بكر الصديق وأعتقها . وكان الرسول الكريم يعرف لعمر مركزه من قريش ، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يعزّ الإسلام بعمر، وأن يجعل إسلامه فتحا ونصرا مبينا للدعوة ، إذ كان يعتقد عليه أفضل الصلاة والسلام ، أنه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته ؛ فقد أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعزّ الإسلام بأحد هذين الرجلين : يعنى عمرو بن هشام ، وعمر ابن الخطاب . وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء الرسول ، فلم يلبث عمر أنه دخل فى الإسلام ، وأصبح من أتباع الرسول فى نشر هذا الدين . روى ابن هشام عن إسلام عمر :

« خرج عمر يوما متوشّحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فلقيهُ نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابىء ، الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ؛ فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسُك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختَنُك (١) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر عامداً إلى أخته وختَنه وعندهما خبّاب بن الأرَتّ ، معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها . فلما سمعوا صوت عمر ، اختفى خباب فى البيت ، وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة . . . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال : ماهذه الهينمة التى سمعت ؟ قالا له : ماسمعت شيئاً ، قال : بلى !

« والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد »

(١) صهرك : يقصد زوج أخته .

فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها ، فضربها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ! لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ماصنع ، فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا، أنظر ماهذا الذى جاء به محمد ، فقالت له أخته : إنانخشاك عليها ، قال : لا تخافى ! و حلف لها بآلهته ليردّنها إليها إذا قرأها، فقالت له أخته : ياأخى! إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طه » ، فلما قرأ منها سطرا قال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب ، خرج إليه فقال له : ياعمر ! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ؛ فالله الله ياعمر ! فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصّفا(١) معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشّحه ، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه ، فضرب عليهم الباب . فلماسمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحا بالسيف ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يارسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فائذن له ! فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله : ائذن له ! فأذن إليه الرجل، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بحُجزَته(٢) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : ما جاء بك ياابن الخطاب ؟ فوالله ماأرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يارسول الله! جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله ، فكبّر الرسول تكبيرة عرَف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم .

---

(١) يريد بيت الأرقم بن أبي الأرقم وكان مقر الدعوة الاسلامية فى دور استتارها .

(٢) الحجزة : موضع تكة السراويل .

روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «كان إسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا . وروى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : ماعلمتُ أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يديه أسهما ، واختصر عنَزَته ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الخلق واحدة وقال لهم : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده وترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

كان عمر بعد إسلامه من المقربين إلى الرسول ، وكان كثيرا ما يشير على الرسول بالأمر ، فينزل القرآن الكريم موافقا لما أشار به عمر . فقد روى أنه لما انتصر المسلمون فى بدر ، وأسروا عددا كبيرا من المشركين ، استشار الرسول أصحابه فى مصير هؤلاء الأسرى ، كما استشارهم فى الأنفال .

وقد اختلف المسلمون فى النَّفْل الذى جمعه بعضهم فى غزوة بدر ، فقال من جمعوه : إنه لهم ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما أصاب . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطاردونهم : إنهم شغلوا العدو عنهم حتى أصابوا ما أصابوا من النفل ، وقال الذين كانوا يحرسون الرسول : إنهم ليسوا أحق منهم بالنفل ؛ لأنه لم يكن ثمة ما يحول دون استيلائهم عليه إلا خوفهم من أن يفاجئ العدو الرسول فيصيبوه بسوء . ومن المسلمين من عهد إليهم الرسول بأن يقوموا بأعمال تتصل بالقتال وليست منه ، أو من تخلفوا عن القتال لأعذار خاصة ، كعثمان ابن عفان الذى أبقاه الرسول مع أسامة بن زيد فى المدينة لتمريض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التى دفنت حين اتصل بهم نبأ انتصار المسلمين فى بدر .

والنفل أو الغنيمة هو ما أخذه المسلمون من الكفار قهرا بعد هزيمتهم فى الحرب .

أما الفَىْء فهو ما يؤخذ من الكفار، ولكن عن طريق صلح واتفاق. ويختلف النفل عن الفىء، بأن أربعة أخماس النفل تقسم على المحاربين؛ أما أربعة أخماس الفىء، فإنها تترك للرسول أو لإمام المسلمين، ليصرفها فى مصالح المسلمين ومنها الجيش. وأما خمس الفىء أو الغنيمة، فيقسم إلى خمسة أسهم: سهم للرسول (فى حياته)، ينفق منه على نفسه وأزواجه، ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين، والسهم الثانى لذوى القربى، والثالث لليتامى من ذوى الحاجات، والرابع للمساكين، والخامس لأبناء السبيل. فقد قال الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنفال (٨ : ٤١): (واعلموا أنّ ما غنِمتُمْ من شىء فإنّ لله خُمُسَه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل). ويدخل فى الفَىْء: الجزية أو الخراج والعشر من متاجر المشركين.(١) وهذا يختلف عن الصدقات التى تؤخذ من المسلم، زكاة كان أو تطوعا، كما جاء فى القرآن الكريم (سورة التوبة : ٦٠): (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم).

وكان من اختلاف المسلمين فى النفل أن نزل قوله تعالى فى سورة الأنفال (٨ : ١): (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتّقوا الله وأصلِحوا ذاتَ بينكم وأطيعوا الله ورسولَه إنْ كنتم مؤمنين). فلما سار رسول الله وأصبح على مقربة من المدينة، ومعه النَّفَل الذى أصابه المسلمون من المشركين، قَسمه على المسلمين على السواء.

روى الطبرى أنه لما جىء بأسرى بدر، وكانوا أربعة وأربعين، وقيل سبعين، قال الرسول لأصحابه: ماتقولون فى هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يارسول الله! قومك وأهلك استَبْقِهم واستأنهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم. فقال الرسول لعمر بن الخطاب: ماترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذى لا إله إلا هو، ما أرى الذى رأى أبو بكر يا نبى الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم، فتمكن عليا من عقيل

---

(١) انظر الماوردى: كتاب الأحكام السلطانية ص ١٢١ — ١٥٢.

فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكنني من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده.

وقال عبدالله بن رواحة : يارسول الله ! انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ، فقال له العباس : قطعتك رحمك ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ، ثم دخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليُشدِّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : «فَمَن تبعني فإنه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم.» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ، قال : «إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادك وإنْ تغفِرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال : (ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّارا) ، ومثلك كمثل موسى ، قال : (ربنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق . قال عبد الله بن مسعود إلاّ سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل بن بَيْضاء فأنزل الله عز وجل في سورة الأنفال (٨ : ٦٧ - ٧٠) « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض، تريدون عَرَضَ الدنيا والله يُريد الآخرةَ والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سَبَقَ لمَسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيِّباً واتقوا الله إنّ الله غفور رحيم. يأيها النبي! قل لمَنْ في أيديكم من الأسرى: إنْ يَعْلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويَغفر لكم والله غفور رحيم[1]. »

وقد روى الطبري أن الرسول بعد أن فرق الأسرى على أصحابه قال لهم : استوصوا

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٣١٢ - ٣٢٤ .

بالأسارى خيرا . فكان أبو عزيز بن عمَير بن هاشم أخو مصعب بن عمير أحد هؤلاء الأسرى ، وقد قال إن الأنصار كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خَصُّونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ماتقع فى يد رجل منهم كِسْرة من الخبز إلا نفحنى بها ، فأستحى فأردُّها على أحدهم ، فيردها علىّ ما يَمَسُّها. (١)

وهكذا نزل القرآن الكريم موافقا لرأى عمر رضى الله عنه ، بما يدل على ماكان يتمتع به من رأى صائب ، ونظر بعيد ، وفهم لروح الإسلام . وقد اعترف الرسول بما لعمر من صدق الرأى ونافذ البصيرة ، فإنه لما رآه قادما عليه، ابتسم وقال : أبشر يا عمر ، فقد نزل الوحى برأيك . يقول عمر : لما كان من الغد (أى ثانى يوم استشار النبى أصحابه حيث كان هوى النبى مع أبى بكر) ، جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقلت : من أى شىء تبكى أنت وصاحبك يارسول الله؟ فقال الرسول : أبكى للذى عرض لأصحابى من أخذهم الفداء ، وقال رسول الله : لو عُذِّبنا فى هـــذا الأمر ياعمر ، مانجا غيرك ؛ إذ قال الله : (لا تعودوا تستحلون قبل أن أحلّ لكم) .

وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل فى تولية أبى بكر الخلافة ، وحسم النزاع الذى أوشك أن يتفاقم بين المهاجرين والأنصار على أثر موت الرسول ، فقال لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة : ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت ياأبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته ، ونحن نبايعك ، فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا . وبايعه ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه ؛ وبذلك بويع أبو بكر بفضل ماأوتيه عمر من المهارة والشجاعة .

وكان أبو بكر يستشير عمر فى مهام الأمور ، فشاوره فيما كان من تخلف على ابن أبى طالب عن بيعة أبى بكر ، وما ترتب على ذلك من انقسام كاد أن يفرق كلمة المسلمين . فاستدعى أبو بكر أبا عبيدة بن الجراح وعهد إليه أن يذهب إلى على

---

(١) الطبرى : الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٧ ، ٢٩٥ – ٢٩٦ .

فيبلغه رسالته . وكان عمر — كعادته — قويا فى مواقفه ، حاسما فى آرائه ، لايحب أن تؤخذ الأمور باللين ، إنما تؤخذ بالحزم . فما كاد أبو عبيدة يتأهب للخروج حتى قال له عمر : كن لدى الباب هنيهة ، فلى معك دور من القول ، فوقف وقال لأبى عبيده : « قل لعلىّ : الرُّقاد مَخْلمة ، والهوى مَقْحمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحقٌ مشاع أو مقسوم ، ولا خير فى معرفة مشوبة بِنُكْر . وكل صالٍ فبناره ، وكل سيل فالى قراره . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كذوب . فماذا بعد الحق إلا الضلال . ماهذه الخنز وانة (الكبر) التى فى فراش رأسلك ، وما هذا الذى لبِستَ بسببه جلد النَّمِر ، أتظن ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفْتاتا على الأمة ، خادعا لها ، أومتسلطا عليها ؟ . . . إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقرب منك قرُبة (وسيلة). والقرابة لحم ودم ، والقربة نفس وروح ، وهذا فرق عرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون ، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا » (١) .

كان أبو بكر يحيل على عمر الفصل فى القضايا ، كما كان ساعده الأيمن فى حروب الردة . وإليه يرجع الفضل فى جمع القرآن وتدوينه .

وقد عرف أبو بكر لعمر شجاعته وكفايته وحسن سياسته وأثره فى نشر الإسلام ، فرشحه للخلافة من بعده ، وأثنى عليه الصحابة ، ووافقوا على اختياره ، لأنه كان بحق محلّ احترامهم وموضع ثقتهم جميعا . ولما ولى عمر الخلافة ، صعد المنبر وخطب الناس خطبة تبين السياسة التى عول على انتهاجها فى شئون دولته ، فقال : « إنى قائل كلمات ، فأمنوا عليهن . فكان أول كلام قال حين استخلف : « إنما مثل العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا ، فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » .

وقد تمت معظم الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ -

ففتحت معظم بلاد فارس ، وفلسطين ، والشام ، ومصر ، وبرقة ، واتسعت رقعة الدولة العربية على حساب دولتى الفرس والروم .

وكان عمر رضى الله عنه أول من وضع النظام السياسى للدولة الإسلامية ، ونظم إدارتها . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب ، وإدخال القبائل بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هى الأمة العربية . ولما أثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الأكاسرة ، رأى عمر توزيع هذه الأموال على المسلمين ، مراعيا فى ذلك مراتبهم ومبلغ استحقاقهم ، فأدخل نظام الدواوين الذى سار عليه الفرس لضبط دخل الدولة وخرجها ، وعامل المسلمين وأهل الذمة معاملة قوامها العدالة المطلقة . وأنشأ عمر ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، كما أنشأ ديوان الخراج أو الجباية ، لتدوين ما يرد إلى بيت المال ، وما يفرض لكل مسلم من العطاء .

وقد أراد عمر بن الخطاب أن يخلد ذكرى هجرة الرسول الكريم من مكة إلى المدينة ، باعتبارها أهم أحداث التاريخ الإسلامى وأبعدها أثرا فى تاريخ الدعوة المحمدية ، فأمر باتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ العربى ، بعد أن كان المسلمون يؤرخون حوادثهم من مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد جمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس ، وسألهم عن أى يوم يُكتب التاريخ ، فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك . فلقى هذا الرأى قبولا عند عمر ، وعمل على تنفيذه ؛ لأن الهجرة قد أتاحت للرسول الفرصة لنشر الإسلام ، وتأسيس الدولة العربية ، والاضطلاع بالسلطتين الدينية والزمنية .

وقال ميمون بن مهران إنه رفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه صَكٌ محله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ أشعبان الذى نحن فيه أو الآتى ؟ ثم جمع وجوه الصحابة فقال لهم : إن الأموال قد كثرت ، وما قسمنا منها غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك ؟ فقالوا : يجب أن يُعرف ذلك من

رسوم الفرس. فاستدعى عمر الهرمزان وسأله عن ذلك ، فقال : إنّ لنا حسابا نسميه « ماه روز » ، معناه حساب الشهور والأيام ، فعرّبوا الكلمة وقالوا : مُؤَرَّخ ، ثم جعلوه اسم التاريخ ، واستعملوه ، ثم طلبوا وقتا يجعلونه أولا لتاريخ دولة الإسلام ، فاتفقوا على أن يبدأ من سنة الهجرة .

ولما اتسعت الدولة العربية فى عهد عمر ، قسم البلاد أقساما إدارية كبيرة ؛ ليسهل حكمها والإشراف على موارد ثروتها ، وعين على هذه الولايات عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذى كان يجمع فى يده السلطات التنفيذية والقضائية ، واختار عمر الولاة منَ العرب ، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين .

وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه فى موسم الحج أو فى غير موسمه ، عن حال امرائهم وسيرتهم فيهم . فقد روى عن الأسود بن أبى يزيد أنه قال : « كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه ، سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيرا ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون نعم ! فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا لخصلة منها : لا ، عزله » .

وكان عمر كثيرا مايجوس خلال دور المسلمين ، ويتفقد أحوال الرعية بنفسه ، ويطوف فى الأسواق وهو يقرأ القرآن ، ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم.

من ذلك ماروى عن أنس بن مالك قال : بينا عمر يعس بالمدينة إذ مرّ برحبة من رحباتها ، فإذا هو ببيت من شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين أمرأة ورأى رجلا قاعدا ، فدنا منه ، فسلم عليه ، ثم قال : من الرجل؟ فقال : رجل من أهل البادية ، جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله . فقال عمر : ماهذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ؟ فرد عليه قائلا : انطلق يرحمك الله لحاجتك ! قال عمر : علىّ ذلك ، ماهو ؟ قال : امرأة تمخض . قال : هل عندها أحد ؟ قال لا ! فانطلق أمير المؤمنين حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنها : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة عربية

تمخض ، ليس عندها أحد ! قالت : نعم ! إن شئت . قال : نخذى معك ما يصلح للمرأة فى ولادتها من الخرق والدهن ، وجيئينى ببرمة وشحم وحبوب . فجاءت به ، وقال لها : انطلقى ! وحمل أمير المؤمنين البرمة ، ومشت أم كلثوم خلفه حتى انتهى إلى البيت . فقال لها : ادخلى إلى المرأة ! وجاء حتى جلس إلى جانب الرجل فقال له :أوقد لى نارا ! فجعل ، فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها . ووضعت المرأة فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام ! فلما سمع الرجل قولها يا أمير المؤمنين ؛ — هاب عمر فجعل يتنحى عنه،فقال له عمر: مكانك كما أنت!وحمل عمر البرمة فوضعها على الباب ثم قال لأم كلثوم : أشبعيها ! ففعلت ،وأخرجت له البرمة،ثم قام عمر رضى الله عنه ، فأحضرها ووضعها بين يدى الرجل ، وقال له : كل ويحك ! فإنك قد سهرت من الليل ! ففعل . ثم قال عمر لامرأته : اخرجى ! وقال للرجل : إذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك،ففعل الرجل ، وأجازه الخليفة، وأعطاه ما يصلحه ويقوم بحاجته .

أى رحمة كهذه التى يرعى فيها عمر ربه ، فيعس ، لعله يجد مظلوما أو بائسا أو محتاجا أو مكروبا؛فيعمل على صيانة المجتمع من العوز والفاقة ، ويمد يد المعونة إلى من يرى أنه بحاجة إليها ، فى عدالة اجتماعية نادرة . ثم هو إلى جانب ذلك كله متواضع بر رحيم تمتزج رحمته وبره امتزاجا عجيبا بالتواضع ولين الجانب فى أبهى صورها . هذا هو عمر الذى تهتز لشخصيته أكرم النفوس وتخشى لقاءه سادات العرب ، يرق قلبه ، ويلين جانبه ، وتنبسط أساريره أمام رجل عادى من البادية ، فينال من وقته وجهده ، بل من عناية زوج أمير المؤمنين وكرمها وتواضعها ، ما يجعل النفوس أسيرة لهذا الصنيع الكريم .

بل لقد عزم عمر على الطواف فى الولايات الإسلامية، ليقف بنفسه على أحوال الرعية فيها. فقد روى أنه قال : «لئن عشت إن شاء الله ، لأسير فى الرعية حولا، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ، وأما هم فلا يصلون إلىّ ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم

أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا » .

وكان عمر يشرف بنفسه على جباية الخراج ، ويحاسب الولاة وعمال الخراج حسابا عسيرا . وقد بلغ من شدة مراقبته لعماله ، أنه كان يحصى أموالهم قبل توليتهم ، فإذا انتهت ولايتهم ، أحصى ثروتهم من جديد ، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ، ورده إلى بيت المال ، إلا إذا اتضح له أن هذه الزيادة أتت إلى العامل بطرق مشروعة .

كان عمر يعس ليلة ، فمر بدار سمع فيها صوتا ، فارتاب ، وتسوّر ، فرأى رجلا عنده امرأة وزق خمر ، فقال : ياعدو الله ! أظننتَ أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟ فقال : لاتعجل يا أمير المؤمنين ! إن كنتُ أخطأت فى واحدة ، فقد أخطأتَ فى ثلاث . قال الله تعالى : (ولا تجسسوا) ،وقد تجسستَ ، وقال : (وأتوا البيوت من أبوابها) وقد تسوّرت ، وقال : (إذا دخلتم بيوتا فسلموا) ، وما سلمتَ ، فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوتُ عنك ؟ »

وضع عمر لقواده الخطة التى يتبعونها فى تسيير الجيوش ونظامها . فقد كتب إلى سعد بن أبى وقاص حين سيره لفتح بلاد الفرس : « ترفَّقْ بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص من قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . وإذا وطئت أرض عدوك ، فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك من أمرهم شىء ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه . . وليكن منكَ عند دنوك من أرض العدو ، أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم . .

كان عمر رضى الله عنه أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية ، وسن لهم دستورا يسيرون على هديه فى الأحكام ؛ فمن كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى :

« القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . . البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحلّ حراما أو حرم حلالا . . الفهْم الفهم فيما تلجلج فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور بنظائرها ... »

وقد بلغ من عدل عمر أنه ما كانت تؤثر فى تصرفاته عواطفه الخاصة ونزعات قلبه . فقد روى أنه قال لرجل : « إنى لا أحبك . قال : فتنقصنى من حق شيئا ؟ قال عمر : لا ! قال الرجل : فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء .

وكان حزم عمر رضى الله عنه من أظهر ما امتازت به خلافته ، فكان إذا أمر بشىء أو نهى عنه ، بدأ ذلك بأهله فجمعهم ، وقال لهم : « إنى نهيت عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير — يعنى إلى اللحم — وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة . »

وبرغم هذه الشدة التى عرف بها عمر ، امتاز بالتواضع . وقد ظهر تواضعه فى ملبسه ومظهره عند ذهابه إلى الشام ، وعند مقابلته الهرمزان قائد الفرس الذى قصد إليه فى المدينة ، وما كاد يعرفه لبساطة ملبسه وعدم اعتداده بنفسه . نعم ! لقد كان عمر متواضعا خشن الملبس ، وقد اتبعه عماله فى سائر أفعاله وأخلاقه .

ولد عمر حاكما بطبيعته ، ورجلا فذا فى كل خطوة من خطوات حياته . كان ورعا متقشفا ، لا يخشى فى الحق لومة لائم . وكان شديد النزاهة نحو غيره ونحو نفسه ، شديد التعلق بالقرآن . وقد أثر عن الرسول أنه قال فى مرضه الأخير : عمر معى وأنا مع عمر ، والحق بعدى مع عمر حيث كان .

وكانت شدة عمر فى خلافته من أظهر ما امتاز به . وكان شديدا على ولاته ، يخشى أن يُرهقوا الناس فيذلوا نفوسهم ، ويعلموهم الجبن ، ويطبعوهم على الصغار . فكان يفتح صدره لأية شكاية فى أحد عماله ، فيعلن ذلك لعامة المسلمين فى خطبه . وقد بلغ من عدله أنه كان يحرص كل الحرص على دفع أعطيات المسلمين إليهم فى مواعيدها ، لا فرق بين عامة وخاصة .

وقد بلغ من زهد عمر أن أصاب أرضا بخيبر؛ وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أصبتُ أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه. فما تأمر به؟ وأجابه رسول الله: إن شئت حبست أصلها وتصدّقت بها، فتصدق بها فى الفقراء والقربى وفى الرقاب وفى سبيل الله والضيف. فكانت هذه أول صدقة تصدق بها فى الإسلام.

وكان عمر رضى الله عنه عالما بالقرآن وتأويله، مجتهدا فى دين الله، ذا رأى وفتيا. روى النووى عن ابن عمر أنه سئل: من كان يفتى الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أبو بكر وعمر، لم أعلم غيرهما.

وكان عمر شديد التعلق بالقرآن، ولم تمنعه شدة حرصه على الوقوف عند أوامره ونواهيه من الاجتهاد برأيه وإنشاء ماتدعو إليه الضرورة، وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أوّله.

تزوج عمر بأكثر من واحدة فى الجاهلية وفى الإسلام. أما فى الجاهلية، فقد تزوج زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة. ثم تزوج مليكة بنت جرول الخزاعى، فأنجبت له عبيد الله. ثم تزوج أم كلثوم بنت جرول، فأنجب منها محمد بن عمر، وعبيد الله الذى قتل يوم صفين. وقد فرّق الإسلام بين أم كلثوم وبين عمر.

أما فى الإسلام فقد تزوج عمر: أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ابن مخزوم، فولدت له فاطمة. وتزوج جميلة أخت عاصم بن ثابت، فولدت له عاصما، ثم طلقها؛ ثم تزوج لهية، وهى أم ولد من اليمن، فولدت له ابنه عبد الرحمن الأصغر. كما تزوج أم ولد أخرى تسمى فكيهة، فرزق منها بزينب. وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل فلم ينجب منها. فلما أراد أن يخطب أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق، أبت أن تتزوجه وقالت: إنه خشن العيش، شديد على النساء. فأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى عمرو بن العاص، فأخبرته، فقال: أكفيك، فأتى عمر أمير المؤمنين، فقال له: ياأمير المؤمنين! بلغنى خبر أعيذك بالله منه قال: وماهو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر، قال: نعم! أفرغبت

بى عنها أم رغبتَ بها عنى؟ قال : لا واحدة ،ولكنها حدثة، نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحقّ لك. قال عمر : فكيف بعائشة فقد كلمتها ، قال : أنا لك بها وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، فتزوجها عمر ابن الخطاب ،وأصدقها أربعين ألف درهم ، فولدت له زيدا ورقية .

كما خطب عمر : أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، فكرهته وقالت : يغلق بابه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ويخرج عابساً . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعيش عيشة زهد وتقشف وتعبد ، لايختص أهله بخيره ، إنما يختص به من يستحقه من عامة المسلمين .

وبرغم هذه الكفاية الممتازة والصفات الحميدة ، تعرض عمر لحنق الموالى من الفرس ، الذين أضمروا الكراهة والبغضاء للعرب، واعتقدوا أنهم استولوا على بلادهم وأزالوا سلطانهم ؛ فعقدوا العزم على أن ينتقموا منهم فى شخص عمر رضى الله عنه ؛ فقتله أحد الموالى ، واسمه فيروز ، ويلقب أبا لؤلؤة ، وكان غلام المغيرة ابن شعبة . قتله بخنجر له رأسان ، وضربه به ست ضربات إحداها تحت سرته وهى التى قتلته .

وتوفى عمر رضى الله عنــــه فى شهر ذى الحجــــة من سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، بعد أن ظل فى الخلافة عشر سنين وستة أشهر ، ومات وهو فى الثالثة والستين من عمره ، كما مات النبى وأبو بكر فى هذه السن أيضا ، ودفن إلى جوار الرسول الكريم وأبى بكر الصديق .

وفى عهد عمر رضى الله عنه توطدت دعائم الإسلام ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، ومهد بذلك السبيل لامتداد نفوذ العرب من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا .

٣ – عثمان بن عفان

« لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان »

نتحدث الى القارىء الكريم عن عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وصهر الرسول الكريم ، وأنيسه ، وموضع سره . ويكنى عثمان أبا عبد الله ، وأبا عمرو ، وذا النورين ، لزواجه من أم كلثوم ورقية ابنتى الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو أول من جمع الأمة على مصحف واحد ، وأول من فتح إقليم خراسان وبلاد المغرب . وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول ، وكانت توأمة لعبد الله أبى الرسول .

ولد عثمان فى السنة السادسة بعد عام الفيل ، وقيل فى السنة الخامسة بعد ميلاد الرسول . ونشأ كما ينشأ أشراف مكة وسراتها ، إذ جمع مالا كثيرا من اشتغاله بالتجارة كأشراف قريش . ثم بعث الله محمدا برسالة إلى هذا العالم ، يعلمه الحقيقة الخالدة ، وهى أنه ليس هناك إلا إله واحد ، نبيه محمد ، الذى يدبر ويراقب أعمال الإنسان ، ويعاقب ويجازى الطيبين والأشرار بعد الموت ، كل بمقدار عمله ، كما دعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام والتسليم لإرادة الله .

ثم اعتنق هذا الدين البسيط السامى أول الأمر ، الأفراد المتصلون بالرسول ، ثم تعداهم إلى بعض رجالات قريش ، كأبى بكر الصديق ، الذى أسلم على يديه خمسة من المسلمين الأولين ، منهم عثمان بن عفان ، وكان لا يجاوز العشرين من عمره . وكان عثمان من السابقين الصائمين المنفقين فى سبيل الله .

ولما أسلم عثمان ، أحبه الرسول لطيبته ودماثة أخلاقه ، فقربه إليه وأدناه منه ووثق به ، فزوجه ابنته رقية . فلما ماتت ، زوجه ابنته أم كلثوم وقال له : إن كان عندى غيرهما لزوجتكها . وثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : سألت ربى عز وجل ألا يدخل النار أحدا صاهر إلى أو صاهرت إليه . وبلغ من مكانة عثمان عند الرسول ، أنه كان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . وروى أن الرسول بشره بالجنة ، وعده من أهلها ، وشهد له بالشهادة وقال : لكل نبى رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان .

ولما أمعنت قريش فى إيذاء المسلمين ، اتجهوا إلى بلاد الحبشة ، لما عرف عن ملكها من العدل والتسامح . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق . وكان عثمان بن عفان من بين من خرج من مكة إلى الحبشة مهاجرا ، ومعه زوجه رقية بنت الرسول ؛ خرج غير مبال بما يصيب تجارته من بوار فى سبيل رفع لواء الإسلام وإعلاء كلمته . ولما علم المهاجرون إلى الحبشة برضاء قريش عن الرسول بعد أن رأت أن مكايدها قد أخفقت ، عاد عثمان إلى مكة .

ثم هاجر عثمان إلى المدينة بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم مع صفيه أبى بكر . فلما حل عثمان بأرض المدينة ، بذل نفسه وماله فداء للرسول ونصرة الدعوة الإسلامية . فقد احتاج المسلمون إلى الاستسقاء من بئر رومة ، وكانت ليهودى يبيع المسلمين ماءها ، فقال الرسول : من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه فى دلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها ، فأبى أن يبيعه كلها ، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . ولما رأى اليهودى ذلك قال له : أفسدت علىّ بئرى فاشتر النصف الآخر ، فاشتراه بثمانية آلاف درهم . ولما أراد الرسول الكريم أن يوسع مسجد المدينة قال : من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان رضى الله عنه موضع خمس سوار فزاده فى المسجد .

كذلك اشترك عثمان فى أغلب المشاهد التى شهدها الرسول ، إذ لم يكتف ببذل

ماله فى سبيل الله ، بل أراد أن يبذل دمه أيضا . ولم يكن أحب إليه من أن يشترك فى يوم بدر ، لولا أنه تخلف رغما منه ؛ ليسهر على تمريض زوجته رقية ، فأذن له الرسول بالتخلف وقال له : ارجع ! وضرب له بسهمه وأجره ؛ فهو معدود فى البدريين . وماتت رقية فى السنة الثانية للهجرة حين أتى الخبر لرسول الله بما فتح الله عليه يوم بدر .

وكان الرسول يستعين بعثمان فى كثير من أمور المسلمين ، فكان من كتاب الوحى ، وكان سفيره لدى قريش فى السنة السادسة للهجرة ، حين حالت دون دخول الرسول مكة لأداء العُمرة . فلما ذاع نبأ قتلهم عثمان ، بايع المسلمون الرسول بيعة الرضوان ، فى المكان المعروف بالحُديبية على مقربة من مكة . وبايع الرسول عن عثمان بإحدى يديه على الأخرى . فلما أتاه الخبر بأن عثمان لم يقتل قال : يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خير من يد عثمان لنفسه ، فهو أيضا معدود فى أهل الحديبية .

ولما تجهز المسلمون لغزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة ، بادر عثمان إلى بذل ماله فى سبيل إعلاء كلمة الدين ؛ فقد كانت له اليد الطولى فى جيش العُسْرة حيث أمد المسلمين بتسعمائة بعير وخمسين فرسا وألف دينار . فلا عجب إذا كان عثمان من الذين توفى الرسول وهو عنهم راض .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، اتخذ أبو بكر عثمان أمينا وكاتبا له ، يستشيره فى مهام الأمور . فلما وقع اختيار أبى بكر على عمر ، دعا عثمان بن عفان فأملاه كتاب عهده لعمر . ثم طعن عمر وأشرف على الموت ، وخشى الصحابة أن يموت دون استخلاف ، فألحوا عليه فى أن يعهد ، فقال : عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته ، وطلحة بن عُبَيد الله ، وعبد الله بن عمر ، على ألا يكون له من الأمر شىء .

فلما مات عمر اجتمع هؤلاء النفر فى بيت المسور بن مخرمة ، إلا طلحة فإنه كان غائبا . ولكن سرعان ماظهر فيهم التنافس ، فقال لهم أبو طلحة الأنصارى: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها .ولكن عبد الرحمن قال لهم: أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد ،فقال:فأنا أخلع منها نفسى ، فرضى القوم بذلك . وأخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء . فكان بعض يشير بعلى ، وبعض آخر يشير بعثمان ، فقال لعلى : لولم يكن لك هذا الأمر فمن ترضى ؟ فقال : عثمان . وسأل عثمان نفس السؤال،فقال : على .فانحصر استحقاق الخلافة فى على وعثمان ، وظهرت بوادر الانقسام بين أنصارهما ، إذ قام عمار بن ياسر فقال : إن اردتَ ألا يختلف الناس فبايع عليا ، فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار ، إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقام عبدالله بن أبى سرح وقال . إن أردتَ ألا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الرحمن : إنى قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ماقال لعلى، فقال : نعم ! فبايعه . وبذلك نال عثمان الخلافة .

ولما تمت البيعة لعثمان خطب الناس فقال : إنكم فى دار قلعة [1] ، وفى بقية أعمار . فبادروا آجالاكم بخير ماتقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أومسيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرينكم الحياة ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ، ثم جِدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفُظْهم ؟ ارموا بالدنيا حيثُ رمى الله بها ، واطلبوا الآخرةَ فإن الله قد ضرب لها مثلاً فقال : (واضربْ لهم مَثَلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزَلْناهُ من السماء فاختلط به

(١) بضم القاف وتسكين اللام أوضمها أوفتحها دار انقلاع ليست بمستوطن .

نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مُقتدرا . المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملا) (سورة الكهف ٨ : ٤٥) .

أرسل عثمان إلى الولاة والقواد وعمال الخراج وعامة المسلمين بالأنصار ، كتبا يحثهم فيها على الأخذ بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والعطف على أهل الذمة ، وجباية الخراج بالعدل والإنصاف ، ونصح عمال الخراج فى هذه الكلمات : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها ولاتكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء مَنْ بعدكم . الوفاء الوفاء ! لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

أخذت الجيوش الإسلامية فى عهد عثمان تتدفق على الأمصار التى لم يتم فتحها فى عهد عمر بن الخطاب ، حاملة راية الإسلام ، رافعة لواء كلمة التوحيد . فقد فتحت بلاد أرمينية ، وإفريقية ، وقبرص ، وواصل المسلمون العمل على توطيد نفوذهم فى بلاد الفرس التى انتقض بعضها . وفى عهده فتحت بلاد طبرستان .

وقد قيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابنى على ، وعبد الله ابن العباس ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام . كذلك اضطر ملك جُرجان الى طلب الصلح ، وفتحت بلاد خراسان من جديد ، وأرغم الأحنف بن قيس قائد عثمان أهل طخارستان على طلب الصلح ، وفتح الجوزجان عنوة ، ثم عبر نهر جيحون ، فصالحه أهالى بلاد ماوراء النهر . كما وجه عثمان عبدالله بن أبى سرح لغزو بلاد النوبة ، فبلغ دنقلة ، وقاتل أهلها قتالا شديدا . وفى عهده نشب القتال بين عبد الله بن سعد وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين بن هرقل فى البحر الأبيض على مقربة من الإسكندرية . وكان النصر للعرب فى هذه الموقعة التى عرفت بموقعة السوارى ، لكثرة سوارى السفن التى اشتركت فى المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ؛ منها مائتان للمسلمين . هكذا تمت فى عهد عثمان الغلبة للمسلمين فى البر والبحر .

وإلى عثمان يرجع الفضل فى تدوين مصحف يقرؤه المسلمون فى كافة الأمصار. وقد لاحظ حُذَيْفَة بن اليمان قائد المسلمين فى غزو أذربيجان اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن، فأشار على الخليفة عثمان بتدوين مصحف يقرؤه جميع المسلمين. فجمع عثمان الصحابة، وأخبرهم بما أشار به حذيفة، فوافقوه على هذا الرأى،

وأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن تبعث إليه بالصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر، ونسخت منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار الإسلامية. وقد قام بهذا العمل الجليل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش. وأرسل عثمان إلى أهالى الأمصار بأن يعتمدوا على المصحف الجديد، ليجمع الناس على وجه واحد فى قراءة القرآن خشية ما قد يقع بينهم من التحريف فيضيع إعجازه. وقد لاقت هذه الفكرة قبولا فى نفسه، فعول على نسخ المصحف تلافيا لما قد يجر إليه التهاون فى هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة. وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان، لتنسخ منها عدة نسخ، لإرسالها إلى الأمصار، وقام بهذا العمل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم عثمان بأن يكتبوا ما يختلفون فيه بلسان قريش.

وصفوة القول أن الله سبحانه شاء ألا تعبث بالقرآن الكريم يد التحريف والتبديل، فقال فى كتابه العزيز: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (سورة الحجر ١٥ : ١٩). وقد أحسن عثمان إلى المسلمين كل الإحسان؛ إذ لو لم يتدارك هذا الأمر بحكمته وبعد نظره لنال القرآن من التبديل والتحريف أكثر مما نال غيره من الكتب السماوية الأخرى.

ولا عجب فعثمان أفضل من قرأ القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم؛ روى عنه كثير من الصحابة منهم أبناؤه عمرو وأبان وسعيد، ومولاه حمران، وأنس بن مالك، وأبو أمامة بن سهل، والأحنف بن قيس، وسعيد بن المسيّب، وأبو وائل، وطارق ابن شهاب، وأبو عبد الرحمن السلمى، وعلقمة بن قيس، ومالك بن أوس، وغيرهم.

كان عثمان رضى الله عنه تقيا ورعا ، يحيى الليل بركعة يقرأ فيها كثيراً من القرآن ، ويحج بيت الله كل عام . كان وفيا للعهد ، أمينا على السر ، حتى وثق به الرسول .
روى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى بعض أصحابى ، فقلت : أبا بكر ، قال : لا ! فقلت ، عمر ، قال : لا ! فقلت : ابن عمك على ؟ قال: لا ! فقلت : عثمان ! قال : نعم ! فلما جاء قال لى بيده ، فتنحيت ، فجعل الرسول يساره ولون عثمان يتغير . فلما كان يوم الدار وحصر قيل له: ألا تقاتل؟ قال: لا ، إن رسول الله عهد إلى عهدا وأنا أصابر نفسى عليه .

وكان عثمان لا يقيم ولا يوقظ نائما من أهله إلا أن يجده يقظان ، فيدعوه فيناوله وضوءه . وكانت الخصلة التى ميزه بها النبى فيما روى المحدثون وأصحاب السير: صدق الحياء . وكان النبى يقول : إن الملائكة لتستحى من عثمان . وكان النبى يلقى أصحابه متفضلا غير متكلف . فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟ وكان الرسول يعلل احتشام عثمان حين يأذن له ، بأنه إن لم يفعل استحيى أن يثبت بين يديه ، وأن يبلغه حاجته ، ويأخذ حظه من التحدث إليه .

كان عثمان ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، كبير اللحية عظيمها ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، ضخم الكراديس، (١) بعيد ما بين المنكبين ؛ وكان يصفر لحيته .

كان عثمان موسرا ينعم بما ينعم به الأغنياء ، فيسكن فى داره بالمدينة ، وقد بناها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر (شجر السرو) . وقد امتلك الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها . وكان إذا حج ضرب له فسطاط بمنى . وكان يأكل ألين الطعام وأطيبه . وقد روى أنه كان يشد إسنانه بالذهب ، ويلبس أنخر الثياب . وكان يحب التوسعة على الناس ، ولم يقتصر على إعطائهم الكفاف من العيش كما كان يفعل عمر بن الخطاب ، إذ لم يرض أن يأخذ الناس

---

(١) الكردوسة : كل عظمين التقيا فى مفصل .

بأكثر مما فرضه الله سبحانه وتعالى عليهم، فلم يحجر على كبار الصحابة، ولم يمنعهم من الخروج إلى الولايات، فالتف الناس حوله، وافتتنوا به، وشهدوا ألوان النعم ومظاهر الحضارة فى البلاد التى خرجوا إليها. وهذا أخشى ما كان يخشاه عمر، إذ منعهم من الخروج خشية أن يتركوا حياة التقشف والزهد، فتفتنهم الأموال ويلهيهم عرض الدنيا. ولم يراقب عثمان ولاته كما كان يراقبهم عمر، بل أطلق لهم العنان، فجمعوا الثروات الضخمة، واتخذوا الخدم والحشم، وبدءوا يظهرون بمظهر البذخ والترف. فشيد الزبير بن العوام دورا فخمة فى المدينة والكوفة والفسطاط والإسكندرية، كما كان لسعد بن أبى وقاص قصر فخم فى وادى العقيق بالمدينة.

ولم يكن تساهل عثمان تهاونا فى حقوق الله وإغضاء عن حرماته: فقد كان يحث الناس على التمسك بالدين، ويضرب على أيدى المستهترين، وأرسل طائفة بالعصا يمنع الذين اعتادوا السكر، وهدد بالنفى عن المدينة كل من عكف على البدع.

ولكن عثمان كان سهلا لينا، لم يكن له حزم أبى بكر ولا شدة عمر، وهى صفات لابد منها لإدارة دولة مترامية الأطراف، وخاصة فى دور انتقال العرب من البساطة والزهد إلى الغنى والاستمتاع بخيرات البلاد المفتوحة. وقد أثار عثمان بسياسته هذه سخط فريق من الصحابة المتزمتين الحريصين على أن تظل التقاليد التى وضعها عمر على ما كانت عليه. فقد انتشر فى المدينة بعض أنواع اللهو مما اضطر عثمان إلى الضرب على أيدى أصحابها ونفيهم من المدينة، فتذمروا وتذمر ذووهم. وقد ذكر المؤرخون عدة أشياء استحدثها عثمان فى الدين لم يسبق بها فى عهد الرسول، ولا فى عهد أبى بكر وعمر. فهو أول من أقطع القطائع، وخفض صوته بالتكبير، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة، وقدم الخطبة فى العيد على الصلاة، وفوض الناس إخراج زكاتهم، وأخذ الزكاة على الخيل بعد أعفى الرسول الناس منها، كما حمى الحمى [1]

---

(١) الحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى. قال الشافعى رضي الله عنه فى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: لا حمى إلا لله ولرسوله. وكان الشريف من العرب فى الجاهلية اذا نزل بلدا فى عشيرته استعوى كلبا فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره. وقد نهى الرسول أن يحمى على الناس حمى كما كانوا فى الجاهلية يفعلون.

فيقال إنه حمى الحمى لإبل الصدقة ولإبله وخيله وإبل بنى أميـــة وخيلهـا . ولما لامه المسلمون على ذلك ، كانت حجته ، أنه إنما أراد ألا يكون هناك اختلاف بين الأفراد والدولة فيما يتصل بالمراعى .

ومما زاد فى غضب الصحابة خاصة والقرشيين عامة على عثمان ، أنه آثر فريقا من أهله بالخير ، واختصهم بالرعاية ؛ فأعاد عمه الحكم بن أبى العاص وأهله إلى المدينة ، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب إيذاء الحكم له . ولما مات الحكم ، ضرب عثمان على قبره فسطاطا ، وولى ابنه الحارث سوق المدينة ، فأساء السيرة ، وطمع فى جمع المال . كما آثر مروان بن الحكم ، فاتخذه وزيرا ومشيرا : فأنكر المسلمون ذلك ، وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه فيه ، ولكنه زعم لهم أنه كلم النبى فى رد الحكم ، فأطمعه فى ذلك ، ثم توفى قبل أن يرده .

كما نقم المسلمون على عثمان ، أنه عزل ولاة عمر عن الأمصار ، وولى ذوى قرباه ومن بينهم وبينه صلة . وقد غضب أهل الأمصار . كما غضب أهل المدينة . حين وجدوا إلى جانب المنفيين المتذمرين من عثمان طبقتين من الشعب ، هما : طبقة موسرة أوجدها عثمان ، وطبقة أخرى معدمة حقدت عليه ؛ وأثارت روح المعارضة لسياسته ، وهيأت السبيل لأبى ذر الغفارى ذلك الصحابى الجليل ، الذى تحدى سياسة عثمان ، كما هيأت السبيل لعبد الله بن سبأ ، الذى تحول من اليهودية إلى الاسلام ، وأخذ يتنقل فى البلاد الإسلامية ، وحرض أباذر على معاوية ، وكان يلى بلاد الشام من قبل عثمان ، فأعلن استياءه من سياسته ، وأخذ يحض الأغنياء على الرحمـــة بالفقراء ، حتى لقد نفاه عثمان الى الربذة لئلا يواصل حملاته العنيفة ، ولم يكف ابن سبأ عن إثارة الفتنة فى البصرة ، ثم فى الكوفة حيث لعن عثمان جهارا ، وخاض الناس فيما ارتكب من عظائم الأمور . ثم رحل ابن سبأ إلى الشام . وأخذ يؤلب الناس على حكومة عثمان . وكذلك غضب بنو غفار وأحلافها لما نال أباذر ، كما نقم بنو مخـــزوم على عثمان ماصنعه بعمار بن ياسر ، فسارع هؤلاء إلى إجابة دعاة الثورة .

وقد حقق ابن سبأ ما كان يرمى إليه من تأليب أهل الولايات الإسلامية على عثمان وولاته؛فانضم إليه كثيرون من أصحاب النفوذ والجاه، من أمثال محمد بن أبى حذيفة، ومحمد بن أبى بكر، وعمار بن ياسر . وقد قام هؤلاء بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ ، فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة . وخرج كل منهم فى ستمائة رجل ، وتوافوا خارج المدينة.

وقد شعر عثمان بهذا الخطر المحدق به،فأجاب وفد مصر إلى مطالبه ، فقفل راجعا. وبينا هم فى الطريق ، رأوا راكبا يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ، ففتشوه ، فإذا هو يحمل كتابا عن لسان عثمان يأمره فيه بقتلهم ؛ فعادوا إلى المدينة ، ودخلوا على عثمان ، فأنكر ما نسب إليه ؛ وثبت أن مروان بن الحكم هو الذى بعث بهذا الكتاب دون أن يعلم عثمان ؛ فحاصروا عثمان اثنين وعشرين يوما فقام فريق من الصحابة يدافعون عنه . ولما وجد الثوار أن موسم الحج قد انتهى،وأن المدد الذى طلبه عثمان من الولايات الإسلامية أوشك أن يباغتهم ، اقتحموا عليه داره بعد أن حاصروه تسعة وأربعين يوما .

وبعد أن دار القتال بين الثائرين وبين من تصدى للدفاع عنه،كمحمد بن أبى بكر، والحسن والحسين ابنى على ، وعبدالله بن الزبير،قال أحدهم لعثمان : على أى دين أنت يا نعثل ؟ فقال : على دين إبراهيم حنيفا مسلما وما أنا من المشركين . قال: كذبت. وقد قتله الخافقى بحديدة كانت معه ، وجاء غيره ليضربه بسيفه ، فأكبت عليه زوجه نائلة ، وتلقت السيف عنه بيدها ، فقطع إصبعها.وقد سقطت قطرات من دمه على المصحف على قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) . ثم نهب الثائرون بيت الخليفه الرشيد الثالث وهو عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كما نهبوا بيت المال ، وكان ذلك فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة يوم التروية(١) سنة خمس وثلاثين للهجرة ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، وكان قد ناهز الثمانين.ويظهر أن أهل المدينة قد تواكلوا فى الدفاع عن عثمان ، إذ يبعد أن

---

(١) يوم التروية : ثامن ذى الحجة لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد .

يعجزوا عن نصرته وصد تلك الفئة الباغية عنه ، وهم الذين مرنوا على الحروب، وبرهنوا فى مواقفهم مع رسول الله وأبى بكر وعمر عن شجاعة نادرة واستبسال لا يزال مضرب الأمثال . فلو أنهم نشطوا للذود عن عثمان ، لما تمكن الثوار مع قلة عددهم من قتله والاستبداد بالأمر والتمكن من المدينة ومن بها ، مع منافاة ذلك لما يقضى به الشرع من تحريم الخروج على الإمام إلا فى معصية ، إنما ينبغى أن يسدى إليه النصح ، ويحذر فى رفق ، حتى يسلك طريق الحق والصواب .

قالت عائشة لما بلغها قتل عثمان : قتلوه ، وإنه والله لأوصلهم للرحم وأتقاهم للرب ، ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة . وقد وصفه عبدالله بن عباس فقال : رحم الله أبا عمرو ! كان والله أكرم الجعدة(١) ، وأفضل البررة ، هجادا بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضا عند كل مكرمة ، سباقا عند كل منحة ، حييا ، أبيا ، وفيا ، فلا أعقب الله على من يلعنه ، لعنة اللاعنين إلى يوم الدين .

كان مقتل عثمان بعيد الأثر فى تاريخ المسلمين . فإن هذه الفتنة التى أدت إلى قتله قد أثارت هذه الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الإسلام شر ممزق . وليس من شك فى أن كثيرين من جلة الصحابة قد نفضوا أيديهم من تلك الفتنة ظنا منهم أن عثمان قد يخلع نفسه اذا اشتد عليه الحصار . على أن قتل عثمان لم يرض كثيرين من المسلمين ، بل لقد ساءهم ، فأنكروا موته ، وعولوا على الأخذ بثأره ، ورثاه الشعراء . من ذلك ما قاله حميد بن ثور الهلالى(٢)

إنَّ الخلافةَ لمـا أظْعِنَتْ ظَعَنَتْ (٣)
عن أهلِ يثْرِبَ إذْ غيرَ الهُدَى سلكوا
صارتْ إلى أهلها منهم ووارِثها(٤)
لما رأى اللهُ فى عثمانَ ما انتهكوا

---

(١) الجعد : الكريم .
(٢) ديوان بني ثور الهلالى طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥١ ص ١١٤ و ١١٥
(٣) أظعنت بالبناء للمفعول : أظعنها الله أي صيرها الى غيرهم .
(٤) وهم ورثتها جزاء وفاقا على مافعلوا بعثمان .

السافكى دمه ظلماً ومعصيةً
أىَّ دمٍ – لا هُدُوا – من غيهم سفكوا
والهاتكى سِترَ ذى حقٍّ ومَحْرَمَةٍ (١)
فأىَّ سِترٍ على أشياعهم هتكوا
والفاتحى بابَ قتلٍ لايزالُ به
قتلٌ بقتل إلى دهرٍ ، ومُعترَكُ (٢)
والخيلُ عابسةٌ نضْحُ الدماءِ بها
تنعى ابْنَ أروَى (٣) على أبطالها الشككُ (٤)
مِنْ كلِّ أبيضَ هندىٍّ (٥) وسابغةٍ (٦)
تغشى البنانَ لها من نسجها حُبُكُ (٧)
قد نالَ جُلَّهمُ حصْرٌ بمحْصَرَةٍ (٨)
ونالَ فُتّاكهمْ فتْكٌ بما فتكوا

وقال حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان :

أوفَتْ بنو عمرو بن عوفٍ نذْرَها وتلوَّثَتْ غدْرًا بنُو النجارِ (٩)

---

(١) المحرمة ، بفتح الواو وضمها ، ما لا يحل انتهاكه . وهتكوا : قطعوا وخرقوا .
(٢) المعترك ومثله المعرك : موضع العراك والقتال .
(٣) أروى بنت كريز : أم عثمان .
(٤) الشكك : السلاح .
(٥) أبيض هندى : يريد السيوف .
(٦) سابغة : يريد دورعا سابقة الى البنان .
(٧) الحبك : الطرائق .
(٨) الحصر : الحبس ، والمحصرة (بالفتح والضم) : مكانه . يقول : حبس أكثر وفتك بالفتاك منهم .
(٩) قوله اوفت بنو عمرو نذرها ، فذلك أنه لما حصر عثمان رضى الله عنه فى داره جاء بنو عمرو بن عوف إلى الزبير ، فقالوا : يا أبا عبد الله نحن نأتيك ثم نصير إلى ما تأمرنا به ، =

وتخاذلت يوم الحفيظة إنهم ... ليسوا هنا لكم من الأخيار (١)
ونسوا وصاة محمد فى صهره ... وتبدلوا بالعز دار بوار (٢)
أتركتموه مفردا بمضيعة ... تنتابه الغوغاء فى الأمصار ؟ (٣)
لهفان يدعو غائبا أنصاره ... ياويحكم يامعشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بعهودكم ... وفديتم بالسمع والأبصار
جيرانه الأدنون حول بيوته ... غدروا ورب البيت ذى الأستار (٤)
إن لم تروا مددا له وكتيبة ... تهدى أوائل جحفل جرار (٥)

= فبعث الزبير أبا حبيبة الى عثمان ، وقال له : أقرئه السلام ، وقل له : يقول لك أخوك ان بنى عمرو ابن عوف جاءونى ووعدونى أن يأتوني ، ثم يصيروا الى ما أمرتهم به ، فان شئت أن آتيك ، فأكون رجلا من أهل الدار يصيبنى ما يصيب أحدهم فعلت ، وان شئت انتظرت ميعاد بنى عمرو ، فأدفع بهم عنك فعلت . قال أبو حبيبة : فأبلغت عثمان رسالة الزبير ، فقال : الله أكبر . الحمد لله الذى عصم أخى . قل له : إنك ان تأت الدار تكن رجلا من المهاجرين ؛ حرمتك حرمة رجل ، وعناؤك عناء رجل . ولكن انتظر ميعاد بنى عمرو بن عوف ، فعسى الله أن يدفع بك . فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بنى عمرو بن عوف ، فقتلوه .

وقوله : وتلوثت : أي تلطخت ، وقد كان الثائرون تسوروا دار عثمان من دار أحد بني النجار ، ولذلك تلوثوا بالغدر .

(١) قوله يوم الحفيظة : فالحفيظة . الغضب لحرمة تنتهك من حرماتك ، أو جار ذى قرابة يظلم من ذويك ، أو عهد ينكث . وقال زهير :

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها ... وان غضبوا جاء الحفيظة والجد

راجع : عبد الرحمن البرقوقى : شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى (القاهرة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م) ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) قوله : ونسوا وصاة محمد فى صهره ، فقد روى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ياعثمان انه لعل الله يقمصك قميصا ، فان أرادوك على خلعه ، فلا تخلعه لهم . والمراد الخلافة التى طالبه المحاصرون بالتنازل عنها ، فلم يقبل .

(٣) قوله : بمضيعة أى بدار ضياع ، وأصل الغوغاء الجراد حين يخف للطيران ؛ ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر .

(٤) جيرانه الذين تسور الثائرون الى دار عثمان من دار أحدهم بنو النجار .

(٥) ان لم تروا له جيشا جرارا يأخذ بثأره ويصيح بصرار (هو جبل قريب المدينة عدمت أهلى

فعَدِمْتُ ماولَدَا بنُ عَمْرو مُنْذِرٍ حَتّىٰ يُنيخَ جموعُهُم بصِرارِ (١)
واللهِ لايُوفونَ بعْدَ إمامهم أبدا ولو أمنو بِحلْسِ حِمار (٢)

. . . .

تزوج عثمان بن عفان رضى الله عنه رقية وأم كلثوم ابنتى الرسول الكريم، فولدت له رقية: عبدالله. ثم تزوج فاختة بنت غزوان بن جابر بن نسيب بن وهيب من قيس عيلان، فولدت له: عبد الله الأصغر. ثم تزوج أم عمرو بنت جندب ابن عمرو بن الحارث من دوس من الأزد، فأنجب منها عمراً، وخالدا، وأبان، وعمر، ومريم.

كما تزوج عثمان فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة، فأنجبت له: الوليد، وسعيد، وأم سعيد. ثم تزوج أم البنين بنت عينية بن حصن، فولدت له عبد الملك، وعتبة. وقيل إنه طلقها والثوار يحاصرون داره. وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة، فولدت له عائشة، وأم أبان، وأم عمرو. ثم تزوج نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص، فولدت له عنبسة، ومريم، وأم البنين التى تزوجت عبد الله بن يزيد بن أبى سفيان. ولما قتل عثمان كان فى عصمته ثلاث نسوة، هن رملة بنت شيبة، وفاختة بنت غزوان، ونائلة التى اتقت السيف بيدها فقطع إصبعها.

---

(١) وعمرو ومنذر جدا حسان.

(٢) يقول: لو ائتمنوا بعد ذلك على حلس حمار ما وفوا به. والحلس كساء رقيق يكون تحت البردعة. أو كل شىء ولى ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج والبردعة وهى بمنزلة المرشحة تكون تحت اللبد.

٤ — على بن أبى طالب

« أنت أخى فى الدنيا والآخرة »

على بن أبى طالب ، هو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، وأول عربى وأعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لواؤه معه فى كل زحف . وهو الذى غسله وأدخله قبره ، غير مبال بما كان يجرى فى سقيفة بنى ساعدة حول اختيار خليفة للرسول . وهو قاضى الأئمة ، وفارس الإسلام . جاهد فى الله حق جهاده ، ونهض بأعباء العلم والعمل ، وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة فقال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، ثم قال : لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق .

وعلى كرم الله وجهه هو ابن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف ابن قصى ؛ يكنى أبا الحسن . وأمه فاطمه بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف ، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى ، وقد توفيت على الإسلام قبل هجرة الرسول إلى المدينة المنورة .

ولد على قبل البعثة بعشر سنين ، وكان أبوه أبو طالب كثير العيال . فلما أصاب مكة جدب ، سأل الرسول عمه العباس أن يخفف عن أبى طالب مشقة العيش بأن يعول بعض ولده ، وذهب الرسول والعباس إلى أبى طالب ، وعرضا عليه المساعدة فقبل ، فضم العباس إليه جعفرا وضم الرسول عليا . وقد نشأ على فى بيت الرسول الكريم ، وعاش فى كنفه ، ونعم بقربه ، وظفر بعطفه ، وكان أقرب الناس إلى

قلبه وأحبهم إلى نفسه .

ولما بعث الله سبحانه وتعالى محمدا إلى الناس مبشرا وهاديا ونذيرا ، كان على ابن أبى طالب أول من اقتبس من ذلك النور الإلهىّ ، فانشرح صدره بهذه الدعوة الكريمة ، ولما يناهز الثالثة عشرة من عمره . وقد قيل إن الرسول لما دعا العرب إلى الإسلام ، وأحجم القوم عن مناصرته ، صاح علىّ فى حماسة الصبى قائلا : « أنا يانبىّ الله أكون وزيرك عليه » .

هكذا كان علىّ أول من أسلم بعد خديجة رضوان الله عليها. وقد روى عنه أنه قال : لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين . فكان بذلك أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى عن انس بن مالك أنه قال : استُنْبِىءَ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ، وصلى علىّ يوم الثلاثاء .

وروى يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال : حدثنا يحيى بن الأشعث عن إسماعيل ابن إياس بن عفيف الكندى عن أبيه عن جده قال : كنت امرأ تاجرا فقدمت الحج؟ فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة . وكان امرأ تاجرا ، فوالله إنى لعنده بمنى ، إذ خرج رجل من خباء(١) قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلى . ثم خرجت امرأة من ذلك المخبأ الذى خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلى . ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك المخبأ فقام معهما يصلى ، فقلت للعباس : مَنْ هذا ياعباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن أخى ، قلت : من هذه المرأة ، قال : هذه امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : من هذا الفتى ، قال : على بن أبى طالب ابن عمه ، قلت : ماهذا الذى يصنع ؟ قال : يصلى ، وهو يزعم أنه نبى ، ولم يتبعه فيما ادعى إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام ، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر .

نشأ على فى هذا البيت الذى ترفرف عليه أجنحة العناية الإلهية ، ويتضوع بأريج الدعوة المباركة ، ويشع منه نور الهـــداية المحمدية ، فنشأ على الفضيلة

(١) الخباء اسم لما خبىء.

والتقى والورع وخشية الله تعالى ، وظل يشارك الرسول أفراحه وأتراحه ، ويقاسمه حلو العيش ومره : يفرح إذا رأى الدعوة الإسلامية مرفوعة اللواء ، ويبتئس إذا أصاب الرسول ضر قريش وإيذاؤها فى هذه الدعوة الكريمة . . .

ولما وصل نبأ تحالف الرسول مع أهل يثرب ، وتآمر القرشيون على اغتياله ، خرج هو وأبو بكر مهاجرين بعد أن أمر الرسول على بن أبى طالب أن يبيت فى مكانه تلك الليلة . فقبل على عن طيب خاطر أن يبذل روحه فداء للرسول الكريم ، ضاربا أروع الأمثال فى التضحية والإيثار .

ثم أدرك الرسول يثرب سالما على بركة الله ، وتتابع المسلمون إلى المدينة مهاجرين ، فهاجر علىّ مع من هاجر من المسلمين . ثم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار وقال لعلى : أنت أخى فى الدنيا والآخرة ، وآخى بينه وبين نفسه .

وبلغ من حب الرسول لعلى أن زوجه من ابنته فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة ، بعد أن خطبها أبو بكر وعمر منه ، فاعتذر فى رفق . وقد أشار بعض الصحابة على علىّ أن يخطب فاطمة من أبيها ، فقال لها الرسول : إن عليا يذكرك ، وقال له : أهلا وسهلا ! وكانت هذه علامة الرضا .

وكان صداق فاطمة خمسمائة درهم ، أى نحو اثنتى عشرة أوقية ونصف . وكان فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ، ووسادة من أدم حشوها ليف وتور (١) من أدم ، وقربة ومنخل ، ومنشفة وقدح . وأهدت بعض النسوة إليها بردين من برود الأول عليها دملوجات من فضة مصفرات بزعفران . وقد تزوج منها علىّ فى شهر رجب بعد مقدم النبى المدينة بخمسة أشهر ، وبنى بها بعد أن عاد من غزوة بدر ، وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها .

كان علىّ للرسول الساعد الأيمن فى المدينة المنورة ، كما كان الولد البار فى مكة . فلما التقى المسلمون بالمشركين يوم بدر ، اشترك على فى القتال وهو فى العشرين من عمره ، فى ريعان الفتوة وعنفوان القوة ، ودفع الرسول إليه الراية ، فأبلى فى القتال

---

(١) إناء يشرب فيه.

البلاء الحسن . ثم أقبل المحاربون بعد انتهاء القتال ، فافتقدوا الرسول فلم يجدوه ، فنادت الرفاق بعضها بعضا : فيكم رسول الله ؟ فوقفوا حتى جاء الرسول ومعه على كرم الله وجهه ، فقالوا : يارسول الله ! فقدناك فقال : إن أبا الحسن وجد مغصا فى بطنه فتخلفت عليه . فانظر مبلغ حب الرسول عليا وإيثاره إياه وتضحيته بالتخلف عن الركب وهو يعلم أن الخطر محدق به إذا دهمهم المشركون .

اشترك علىّ فى المشاهد كلها : فى أحد ، وفى الخندق ، وفى غيرهما ، فأبلى بلاء عظيما : اللواء فى يده يخوض المنايا غير هياب ولا وجل . ولما كان يوم خيبر وقد أمعن المسلمون فى قتال اليهود، واستمر القتال ، ولم يكن بدمن أن يبذل المسلمون جهودا شاقة لاقتحام هذه القلعة وكسر شوكة اليهود ؛ قال الرسول : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فتطاول المسلمون لها فقال : ادعوا لى عليا ! فأتاه وبه رمد فبصق فى عينيه ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه ، فنزلت هذه الآية : (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال : اللهم هؤلاء أهلى ، وشد علىّ على المشركين . وكان يضرب على الهامة ، فيسمع أهل العسكر صوت الضرب ، فتراجع العدو وفتح الله على المسلمين . ومما روى عن شجاعة على يوم خيبر ، أنه اجتذب باب الحصن فألقاه على الأرض ، ثم اجتمع عليه سبعون رجلا حتى أعادوه .

وكان الرسول يختار عليا لصعاب الأمور التى تتطلب الشجاعة الفائقة والحكمة العالية . فقد بعث الرسول خالد بن الوليد إلى اليمن يدعو أهلها إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر لايجيبونه إلى شىء ، فبعث عليا وأمره أن يعيد خالدا . فلما انتهى على إلى اليمن ، وبلغ القوم الخبر ، جمعوا له ، فصلى الفجر ، ثم تقدم بين أيدى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ عليهم كتاب الرسول ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، وكتب علىّ بذلك إلى الرسول . فلما قرأ كتابه ، خرّ ساجدا ، ثم جلس الرسول فقال : السلام على همدان ، وتتابع أهل اليمن على الإسلام . ثم عهد إليه الرسول أن يقضى بينهم فقال : إنى لا أدرى ما القضاء . فضرب

الرسول بيده صدره وقال : اللهم اهد قلبه ، وسدد لسانه !

خرج الرسول بعد فتح مكة لقتال مالك بن عوف ومن معه من هوازن وثقيف، فشدوا على المسلمين ، فاختلت صفوفهم، ثم ولوا مدبرين . وأقام الرسول ينادى: أين أيها الناس ! هلموا إلىّ ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . ولم يبق حوله إلا نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيت الرسول .

عند ذلك أمر الرسول عمه العباس بن عبد المطلب — وكان جهورى الصوت بدينا — أن يصيح فى الناس : يامعشر الأنصار ! ياأصحاب السمرة ! فأجابوه : لبيك لبيك ! واجتمع حوله مائة من الأنصار ، ونادى العباس : ياللأنصار ! ياللخزرج ! فتكاثر الناس حوله . ولما أصبح الصباح ، خرج العدو ، وحمى القتال بينه وبين المسلمين ، وأهوى على بن أبى طالب إلى صاحب راية المسلمين ، فضرب عرقوبى جمله ، ووثب أحد الأنصار على الرجل فقتله . وتمت هزيمة المشركين وتفرقت فلولهم ، وخرج الرسول ظافرا منتصرا ، بفضل الله وشجاعة المسلمين ، وما أبداه على بن أبى طالب من إقدام وبسالة .

وفى غزوة تبوك استخلف الرسول عليا على المدينة، وعلى من يعولهم من بعده وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى .

وإذا أردنا أن نبين كيف كان الرسول الكريم يحب عليا ، ويؤثره حتى على نفسه ، ويدنيه منه ، لأطلنا فى القول . ويكفى أن نقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول :إن عليا وليى فى الدنيا والآخرة ، وأخذ رداءه ، فوضعه على علىّ وفاطمة وقال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .

ثم انتقل الرسول إلى جوار ربه ، واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة ، وجاء المهاجرون ، واحتدم الخلاف بين الفريقين . ولكن عليا كان مشغولا بذلك الخطب الجسيم الذى نزل بساحة المسلمين ، وهو وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . فآوى علىّ إلى بيت فاطمة وقضى يومه فى تجهيزه ودفنه ، غير مبال بما كانت تموج به سقيفة بنى ساعدة: من تبادل الرأى، واحتدام الجدل فيمن

بخلف الرسول . ثم اختير أبو بكر خليفة للمسلمين ، وتخلف على عن بيعته ، لا كرها لأبى بكر ، أو حطًّا من قدره ، أو خروجا عن جماعة المسلمين، بل حزنا على الرسول صلى الله عليه وسلم، ووفاء لذكراه ، ولوعته، كما يبدو فى العبارة المؤثرة التى رثى بها ابن عمه وصهره الذى رباه فى بيته وحاطه بعطفه وزوجه من ابنته ، قال علىّ : « بأبى أنتَ وأمى يارسول الله ؛ لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النُّبُوَّة والأنباء، وأخبار السماء . خَصَصْتَ (١) حتى صرتَ مُسَلِّياً عمَّن سِواكَ ، وعَمَمْتَ حتى صار الناسُ فيك سواء . ولولا أنك أمرتَ بالصَّبرِ ، ونَهَيْتَ عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشئون (٢) ، ولكان الداءُ مُماطِلاً ، والكمدُ محالفاً ، وقلاَّ لكَ (٣) ، ولكنه مالا يُمْلَكُ رَدُّه (٤) ولا يُستطاع دفعه : بأبى أنتَ وأمى ، اذكرنا عند ربِّك ، واجعلنا من بالِك . »

ولما ماتت فاطمة ، بايع علىّ أبا بكر راضيا غير مكره . فقد روى أنه قال لأبى عبيدة : « ماقعدت عن صاحبكم كارها له ، ولا أتيته فرقا ، ولا أقول ماأقول تَعلة . وإنى لأعرف منتهى طَرْفى ، ومحطَّ قدمى ، ومنزع قوسى ، وموقع سهمى ؛ ولكن قد أزَمْتُ (٥) على فأسى ثقةً بربى فى الدنيا والآخرة . » ولكن أبابكر لم يجد عليه بسبب تقاعسه عن بيعته أول الأمر ، بل أحبه وقربه إليه . وكيف لا

---

(١) خص النبى صلى الله عليه وسلم أقاربه وأهل بيته حتى كان فيه الغنى والسلوة لهم عن جميع من سواه ، وهو برسالته عام للخلق : فالناس فى النسبة الى دينه سواء.

(٢) لأنفدنا : لأفنينا على فراقك ماء عيوننا الجارى من شئونه ، وهى منابع الدمع من الرأس.

(٣) مماطلا بالشفاء. والكمد بالحزن : ومحالفته : ملازمته — وقلا فعل ماضى متصل بألف التثنية، أى مماطلة الداء ، ومحالفة الكمد ، قليلتان لك .

(٤) ما خبر لكن أى : لكنه الموت لايملك رده الخ . ومادام وقعه لا يفيد الأسف عليه. لأن الأسف وضع فى النفوس لمداركة الغائب والحذر من الآتى

انظر محمد محيى الدين عبد الحميد : شرح ديوان البلاغة للشريف أبى الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦.

(٥) أزم الفرس على فأس اللجام : أى عض وأمسك ، يريد أنه كتم ما فى نفسه من الشكوى.

يحب من أحبه الرسول، ويقرب من قربه الرسـول ؟ وكان علیّ – كما نعلم – من أعلام الصحابة وأولى الرأى فيهم ، حتى كان أبو بكر يستشيره فی مهام الأمور .

ولما بويع عمر بن الخطاب لم يبخس عليا قدره ، إنمـا أعلى ذكـره ، فأجلسه للقضاء بين الناس ، وكان يقول علیّ أقضانا . وكان يستعين به فی حل المعضل من الأمور ، روى أنه كان يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن . من ذلك أن عمر رضی الله عنه أمر برجم امرأة وضعت لستة أشهر ، فقال له علی : إن الله تعالى يقول :(وَحَمْلُهُ وفِصاله ثلاثون شهرا) ، وقال له: إن الله رفع القلم عن المجنون ، فقال عمر : لولا علیّ لهلك عمر .

وكان عمر إذا أعياه حل مسألة من المسائل أحالها على علیّ، وكان يقول للسائل: ما أجد لك إلا ماقال علیّ . وكان يقال إذا أشكل الأمر :« قضية ولا أبا حسن لها.»

ولما طعن عمر بن الخطاب خشى أصحاب الرسول أن يقضى نحبه دون استخلاف: فلما ألحوا عليه ، اختار ستة من الصحابة فيهم علی بن أبی طالب ، وعبد الله بن عمر ، وأوصى بأن تـكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه الاختيار . ولما اجتمع هؤلاء الصحابة ظهر التنافس بين عثمان وعلیّ ، أو بالأحـرى بين بنی هاشم وبنی أمية ، لأن الخلافة انحصرت فيهما تقريبا ؛ إذ أن الناس كانوا لا يعدلون بهما أحدا غيرهما . وكاد الأمر يتم لعلی ، لولا أنه لم يتمش مع عبدالرحمن بن عوف بأن يسير على ماسنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمل بمبلغ علمه ،فصرفت عنه الخلافة ،برغم أنه المقدم فی بنی هاشم ؛ لسبقه فی الدين ، وإخلاصه ، وتضحيتـه فی سبيل نصرة الإسلام ، ثم لأنه زوج فاطمة بنت الرسول .

ومما يدل على أن عليا كان يرغب فی الخلافة ، أن أهل الشورى لما اجتمعوا قال لهم : أنشدكم الله ! هل فيكم أحد آخى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بينـه وبينه ، إذ آخى بين المسلمين غيرى ؟ قالوا : اللهم لا ! فقال : أنا عبد الله، وأخو رسول الله ، لا يقولهـا أحد غيرى إلا كذاب .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بايعه على ولازمه. ولكن محاباة عثمان بعض ذوى قرباه، غيرت رأى على فيه، فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما. فلما قتل عثمان ظن بعض الناس أن لعلى يدا فى ذلك، ورموه بالهوادة فى نصرته. والواقع أنه كان يجل عثمان، لأنه كان من أقرب المقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فلما حاصر الثوار داره بعث ابنه الحسن للدفاع عنه، وكان عثمان يسأله أن يكفّ، فكان يأبى إلا أن يبذل نفسه فى نصرته. ولما بلغه نبأ قتله قال: « من تبرأ من دين عثمان، فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنت على قتله، ولا أمرت ولا رضيت. »

بويع على فى المدينة بعد موت عثمان، وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار، ولم يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل، على رأسهم طلحة والزبير. وقد تردد بعض الصحابة فى بيعته: كسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر، كما تردد بعض الأنصار: كحسان بن ثابت، وَمَسلَمَة بن مُخَلَّد، وأبى سعيد الخدرى، وكانوا يميلون إلى عثمان، وهرب بعض إلى الشام كالمغيرة بن شعبة، وتمت بيعته بالأغلبية على الرغم من تخلُّف بعض الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وتخلف بنى أمية، ولحاق بعضهم بالشام، وبعض آخر بمكة. على أن انتخاب على كرم الله وجهه، وإن لم تكن بيعته عامة لتفرق أكثر الصحابة فى الأمصار؛ فان مذهب مالك برمته مبنى على رأى أهل المدينة الذين بايعوه.

وبعد أن آلت الخلافة إلى على، أراد أن يحكم وفق التقاليد التى سادت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وفى عهد أبى بكر وعمر، مع أن الأحوال كانت تستلزم شيئا من الدهاء والسياسة، فبادر إلى عزل ولاة عثمان، برغم نصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الأحوال وتستقر الأمور، ونصح على الذين طالبوا بدم عثمان أن يتريثوا، حتى إذا هدأت الأحوال، أجرى الحق بجراه، وأنزل الجزاء بقتلة عثمان. إلا أن نصائحه لم تجد أذنا مصغية، فقد عول معاوية على الأخذ بدم عثمان، وساء عائشة قتل الخليفة، وانضم إليها طلحة والزبير. وقد قيل إن طلحة كان يطمع

فى ولاية العراق ، وأن الزبير كان يطمع فى ولاية اليمن . فلما ولى على الولاة ، ولم يكن لهما حظ فى الولاية ، نقما عليه ، وندما على بيعتهما له ، واستأذنا عليا فى الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه فطن إلى ما اعتزما عليه ، فقال لهما : والله ما العمرة تريدان.

وساء عائشة رضى الله عنها قتل عثمان - كما تقدم - وانضم اليها طلحة والزبير اللذان عملا على استمالة أهل البصرة . وسرعان ما خرج ثلاثتهم على رأس جيش من الساخطين إلى البصرة .

وفى منتصف شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٦ هـ ، التقى الجيشان فى مكان يقال له الخريبة على مقربة من البصرة ، حيث نشب القتال ، وعائشة راكبة فى هودجها على جمل يسمى عسكرا ، واقتتل الناس ، حتى ضرب رجل عرقوب الجمل ، وهزم أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، وأسرت عائشة وأسر معها مروان ، وقتل طلحة ، وانصرف الزبير إلى المدينة فقتل فى الطريق .

وعلى الرغم مما كان بين عائشه وبين على ، قابل الخليفة إساءتها إليه بالعفو ، وأحسن إليها وزارها فى البيت الذى نزلت فيه ، وجهزها بكل ما تحتاج إليه فى سفرها ، وأوفد أولاده ليشيعوها ، بل ودعها بنفسه ؛ ولذلك قالت عائشة يوم رحيلها لمشيعيها : « إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندى - على معتبتى - من الأخيار » ، تشير بذلك إلى حادثة الإفك التى وقعت فى غزوة بنى المصطلق ، ونزل القرآن بتبرئة عائشة مما رميت به ، وجعل حصانتها قرآنا يُتلى .

خرج طلحة والزبير وعائشة على علىّ ، على الرغم من وعده إياهم بالنظر فى أمر قتلة عثمان بعد أن تهدأ الفتنة وتستقر الأمور . ولم يكن لهؤلاء أن يخرجوا على إمام المسلمين الذى يقوم بحكم منصبه الخطير بإقامة الحدود . ولكن قبول علىّ فى جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان ، فى الوقت الذى يطالب فيه المسلمون بدمه ، - يثير الشكوك فى عدم اكتراثه بما حدث للخليفة المقتول ، بل فى اتهامه بالاشتراك فى دمه المسفوك .

لم ينتـــه النزاع بانتصار على فى موقعة الجمـــل ، بل إنه استمر بين حزب عثمان وعلى رأسه معاوية بن أبى سفيان أعظم قرابة عثمان شأنا والمطالب بدمه ، وحزب على ، رابع الخلفاء الراشدين وزعيم بنى هاشم ، الذين كان العداء بينهم وبين بنى أمية قديما باقى الأثر ، لم يزده الإسلام إلا شدة وعنفا. ولكن الخلاف كان على حد قول أم الخير بنت الجريش البارقية التى خطبت المسلمين وصورت هذا الخلاف فى الخطبة التى ألقتها فى يوم صفين يرجع إلى أسباب قديمة . ومما قالته أم الخير : « هلموا ـ رحمكم الله ـ ! إلى الإمام العادل !والوصى الوفى، والصديق الأكبر. إنها إحَنٌ بدْرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحُدية ، وثب بها معاوية ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس . . . فيالها وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا . »

وقد أصر معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام، بعد أن أوغر صدورهم عليه. وفى شهر شوال من سنة ٣٦ هـ ، توجه علىّ من الكوفة إلى صفين فى تسعين ألفا ، وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفا، وتبودلت المراسلات بين معاوية وعلى الذى دعا خصمه إلى توحيد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين . فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة ٣٧ هـ. ثم اشتعلت الحرب بين الفريقين أياما متوالية .

من ذلك كتاب معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب ، يرميه فيه بأنه أضمر الحسد لمن سبقه من الخلفاء الراشدين ، وبايعهم وهو كاره ، وأنه كان أشد حسدا لعثمان بن عفان ؛ فقبح محاسنه ، وألّب الناس عليه وآوى قتلته ، وطلب إليه أن يسلم إليه قتلة عثمان فيقتلهم به ، فإذا أبى على ، طاردهم معاوية « فى الجبال والرمال ، والبر ، والبحر » حتى يقتلهم(١) . وقد رد على بن أبى طالب على معاوية ابن أبى سفيان بهذا الكتاب الذى يعد بحق من آيات البلاغة فقال :

«أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، تذكر فيه اصطفاء الله تعالى محمدا صلى الله عليه

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

وسلم لدينه، وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه . . . وزعمت أن أفضلَ الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان ؛ فذكرتَ أمراً إن تم، اعتزلك كله ، وإن نقص لم يلحقك ثَلْمُه . وما أنت والفاضلَ والمفضول ، والسائل والمسئول ؟ وما الطلقاء وأبناء الطلقاء ، والتمييزَ بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم؟ هيهات ! لقد « حنَّ قدحٌ ليس منها » (١) ، وطفق يحكُمُ فيها من عليه الحكم لها . . . ألا ترى — غيرَ مُخبرٍ لك ، ولكن بنعمة الله أحدّث — أن قوما استُشْهِدوا فى سبيل الله من المهاجرين — ولكل فضل — حتى استُشْهِد شهيدُنا (وهو حمزة) قيل : سيّد الشهداء ، وخصّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه . ألا ترى أن قوما قُطّعَتْ أيديهم فى سبيل الله — ولكلٍّ فضل — حتى إذا فُعِل بأحدنا ما فُعل بواحد قيل الطيّار فى الجنة ، وذو الجناحين (وهو جعفر).ولولا مانهى الله عنه من تزكية المرء نفسه ، لذكر ذاكرٌ فضائلَ جمة تعرفها قلوبُ المؤمنين . . . وأنّى يكون ذلك كذلك ؟ ومنّا النبى ومنكم المكذّب (٢) ، ومنا أسد الله (٣) ، ومنكم أسد الأحلاف (٤) ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة (٥) ، ومنكم صِبْية النار (٦) ، ومنا خير نساء العالمين (٧) ومنكم حمّالة الحطب (٨) ؛ فإسلامنا قد سُمع ،

---

(١) هذا مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها ، أو يتمدح بما ليس فيه ، والأصل فى ذلك أن الواحد من قداح الميسر إذا كان من غير جوهر أخواته وأجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها .

(٢) المكذب : أبو جهل .

(٣) أسد الله : حمزة بن عبد المطلب .

(٤) أسد الأحلاف : أبو سفيان بن حرب ، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق .

(٥) سيدا شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب .

(٦) صبية النار : هم أولاد مروان بن الحكم .

(٧) خير نساء العالمين : فاطمة الزهراء بنت الرسول رضى الله عنها.

(٨) حمالة الحطب : أم جميل بنت حرب .

وجاهليتنا لا تُدفَع ، كتاب الله يجمع لنا ماشذّ عنا ، وهو قوله سبحانه : (وأولو الأرحامِ بعضُهم أولى ببعض فى كتاب الله) وقوله تعالى : (إنّ أولى الناس بإبراهيمَ للّذين اتّبعوهُ وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين). فنحن مرةً أولى بالقرابة وتارةً أولى بالطاعة . . . وزعمتَ أنى لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغَيْتُ ، فإنْ يكن ذلك كذلك ، فليست الجنايةُ عليك ، فتكون المعذرةُ إليك . « وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عليك عارُها » (١)

« ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فلك أن تجاب عن هذه لرحمه منك ، فأيُّنا كان أعدَى له ، وأهدى إلى مَقاتله ؟ أمَنْ بذل نُصرته فاستقعده واستكفه ، أمَّن استنصره فتراخى عنه . وبثَّ المَنون إليه ، حتى أتى قدرُه عليه ؟ . . . وما كنتُ أعتذر من أنّى كنت أنقِمُ عليه أحداثا ، فإن كان الذنبُ إليه إرشادى وهدايتى له « فربَّ مَلُوم لاذنبَ له » .

« وقد يستفيد الظِنّة(٢) المُتَنصِّحُ » . . . وأنا مُرْقِلٌ نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار ، والتابعين لهم بإحسان ، شديد زحامُهم ، ساطعٌ قَتامُهم متسربلين سرابيلَ الموت ؛ أحبُّ اللقاء لقاءُ ربهم ، قد صحِبتهم ذُرِّية بَدْرية ، وسيوف هاشمية ، قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك وجدك وأهلك ، (٣) « وما هى من الظالمين ببعيد » (٤).

ولما قتل عمار بن ياسر استاء أصحاب علىّ لمقتله ، وهاجموا جيش معاوية ، وأشرفوا على النصر ، وأظهر عمرو بن العاص من فنون الدهاء ما فرق بين جند على حين طلب إلى كل من معه مصحف ـ من جند معاوية ـ أن يرفعه على رمحه ، فرفعت

---

(١) يقال ظهر عنه العار اذا لم يعلق به و بنا عنه ، وقوله : وتلك شكاة ... الخ عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلى ، وصدره : وعيرها الواشون أنى أحبها .

(٢) الظنة : التهمة . وصدر هذا البيت : وكم سقت في آثاركم من نصيحة .

(٣) أخوه حنظلة ، وخاله الوليد بن عتبة ، وجده : عتبة بن ربيعة .

(٤) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٣١ . النويرى : نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٣٣ - ٢٣٧ .

المصاحف ؛ ورضى أصحاب على أن يرضوا بكتاب الله حكما . وبذلك كسر عمرو من حدة جند على ، وفرق بينهم ، وفت في عضدهم ، فكفوا عن القتال . ولم تجد نصائح على نفعا حين قال لأصحابه : إن ذلك لم يكن إلا خديعة أرادوا بها أن يقضوا على وحدتكم .

ثم عقد التحكيم فى شهر رمضان من سنة ٣٧ هـ بعد أن اختار أهل الشام عمرو ابن العاص ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى ، وخلع أبو موسى عليا ومعاوية وخلع عمرو عليا وثبّت صاحبه معاوية ، وأعطى هذا التحكيم الفرصة لجند الشام ؛ ليستأثروا بالأمر بعد أن انقسم جند على ، واعتزله الخوارج الذين ساروا نحو « المدائن » ، وانقسم المسلمون بذلك إلى ثلاثة أحزاب هى : شيعة بنى أمية ، وشيعة على ، والخوارج وهم أعداء الفريقين، يستحلون دماءهم ويرون أنهم خارجون على الدين ، ولكل من هذه الأحزاب أتباع يدينون برأيه فى الخلافة .

وعلى الرغم مما أحرزه علىّ من نصر على الخوارج فى النهروان سنة ٣٨ هـ ، انتزع معاوية بن أبى سفيان مصر من على ، فسار عمرو بن العاص على رأس جيش من أهل الشام ، ودخل الفسطاط ، واختفى محمد بن أبى بكر ، وكان على قد ولاّه مصر فى رمضان سنة ٣٧ هـ ، فأساء إلى العثمانية وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، وهدم دورهم وحبسهم ، فبث ابن حديج العيون حتى اهتدوا إلى مكان ابن أبى بكر ، فقتله ثم جعله فى جيفة حمار ، وأحرقه بالنار (صفر سنة ٣٨ هـ) .

وبعد أن تمت البيعة لعلى ، انتقل إلى الكوفة ، فلم تغير الخلافة ما اتصف به من البعد عن الهوى والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ابتغاء وجه الله ، بل كان لا يلبس من اللباس إلا أخشنه . روى عن عبد الله بن أبى الهذيل قال :

« رأيت عليا عليه خرج وعليه قميص غليظ دارس ؟ إذا مد كم قميصه بلغ الى الظفر ، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد » . وروى أبجر بن جرموز عن أبيه قال : « رأيت على بن أبى طالب يخرج من الكوفة وعليه قطريتان،[1] متزرا

---

(١) قطر وقطرية : نوع من البرود .

بالواحدة مترديا بالأخرى ، وإزاره إلى نصف الساق ، وهو يطوف فى الأسواق، ومعه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع والوفاء بالكيل والميزان.

كان على الخليفه يسوى بين الناس ، لايحب أن يرى ببيت المال مالا إلا أنفقه على الفقراء والمحتاجين . روى أنه إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه إلا مايعجز عن قسمته فى يومه ذلك ، ويقول يادنيا غرى غيرى . كان لا يفرق فى العطاء بين عربى أو عجمى أو بين قريب أو بعيد . « لم يكن يستأثر من الفىء بشىء ، ولا يخص به حميما ولا قريبا ، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات » . إذا بلغه عن أحدهم خيانة كتب إليه: « قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

وكان على يكتب لعامله فيقول : « احتفظ بما فى يديك من أعمالنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك . ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول : اللهم إنك تعلم أنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك .

وإلى على بن أبى طالب يرجع الفضل فى تنظيم الشرطة ، وهم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة فى استتباب الأمن ، وحفظ النظام ، والقبض على الجناة والمفسدين . ولما نظم على الشرطة ، أطلق على رئيسها «صاحب الشرطة» .

اتصف على بن أبى طالب بالخصال الحميدة ، فقد نشأ فى بيت الرسول ، فتأدب بآدابه العالية ، وتخلق بصفاته الكريمة . وكان أول من أسلم من الصبيان كما تقدم . وقد أحله الرسول من نفسه المحل اللائق به ، فعهد إليه بكثير من أمور المسلمين ، فأبلى فيها بلاء حسنا ، وأخلص فى نصرة الإسلام ، فعلا أمره ونبه ذكره، واشتهر بالشجاعة والبطولة . وليس أدل على ذلك من تعرضه للخطر فى الليلة التى هاجر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لبس ثوبه وبات فى فراشه ، مع أنه كان يعلم عزم المشركين على قتل الرسول فى تلك الليلة . كما اختاره الرسول لحمل الراية فى غزوة خيبر .

وقد اشتهر على بالمروءة والوفاء واحترام العهود ، والحرص على مال المسلمين. يدل على ذلك مانقله الطبرى عن أبى رافع خازن بيت المال فى عهد على قال : دخل على يوما وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها فقال : « من أين لها هذه ؟ لله على أن أقطع يدها ، فلما رأيت جده فى ذلك قلت: أنا « يا أمير المؤمنين ، زينت بها ابنة أخى ، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطها ؟ فسكت » :

وذكر صاحب الفخرى أن عقيل بن أبى طالب أخا على من أبيه وأمه طلب من بيت المال شيئا لم يكن له حق فيه ، فمنعه على وقال: « يا أخى ! ليس لك فى هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك ما تريد ، فلم يرض عقيلا هذا الجواب ، ففارق عليا وقصد معاوية بالشام .وكان على لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما .

وقد عرف على كرم الله وجهه بالزهد والتقشف ؛ حتى لقد كان طعامه من أدنى أطعمة فقراء المسلمين . وقد ضرب المثل بالعسل والخبز النقى فقال فى بعض كلامه : ولو شئتُ لاهتديت إلى مصفى هذا العسل بلباب هذا البر . ومن أحسن ما أثر عن على أنه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة . فلما أحضرهما ، أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت .

وكان يرجع إلى على فى كثير من مسائل الدين ، وتفسير القرآن ، ورواية الحديث، ومسائل الميراث ، والمشكل من القضايا . كان على يقول : «سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى ، فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار فى سهل أو جبل ! »

وكان على مضرب الأمثال فى الفصاحة ، كما كان أشعر الخلفاء الراشدين، أخرج السيوطى عن الشعبى قال : « كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان عثمان يقول الشعر ! وكان على أشعر الثلاثة . »

وقد ضرب على بسهم وافر فى العلم ، حتى لقد لقب قاضى الأئمة . « كان إماما

عالما متحريا فى الأخذ ، بحيث أنه يستحلف من يحدثه بالحديث » . روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما رواه عن أبى بكر وعمر . وكان عليّ يقدر العلماء وينزلهم من نفسه منزلة رفيعة . وقد بلغ من رجاحة عقله ، وسعة اطلاعه ، وإلمامه بالثقافة الإسلامية ، أنه عرّف العلم معرفة المتمكن منه ، حين قال : الناس ثلاثة: فعالم ربّانى ، وعالم متعلم ، على سبيل نجاة ، وهمج رعاة أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل ، والمال تنقصه النفقه وصحبة العالم دَيْن يُدان بها باكتساب الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة نفقة المال تُوَلّى بزوال صاحبه . مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون مابقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة» ثم أشار بيده إلى صدره وقال : علما « لو أصبت له حمله ، بلى ! أصبته لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده » .

وكان عليّ كرم الله وجهه من أئمة علماء المدينة ، تشد إليه الرحال ، وتضرب آباط الإبل التماسا لعلمه وفضله . روى عن قيس بن عباد قال : دخلت المدينة ألتمس العلم والشرف ، فرأيت رجلا عليه بردان ، له ضفيرتان ، واضعا يده على عاتق عمر ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : على بن أبى طالب. وقد عرّف عليّ الفقيه ووضح معالم رسالته خير توضيح حين قال : ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه ، مَن لم يُقنط الناس من رحمة الله ، ولم يُرَخِّصْ لهم فى معاصى الله . ولم يؤمنهم مكر الله . كما رسم عليّ الطريق لرواة الحديث فقال : حدّثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ماينكرون؛ أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ لذلك نهى عن رواية المنكر ، وحث على رواية الحديث بالمشهور ، وهذا أصل كبير فى أصول رواية الحديث .

وبينما كان عليّ كرم الله وجهه يعانى الشدائد من الخوارج الذين انفضوا من حوله ، استولى معاوية بن أبى سفيان على مصر ، وأخذ يدعو إلى نفسه بالخلافة ،

فجمع عليّ جيشا لقتال معاوية . ولم يكد هذا الجيش يتحرك حتى طعن عبدالرحمن ابن ملجم الخارجى عليا بسيف مسموم .

اجتمع ابن ملجم برجلين من الخوارج ، وتذاكروا إخوانهم الذين قتلهم على فى موقعة النَّهْرَوان ، واتفقوا على أن يقتل كل منهم واحدا من ثلاثة اعتقدوا أنهم كانوا مصدر ماحلّ بالمسلمين من الفرقة والخلاف ، وهم على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليّا ، وقال الآخر : أنا أكفيكم معاوية ، وقال الثالث : أنا أكفيكم عمرا . وقد قيل إن ابن ملجم رأى امرأة جميلة من بنات الخوارج وأغرم بها وخطبها ، فطلبت إليه فيما طلبت أن يقتل على بن أبى طالب ، فقال لها : ماجئت إلا لقتله ، ووعدها بأن يقتله . وأما الخارج الآخر فإنه مضى إلى معاوية ، فقعد له حتى خرج فضربه بالسيف على فخذه ، ولكن معاوية برىء من جرحه وقتل هذا الخارج . وأما الخارج الثالث فإنه مضى الى مصر لقتل عمرو بن العاص الذى لم يخرج لمرضه ، وأناب خارجة ابن حذافة لإمامة الناس فى صلاة الصبح ، فقتله هذا الخارج ، فقتله عمرو .

كان علىّ كرم الله وجهه يحسن إلى ابن ملجم . فلما جاء شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة ، كان علىّ يفطر ليلة عند الحسن ، وليلة عند الحسين ، وليلة عند ابن أخيه عبد الله بن جعفر الطيار . وقد أثر عنه أنه كان إذا أكل لا يزيد على ثلاث لقيمات ويقول : إنما هى ليلة أوليلتان ويأتى أمر الله وأنا خميص . ولما أقبل وقت صلاة الفجر خرج علىّ من داره ومضى إلى المسجد وجعل ينادى : الصلاة يرحمكم الله . فضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه وقال : الحكم لله لا لك ياعلىّ ، وصاح الناس وماجوا وهرب ابن ملجم ، فقال علىّ : لا يفوتكم الرجل ، وضيّق الناس على ابن ملجم وقبضوا عليه ، وأناب علىّ بعض أصحابه ليصلى الصبح بالناس ، وأدخل أمير المؤمنين داره ، وأحضر ابن ملجم عنده ، فقال له : ياعدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى ! قال فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه ، فقال على : لا أراك إلا مقتولا به ولا أراك

إلا من شر خلق الله ، ثم قال: النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى . وإن بقيت رأيت فيه رأيى ، يابنى عبد المطلب ! لا تجمعوا من كل صوب ، تقولون قُتل أمير المؤمنين ؛ ألا لا يقتلنَّ بى إلا قاتلى ، ثم التفت إلى ابنه الحسن وقال : انظر ياحسن! إذا أنا متّ من ضربتى هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلنّ بالرجل، فإنى سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول : إياكم والمُثلة ولو بالكلب العَقُور . ثم وصّى بنيه بتقوى الله تعالى ، وبإقامة الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلّها،وحسن الوضوء ، وغفر الذنب ، وكظم الغيظ ،وصلة الرَّحِم،والحلم عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ،والتثبت للأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش ، ثم كتب وصيّته ، ولم ينطق إلا بعبارة : لا إله إلا الله حتى قبض عليه السلام .

ذكر صاحب كتاب الفخرى أن عليا لما قبض ، أرسل ابنه الحسن إلى ابن ملجم ، فلما حضر قال للحسن : هل لك فى أمر ؟ إنى والله قد أعطيت الله عهدا ألاّ أعاهد عهدا إلا وفيت به ، وإنى عاهدت الله أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت دونهما ؛ فخلّ بينى وبين معاوية حتى أمضىَ فأقتله ، ولك عهد الله على أنى إن لم أقتله، أو قتلتُه وسلمتُ ؛ أن أجىء إليك حتى أضع يدى فى يدك ، فقال الحسن: لا والله حتى تذوق النار ، ثم قتله .

وهكذا فاز هذا الخارجى بقتل على كرم الله وجهه، وانتهى بوفاته عهد الخلفاء الراشدين ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية، وقتل عمرو بن بكر خارجة بن خداقة ظنا منه أنه قتل عمرا

قتل علىّ كرم الله وجهه فى السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة، وغسله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، وكفن فى ثلاثة أثواب، وكبر عليه تسع تكبيرات .

وقال أبو الأسود الدؤلى فى رثاء علىّ :

ألا أبلغ معاويةَ بنَ حرب ... فلا قَرَّتْ عيونُ الشامتينا
أفى شهرِ الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... ورحّلها ومَنْ ركب السفينا

ومَنْ لبس النعال ومن حَذَاها ومن قرأ المثانى والمُبِينا ؟

تزوج علی بن أبی طالب کرم الله وجهه، فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت ، وقد أنجب منها : الحسن ، والحسين ، سبطى الرسول وريحانته ، وسيدى شباب أهل الجنة ، ومحسنا ، وقد توفى صغيرا ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى .

فلما توفيت فاطمة تزوج على أم البنين بنت حزام ، فولدت له : العباس ، وجعفرا ، وعبد الله ، وعثمان ، وقد قتلوا مع الحسين بن على فى موقعة كربلاء سنة ٦١ هـ ، ولم يبق منهم غير العباس . ثم تزوج على ليلى بنت مسعود ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر ، وقيل إنهما قتلا مع الحسين أيضا . كما تزوج أسماء بنت عُمَيْس الخَثْعَمِيّة ، أم محمد بن أبى بكر ، فأنجب منها : يحيى ، وعونا ، ومحمدا الأصغر ، وقد قتل مع الحسين فى كربلاء .

ثم تزوج علىّ الصَّهْباء ، وهى أم حبيب بنت ربيعة ، وكانت أم ولد من السبى الذى أصابه خالد بن الوليد حين غزا بنى تغلب ، فولدت الصهباء لعلىّ : عمر الذى عُمِّر حتى بلغ الخامسة والثمانين ، ورقية . كما تزوج أمامة بنت أبى العاص ، وهى ابنة زينب بنت الرسول ، فأنجب منها محمدا الأوسط . ومن نسائه خَوْلة بنت جعفر الحنفية ، وقد أنجب منها ابنه محمد بن الحنفية ، ثم تزوج أم سعيد بنت عُروة ابن مسعود ، فولدت له : أم الحسن ، ورملة الكبرى . ومن نساء علىّ أيضا محياة بنت امرىء القيس بن عدى ، وقد أنجب منها بنتا ماتت وهى صغيرة .

ومن أولاد على من أمهات الأولاد اللاتى لم تعرف أسماؤهن : أم هانىء ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجُمانة ، ونفيسة .

وكان أولاد على أربعة عشر من الذكور وسبع عشرة من الإناث .

قضى علىّ بعد أن بقى فى الخلافة خمس سنين ، وكان فى نحو الستين من عمره ، فرحم الله عليا ، ورحم من ترحم عليه . حسبه من الخلافة أنه لم يترك إلا ثمانمائة درهم بقيت من عطائه ، كان يعدها لخادم يشترى بها لأهله .

٥- أسامة بن زيد

أصغر قائد فى الإسلام

إلى القارئ نسوق مثلا من أروع الأمثلة التى ضربها الإسلام للحرية والإخاء والمساواة ، حين سوّى بين العبد والحر ، وبين الأبيض والأسود ، وظفر الموالى فى صدر الإسلام بأسمى الرتب ، وتسنّموا أعلى المناصب . وكان منهم أسامة ابن زيد ، الذى ولى إمرة الجند ، ولمّا يناهز الثامنة عشرة من عمره .

كان زيد بن حارثة أبو أسامة ، من أحرار العرب ، ينتهى نسبه إلى لؤى بن كعب . ومن عجيب الصدف ، أن أمه سعدى خرجت به لزيارة قومها بنى مَعْن ، وبينما هم فى الطريق ، انقضّت عليهم خيل بنى القَيْن بن جَسْر فأسروا زيدا ، وساقوه إلى سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حِزام لعمته خَديجة بنت خُويلد بأربعمائة درهم . وظل زيد فى خدمة خديجة إلى أن تزوجت من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوهبت له زيدا ، وهو فى الثامنة من عمره . وقد وجد أبوه عليه وجْدا شديدا ، وبكاه بقوله :

بَكَيْتُ على زَيْدٍ ولم أدْرِ ما فَعَلْ
أحَىٌّ يُرَجّى أمْ أتى دونَه الأجَلْ
تُذَكِّرُنيه الشمسُ عند طلوعها
ويعْرِض ذكراه إذا قارَبَ الطَفَلْ

وقد حج قوم من كليب ، فرأوا زيدا ، فعرفهم وعرفوه ، فقال : أبلغوا أهلى أنى :

أحنُّ إلى قومى وإنْ كنت نائياً
بأنّى قطينُ البيت عند المشاعر

فانطلقوا ، فأعلموا أباه ، ووصفوا له موضعه ، فقدم مكة ، فسأل عن النبى عليه الصلاة والسلام ،فقيل هو فى المسجد ، فدخل عليه ، فقال : ياابن عبد المطلب ! ياابن سيد قومه ! أنتم أهل حرم الله ، تفكّون العانى ، وتطعمون الأسير : جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن فى فدائه ، فإنا سنرفع لك . قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال : أو غير ذلك ؟ ادعوه ، فخيروه : فإنْ اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى ، فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . فدعاه ، فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ! هذا أبى ، وهذا عمى . قال : فأنا مَنْ قد علمتَ ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما. فقال زيد : ماأنا بالذى أختار عليك أحدا، أنت منى بمكان الأب والعم! فقالوا : ويحك يازيد !أتختار العبودية على الحرية ؟ قال : قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً . فلما رأى الرسول ذلك ، أخرجه إلى الحجر ، فقال اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه ، طابت نفسه وانصرف.

ثم بعث الرسول ، وأخذ ينشر تعاليم الإسلام السمحة ، التى تسوى بين الناس على اختلاف أجناسهم ، وتجعل المؤمنين إخوة ، لاتفاوت بينهم إلا بقدر مايتفاضلون به من الحق .

وكان زيد من المسلمين الأولين ، حتى لقد قيل إنه كان رابع أربعة دخلوا الإسلام أول من دخل . وقد شهد زيد غزوة بدر الكبرى ، وكان البشير الذى حمل إلى أهل المدينة أنباء انتصار الإسلام على الكفر . وشاء الرسول أن يعبّر لزيد عن محبته له ، وحَدَبه عليه ، فزوّجه من مولاته وحاضنته أم أيمن ، فولدت له ابنه أسامة . بل لقد خصه الرسول بعطفه ، فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جَحْش . قالت عائشة : ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سَرِيّة إلا أمّره عليها ، ولو بقى لاستخلفه بعده . وروى الزهرى أن الرسول استخلف زيدا فى بعض أسفاره .

فلا عجب إذا ظفر زيد ، وهو أحد موالى الرسول ، بعطف مولاه ، وغدا

موضع ثقته ومحل رعايته ، حتى لقد أطلق عليه المسلمون : زيد بن محمد ، فأنزل الله عز وجل : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ، فسمى زيد بن حارثة.

شب أسامة فى كنف الرسول ، فكان أبوه زيد وأمه أم أيمن من موالى الرسول ، فأفعم قلبه بحب النبى ، وظفر بعطفه ومحبته كما كان أبوه من قبل . روى عبد الله ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن أسامة بن زيد لأحبُّ الناس إلىَّ ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيرا .

كان أسامة بن زيد من المسلمين الذين تخلفوا عن غزوة بدر الكبرى لأعذار خاصة ، فقد أبقاه الرسول صلى الله عليه وسلم مع عثمان بن عفان ، لتمريض رقية بنت الرسول وزوجة عثمان التى دفنت فى اليوم الذى أحرز فيه المسلمون النصر على المشركين ، فعدهما الرسول من البدريين وأفرد لكل منهما سهمه من النفل .

وقد أراد أسامة أن يشترك فى غزوة أحد ، ولكن الرسول ردّه لصغر سنه . وفى السنة الثامنة للهجرة ، صحب الرسول حين غزا مكة ، ودخل معه الكعبة ، وقاتل بشجاعة فى غزوة حنين .

وكان أسامة حين استشهد أبوه فى الخامسة عشرة من عمره . فما كاد يبلغ الثامنة عشرة ، حتى رأى الرسول ، تكريما لذكرى أبيه ، أن يعقد لابنه اللواء ، ويسيره لقتال الروم ؛ ليأخذ بثأر أبيه وثأر من استشهد معه من المسلمين ، ويؤدب الروم الذين سخروا من دعوة الرسول ، واعتدوا على رسله ، وقتلوا أصحابه .

ثم مرض الرسول ، وانتقل إلى جوار ربه ، فرأى أسامة أن ينزل عن إمرة الجيش ليترك للخليفة الجديد حرية الاختيار . ولكن أبا بكر خليفة رسول الله أبى إلا أن تنفذ رغبة الرسول ، فسير أسامة إلى مشارف الشام ، لأنه رأى فى ذلك مناورة حربية وسياسية ، تشعر أعداءهم فى الداخل والخارج بقوة الحكومة العربية وثبات مركزها ، وقال العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا .

ولكن تأمير أسامة فى حياة الرسول لم ينل رضا بعض الصحابة ، ومن بينهم

عمر بن الخطاب ، وذلك لصغر سنه ، وحداثة عهده بفن الحرب والقتال . ولما علم الرسول الكريم بهذا الاعتراض ، غضب أشد الغضب ، وقال : قد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة ، ولعمرى لئن قالوا فى إمارته ، لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة ، وإنه لخليق لها .

ثم ثقل المرض على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وانتقل إلى جوار ربه ، وجيش أسامة لم يبرح المدينة المنورة . وكان أسامة يعرف موقف بعض الصحابة من تأميره على الجيش ، فطلب إلى عمر أن يستأذن أبا بكر ، وكان قد بويع له بالخلافة ، فقال : « معى وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون » . ويبدو أن الأنصار كانوا يعارضون فى إمرة أسامة ، ويرون أن يولى على الجيش من هو أكبر سنا وأكثر تجربة . وكان عمر بن الخطاب يظاهرهم ويؤيدهم فى هذا الرأى ، ويرى أن أسامة لم يبلغ بعد السن ، ولم تحنكه التجارب للاضطلاع بهذا الأمر الخطير . ولكن أبا بكر كان حريصا على تنفيذ أوامر الرسول ، فما كاد عمر ينهى إليه رغبة أسامة فى اعتزال الإمرة ، حتى غضب غضبا شديدا ، ووثب على عمر ، فأخذ بلحيته ، وقال له : « ثكلتك أمك وعدمتك ياابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرنى أن أنزعه ؟ لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » فخرج عمر إلى الناس ، فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم مالقيت فى سببكم من خليفة رسول الله . هكذا نفذت إرادة الرسول . وبقى أسامة أميرا على الجيش برغم اعتراض المعترضين ، وأسرع المسلمون إلى الانضواء تحت لوائه ، مجاهدين فى سبيل الله ونصرة دينه ، ومن بينهم عمر بن الخطاب نفسه .

وقد أراد أبو بكر أن يبالغ فى بر أسامة وإكرامه وفاء لذكرى الرسول ، فخرج يشيع جيشه وهو ماش ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله ! لتركبن أو لأنزلن فقال : والله لانزلت ولا أركب ، وما على إلا أن أغبر قدمى

ساعة في سبيل الله . فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة سيئة تمحى عنه . وبلغ من إكبار أبى بكر لأسامة أن قال له : إن رأيت أن تعينني بعمر ، فافعل . فأذن له ، ثم وصاه أبو بكر فقال : لاتخونوا ولاتغدروا ، ولاتغلوا ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا طفلا ولاشيخا كبيرا ، ولاامرأة ، ولاتعقروا نخلا وتحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله ! وأوصى أسامة أن يفعل ماأمر به رسول الله .

هكذا شرع أبو بكر - وهو الخليفة الرشيد الأول للمسلمين - آداب القتال ؛ فأوصاهم بالضعفاء خيرا ، وحثهم على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم ، ولايتعرضوا لشعائرهم الدينية . وكان أسامة ، ذلك الفتى اليافع ، والقائد الشاب ، والمسلم الورع ، خير من يقوم على تنفيذ هذه السياسة التى تتفق وما جاء به الكتاب والسنة . وهو بحق يعتبر مثلا رائعا ، ضربه ذلك الدين السمح ، وذلك النبى العربى الكريم ، وقام على تنفيذه خلفاء المسلمين وقوادهم المبرزون .

كانت غيبة أسامة فى هذه الغزوة أربعين يوما ، عاد بعدها ظافرا منتصرا ، ليخف إلى نجدة الخليفة أبى بكر فى حروب الردة الطاحنة ، حتى استرد الإسلام هيبته ؛ فحارب قبائل قضاعة ، وأغار على آبل ، وقضى أربعين يوما فى حربه وجهاده . وقد بعث انتصار أسامة البشر فى نفوس أهل المدينة ، بعد أن أحزنتهم حروب الردة . واعتبرت حملته هذه فاتحة للحملة التى وجهت لغزو بلاد الشام .

ولما عاد أسامة إلى المدينة المنورة . استخلفه أبو بكر عليها حين خرج إلى ذى قصة حيث عقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين .

ولما ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة ، أكرم من أكرمه رسول الله وخليفته أبو بكر ، ففرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف درهم ، وفرض لابنه

عبدالله بن عمر ألفين ، فقال عبدالله : فضلتَ علىّ أسامة ، وقد شهدت ما لم يشهد! فقال عمر : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك .

ولما ولى عثمان الخلافة ، قرب أسامة إليه ، ووثق به . فلما اضطرب أمر الأمصار وأخذت الفتنة التى انتهت بقتل عثمان تُطلّ برأسها ، أرسل عثمان أسامة بن زيد إلى البصرة ، ومحمد بن مَسلمَة إلى الكوفة ، وعبدالله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، ليبحثوا عن أسباب هذا الاضطراب ، ويقفوا على حقيقة الحال فى البلاد الإسلامية .

ويظهر أن حب أسامة لعثمان ، وحزنه لمصرعه ، قد حمله على الامتناع عن البيعة لعلى بن أبى طالب فاعتزل السياسة ، ورحل إلى دمشق ، ثم عاد إلى المدينة. وقد قيل إن عليا لام أسامة على تخليه عن نصرته ، فقال له : لو أدخلتَ يدك فى فم تنين لأدخلت يدى معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذى شهد أن لا إله إلاّ الله .

كان أسامة يحفظ كثيرا من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . روى عنه من الصحابة : أبو هُرَيرة ، وعبد الله بن عباس ، ومن كبار التابعين : أبو عثمان النهدى ، وأبو وائل .

وتوفى أسامة فى آخر أيام معاوية سنة ثمان وخمسين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، فكان أول قائد تأمّر على جيش المسلمين وهو فى هذه السن المبكرة .

٦ — صُهيْب بن سِنان

« صُهيْب سابق الروم »

كان العالم قُبيل الإسلام يتطلع إلى ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين . ودلت الكتب، التى أرسلها الرسول الكريم إلى الملوك والأمراء ، دِلالة واضحة على ماتردد ذكره فى القرآن الكريم ، من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام . فقد قال الله تعالى فى سورة ص : (إن هو إلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ، ولتعْلَمُنَّ نبأه بعدحين) ، وقال فى سورة سبأ : (وما أرسلناك إلاَّ كافةً للناس بشيراً ونذيرا)، وقال فى سورة آل عِمْران : (ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلام دِيناً فلنْ يُقبلَ منه وهو فى الآخرةِ من الخاسرين) .

وكان إسلام صُهَيْب مع من أسلم من غير العرب ، دلالة واضحة على أن الإسلام لم يكن مقصورا على الجنس العربى ، قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . يؤيد ذلك ماورد فى القرآن الكريم من الآيات البينات ، وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان سنان بن مالك أبو صهيب(١) من أحرار العرب ، ينتهى نسبه إلى زيدمناة. وكان سنان وأخوه يليان الأبُلَّة من قِبل كسرى فارس ، وكانت منازلهم على نهر دجلة بنواحى الموصل .وأمه من بنى مالك بن عمرو بن تميم . على أن صهيبا قد أسر على أيدى الروم وهو صغير ، فنشأ ببلادهم ، وتعلم لغتهم ، حتى كاد أن ينسى لغته العربية ، وصار ألْكَن لا يستطيع أن يعبر عن آرائه فى عبارة عربية صحيحة، ولذلك سمى الرومى . وقيل إن اسمه عُمَيْرة ، فسماه الروم صهيبا ، لأنه كان

---

(١) وقيل خالد بن عمرو بن عقيل ، وقيل طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن جذيم ابن كعب بن سعد بن أسلم بن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاصد .

أحمر ، شديد الصهوبة تشوبه حمرة . وكان كثير شعر الرأس ، يخضب بالحناء .

ثم دارت الأيام بصهيب ، فاشتراه رجل من قبيلة كلب ، ثم باعه بمكة ، فاشتراه عبدالله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم الذى عقدت قريش فى داره حِلف الفُضول الذى حضره الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قبل بعثته . وقد تحالفت قريش على أن تنتصف لكل من يفد على مكة متظلما من أذى أحد القرشيين . وفى رواية أخرى أن صهيبا هرب من الروم ، فقدم مكة ، فحالف ابن جُدعان .

ثم بعث الرسول الكريم ، وأخذ ينشر تعاليم الإسلام التى تُسوِّى بين الناس على اختلاف أجناسهم ، وتجعل المؤمنين إخوة ، لا اختلاف بينهم إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق . وكان صهيب من المسلمين الأولين ، أسلم هو وعمار بن ياسر على يد الرسول فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، الذى اتُّخذت داره مركزا للدعوة الإسلامية سرا ، ولا تزال بمكة إلى اليوم . وكانت هذه الدار على جبل الصَّفا يؤمها الحجيج والغرباء . قال الرسول الكريم : السُّباق أربعة : أنا سابق العرب ، وصُهَيْب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة ، وسلْمان سابق الفرس . روى ابن عُيَيْنة أن أول من أظهر إسلامه سبعة ، منهم صُهَيْب .

كان المسلمون يستخفون من قريش فى صلاتهم ، وفى الدعوة إلى الإسلام . وكان المشركون كلما رأوهم فى صلاتهم سخروا منهم ومن عبادتهم . ونال صهيبا من السخرية ما نال غيره من المسلمين .

كذلك كان صهيب من المستضعفين الذين أوذوا وعُذِّبوا فى سبيل الله ، فلم يزده ذلك إلا تمسكا بالإسلام وإخلاصاً له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد ، جلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بنى محرث ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزأت بهم قريش ، فقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا

ماسبقناهؤلاء إليه، وماخصهم الله بهدوننا . فأنزل الله تعالى فى هؤلاء، ومن بينهم صهيب (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) (سورة الأنعام ٦ : ٥٢ - ٥٤) .

وقف صهيب مع الرسول فى الوقت الذى قصدت له قريش بكل طريق، تصد الناس عن دعوته، وتحقر من شأن المسلمين وتستهزىء بهم؛ وكان صهيب من هؤلاء النفر القليل الذين آمنوا به وصدقوه .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وظل الرسول يجد فى نشر الدعوة الإسلامية، حتى أصبح بقاؤه فى مكة محفوفا بالمخاطر؛ ففكر فى الهجرة إلى يثرب التى رحب أهلها بمقدمه . وبينما الرسول بقباء فى طريقه إلى يثرب ، لحق به على بن أبى طالب بعد أن رد الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابها من أهل مكة، وهاجر صهيب إلى المدينة مع على .

وقد روى أن صهيبا لما أراد الهجرة قال له كفار قريش : « أتيتنا صعلوكا (أى فقيرا) حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب : يامعشر قريش ! إنى من أرماكم ، ولا تصلون إلى حتى أرميكم بكل سهم معى ، ثم أضربكم بسيفى . « أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإنى جعلت لكم مالى . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ربح صهيب ، ربح صهيب ! » فأنزل الله عز وجل على نبيه الكريم :(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

. دخل صهيب فى دين الله وحسن إسلامه ، وأصبح من كبار الصحابة رضوان الله عليهم . وكان من أكثر المسلمين صحبة للرسول ، وأعلاهم مكانة عنده . وقد شهد المشاهد كلها مع الرسول . وكان من أحذق المسلمين فى رمى السهام . روى عنه أنه قال : « لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا قط إلا كنتُ حاضره، ولم يبايع بيعة قط إلا كنتُ حاضره ولم يسر سَرِيَّة قط إلا كنتُ حاضرها، ولا غزا غزاة قط إلا كنتُ فيها عن يمينه أو شماله ، وما خافوا أمامهم قط إلا كنتُ أمامهم ، ولا ماوراءهم إلا كنت وراءهم ، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين العدو قط ! » .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، ظل صهيب على ولائه للدعوة الإسلامية ، ووقف إلى جانب أبى بكر وعمر . روى البغوى عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « خرجت مع عمر حتى دخلت على صهيب بالعالية ، فلما رآه صهيب قال : ياناس ياناس ! فقال عمر : ماله يدعو الناس ؟ قلت : إنما يدعو غلامه يحنّس ، فقال له : « ياصهيب ! مافيك شيء أعيبه إلا ثلاث خصال : أراك تنتسب عربيا ، ولسانك أعجمى باسم نبى ، وتبذر مالك » . قال : أمّا تبذيرى مالى ، فما أنفقه إلا فى حق ، وأما كنيتى ، فكنانيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما انتمائى إلى العرب فإن الروم سبتنى صغيرا فأخذت لسانهم » .

ولما ضرب أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخنجره ، أوصى عمر صهيبا بأن يصلى بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام . وكان عمر قد عيّن ستة من الصحابة الذين عرفوا بأهل الشورى ، لينتخبوا من بينهم خليفة . وظل صهيب يصلى بالمسلمين حتى قضى عمر ، واستخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وصلى صهيب على جثمان عمر تنفيذا لوصيته . وإن إمامة صهيب المسلمين فى الصلاة لتدل على مكانته من نفس الرسول ونفس عمر من بعده ، كما تدل على علو منزلته فى الدين . والصلاة - كما نعلم - من أهم أركان الدين ، حتى إن الخليفة كان يؤم المسلمين بنفسه.

كان صهيب من كبار الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين لازموا الرسول

فى المدينة ، وشهدوا معه المشاهد كلها . وقد اشتهر برواية الحديث . وروى عنه أولاده : حبيب ، وحمزة ، وصالح ، وصيفى ، وعباد ، وعثمان ، ومحمد ، وروى عنه حفيده زياد بن صيفى .

وكان عمر بن الخطاب يقدر صهيبا ويعرف مكانته من نفس الرسول . فلما أحس بدنو أجله ، قال لصُهَيْب : صلِّ بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل عليا ، وعثمان والزبير ، وسعدا ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، وأحضر عبد الله بن عمر ، وقم على رءوسهم . فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا ، وأبى واحد ، فاشدخ رأسه (أو اضرب رأسه بالسيف) . وإن اتفق أربعة ، فرضوا رجلا منهم ، وأبى اثنان ، فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم ، وثلاثة رجلا منهم ، فحكم عبد الله ابن عمر ، فأى الفريقين حكم له ، فليختاروا رجلا منهم . فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتل الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

وهذا يدل على هذه المكانة السامية التى كان يتمتع بها صهيب ، حتى وثق به الخليفة ، وأنابه عنه فى إمامة المسلمين فى الصلاة ، وهى — كما نعلم — أهم أركان الدين ، حتى لقد اتخذ المسلمون من ندب الرسول أبا بكر ليصلى بالناس ، دلالة على ترشيحه للخلافة عن الرسول فى حكم المسلمين . وكذلك اختار عمر صهيباً لتنفيذ السياسة التى رسمها لانتخاب الخليفة خشية أن ينقسموا على أنفسهم ويتفرق شملهم ، ففوض إليه أن يقتل من يخرج على رأى الجماعة ، وأن يحسم هذا الخلاف ويحول دون الفرقة بين المسلمين . فانظر كيف رفع الإسلام من شأن المستضعفين من غير العرب ، من أمثال صهيب بن سنان الذى احتل هذه المكانة الرفيعة من نفس الرسول ومن نفوس خلفائه رضوان الله عليهم .

ويظهر أن صهيبا قد تقدمت به السن ، فآثر الدعة والهدوء ؛ فلم يشترك فى الحركات السياسية فى عهد عثمان وعلى . ولا غرو ، فقد أسلم قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة .

ذكر المؤرخون أن صهيبا مات فى عهد على بن أبى طالب ، وذلك فى السنة الثامنة والثلاثين للهجرة ، وقيل فى السنة التاسعة والثلاثين .

وهكذا عاصر صهيب الإسلام خمسين سنة أو تزيد ، وأدرك ما أصابه الرسول من نصر وظفر فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف ، ووقف على مدى اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

٧– عمار بن ياسر

« صَبْراً آل ياسِرْ موعدكم الجنة »

أسلم عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس المَذْحِجى من عنس من عرب اليمن القحطانيين مع صهيب بن سنان فى وقت واحد ، ونال من أذى قريش مانال غيره من المستضعفين الذين أوذوا وعذبوا فى سبيل الله . وكان هو وأبوه من السابقين الأولين .

قدم ياسر أبو عمار مكة مع أخويه الحارث ومالك فى طلب أخ رابع ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن ، وأقام ياسر بمكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وتزوج أَمَةً له يقال لها سُميَّة ، فولدت له ابنه عمارا ، فأصبح عمار حليف بنى مخزوم .

والحليف والجار والمعتق من الموالى . فإذا خلع شخص من قبيلته لجريمة اقترفها ، اتصل بقبيلة أخرى ، فأصبحت له حقوق وعليه واجبات ، منها أن يحمى المجير جاره ، ويراعى مركزه فى القبيلة . ويجرى على الحليف مايجرى على الجار . وقد أصبح عمار بولائه لبنى مخزوم حليفا لهم ، كما فعل كثير من الأسر الفارسية التى أبرمت بينها وبين الأسر العربية عقود الموالاة ، للاحتماء بهم والانتفاع بشرفهم وجاههم ، بعد أن دخلت بلادهم الفرس فى حوزة العرب .

لما ظهر الإسلام ، كان عمار بن ياسر من السابقين الأولين : أسلم هو وصهيب على يد الرسول الكريم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . قال عمار : لقيت صهيب ابن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، فقلت : ما تريد ؟ فقال : وما تريد أنت ؟ فقلت : أردت أن أدخل على محمد وأسمع كلامه ، فقال : وأنا أريد ذلك ، فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا وقد روى أن

أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخَبَّاب (بن الأرت)، وصُهَيْب، وعمار، وأمه سُمَيَّة.

كان عمار من المستضعفين، الذين سخر المشركون منهم ومن عبادتهم، والذين أوذوا فى سبيل الله. وكان مشركو قريش إذا حميت الرمضاء يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح، وهى أرض مستوية بين مكة ومنى، ويعذبونهم بحرها، فيمر بهم الرسول فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة! وكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوى الشرف، أنبه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن أى لنقبحن ولنخطئن رأيك ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه. ثم أمعن المشركون فى تعذيب عمار، بالحر تارة، وبوضع الصخر على صدره تارة ثم بالتفريق تارة أخرى.

نعم! كان المشركون يعذبون المسلم ويضربونه ويعطشونه، حتى إنه كان لا يقدر على أن يستوى جالسا من شدة العذاب فيقولون له: اللات والعُزَّى إلهك من دون الله، فيقول: نعم! وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمار بن ياسر وهو يبكى، فقال له الرسول: مالك؟ أخذك الكفار فغطوك فى الماء؟ فقلت: كذا وكذا؟ قال فإن عادوا فقل كما قلت. وكان الرسول يرق لعمار ولأبويه، فيمر بهم وهم يعذبون، فيرحمهم ويستغفر لهم ويبشرهم بالجنة، حتى إنه قال يوما: اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت. روى ابن سعد قال: كان عمار بن ياسر يُعَذب حتى لا يدرى ما يقول، وكذا صهيب، وأبو قائد، وعامر بن فهيرة، وفيهم نزلت هذه الآية: (والذين هاجروا فى الله من بعد ما فُتِنوا).

لم يحتمل ياسر هذا العذاب، فمات من شدته، ولم تطق امرأته سمية صبرا، فأغلظت القول لأبى جهل، فطعنها بحربة فماتت، فكانت أول شهيدة فى الإسلام. وهكذا لقى آل ياسر مالاقوا من صنوف الأذى وألوان العذاب فى سبيل نصرة الإسلام وإعلاء شأنه بين العرب.

ولما اشتد ايذاء المشركين للمسلمين، أشار الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام

على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة . وقد قيل إن عمارا هاجر مع من هاجر إلى أرض الحبشة .ولما هاجر الرسول إلى يثرب ، سبقه عمار إليها،وبنى وهو فى طريقه مسجد قُباء . وقد روى أنه قال : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بد من أن نجعل له مكانا إذا استظل من قائلته ليستظل فيه ويصلى ، فجمع حجارة ، فكان أول مسجد بنى فى الإسلام ، وهو مسجد قباء .

وكذلك شارك عمار فى بناء مسجد الرسول بالمدينة . وكان كل واحد من المسلمين يحمل لَبِنة . أما عمار فكان يحمل لبنتين لبنتين ، فقال : يارسول الله ! قتلونى ، يحملون علىّ مالا يحملون .قالت أم سلمة زوج الرسول : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته بيده ، وكان رجلا جعدا ، وهو يقول : ويح ابن سمية ! ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية ، وارتجز على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عمار بن ياسر وصار يرتجز وهو يحمل اللبن .كما كان عمار يتغنى أثناء بناء المسجد : نحن المسلمين نبتنى المساجد ،فيرجع عليه الرسول بعض غنائه فيقول : المساجد كما شارك عمار فى حفر الخندق حول المدينة حتى كان الرسول يمسح التراب عنه .

كان عمار بن ياسر من المهاجرين الأولين ، الذين هجروا ديارهم وتركوا أموالهم فى سبيل الله . وقد عمل الرسول الكريم على تخفيف وطأة الهجرة عن هؤلاء المهاجرين، فآخى بينهم وبين الأنصار، وآخى فيمن آخى بين عمار بن ياسر حليف بنى مخزوم وحذيفة بن اليمان أخى بنى عبس حليف بنى عبد الأشهل . وقيل إن الرسول آخى بين عمار بن ياسر وثابت بن قيس بن الشماس أخى بلحارث الخزرجى خطيب الرسول .

وقد اشترك عمار فى الغزوات والسرايا ، وشهد المشاهد كلها مع الرسول عليه

أفضل الصلاة والسلام . روى أنه شهد بَدْرا وأحدا والخندق ، كما شهد بيعة الرضوان التى بايع فيها المسلمون الرسول بالحُدَيْبية — على تسعة أميال من مكة — حين شاع بينهم أن قريشا قتلت عثمان بن عفان . وقد نوه الله تعالى بشأن هذه البيعة فى قوله عز وجل فى سورة الفتح : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) .

وكان لعمار أثر كبير فى غزوة ذات الرِّقاع ، (١) التى خرج فيها الرسول يريد بنى محارب وبنى ثعلبة فى السنة الرابعة للهجرة . فلما انصرف الرسول من هذه الغزوة ، أصاب أحد المسلمين امرأة رجل من المشركين . فلما انصرف الرسول أتى زوجها — وكان غائبا — ولما علم ، حلف ألاّ ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم دما . وخرج يتبع أثر الرسول — وكان قد نزل فى مكان — فقال : منْ رَجُلٌ يكلؤنا (٢) ليلتنا هذه ؟ وطلب رجلا من المهاجرين هو عمار بن ياسر ، ورجلا من الأنصار هو عُبادة بن بشر ، فقالا : نحن يارسول الله ! قال : فكونا بفم الشعب ، وكان الرسول وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادى. فلما خرج عمار وعباد إلى فم الشعب ، قال عباد لعمار : أىّ الليل تحب أن أكفيكه أوله أو آخره ؟ قال : بل اكفنى أوله . فاضطجع عمار فنام ، وقام عباد يصلى ، وأتى الرجل فضرب عبادا بسهم فنزعه عباد ، واستمر فى صلاته ، ثم رماه الرجل بسهم آخر ، فنزعه عباد وأخذ فى صلاته كذلك ، ثم رماه الرجل بسهم ثالث ، فنزعه عباد ثم ركع وسجد . فلما رأى عمار الدم يسيل من جسم عباد ، قال: سبحان الله ! أفلا أهببتنى أول مارماك ؟ قال عباد : كنت فى سورة أقرؤها ، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ؛ فلما تابع على الرمى ، ركعت ، فآذنك وأيم الله ، لولا أن

---

١ — من منازل بنى ثعلبة على مرحلتين من المدينة . وقد عرفت هذه الغزوة بذات الرقاع بشجرة كان يعبدها العرب فى هذه الناحية . ذكر الطبرى (ج ٣ ص ٣٩) أن هذه الغزوة سميت ذات الرقاع باسم جبل به سواد وبياض وحمرة .

٢ — أى يحرسنا ويحفظنا .

أضيع ثغرا أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها .

كان عمار بن ياسر من الصحابة الذين صحبوا الرسول فى غزوة تبوك ، التى دعا المسلمين فيها إلى غزو الروم فى السنة التاسعة للهجرة ، وخرج بالجيش فى طريق الشام. ولكن المنافقين أخذوا يثنون العرب عن قتال الروم ،وقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال إرجافا وترهيبا للمسلمين. ووثق الرسول بعمار بن ياسر ، فأمره أن يلحق بالمسلمين ويستطلع رأيهم ، فانطلق إليهم عمار وثناهم عن رأيهم ، فأتوا الرسول يعتذرون إليه بفضل تدخل عمار فى الأمر .

وكان عمار موضع تقدير الرسول ومحل ثقته ، لصدق إيمانه وإخلاصه للرسول وتمسكه بدعوته ، وحسن بلائه فى نصرة الدين. روى أن خالدا بن الوليد أغلظ لعمار ، فانطلق عمار يشكو إلى الرسول ، وجاء خالد وهو يشكو ، وأخذ يغلظ له القول ، والرسول ساكت لا يتكلم ؛ فبكى عمار وقال : يارسول الله ألا تراه ؟ فرفع الرسول رأسه وقال : من عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله ! قال خالد : فخرجت ، فما كان شيء أحبّ إلى من رضا عمار فلقيته فرضى .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، كانت لعمار مواقف مشهورة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقاتل يوم اليمامة أروع قتال ، ورآه بعض الصحابة على صخرة وهو يصيح : يامعشر المسلمين ! أمن الجنة تفرون ؟ إلىّ إلىّ ! أنا عمار بن ياسر ، هلموا إلىّ ! ومما يثير الدهش أن عمارا كان ينادى فى المسلمين ويحثهم على قتال مُسَيْلمة الكذاب وأنصاره من المرتدين ، وقد قطعت أذنه وتدلت من رأسه ، وهو يقاتل أشد قتال وأعنفه .

عرف عمر لعمار إخلاصه وكفايته ، فولاه الكوفة وكتب إلى أهلها : « .. أما بعد فإنى قد بعثت إليكم عمارا أميرا ، وعبد الله بن مسعود وزيرا ومعلما ، وهما من نجباء أصحاب محمد فاقتدوا بهما » .

ولكن أهل الكوفة ضايقوه وشكوه إلى عمر ، فعزله عنها . قيل إن عمر قال لعمار : أساءك عزلنا إياك؟ فقال له : أما إذ قلت ذاك ، فقد ساءنى حين استعملتنى وساءنى حين عزلتنى .

وكان عمار ممن بايعوا عثمان بن عفان ، وكان موضع ثقة عثمان فى مبدأ عهده . فلما اشتد استياء أهل الأمصار الإسلامية من عثمان ، ندب أربعة من الصحابة ليبحثوا أسباب هذا الاستياء ، ويقفوا على حقيقة الحال فى هذه الأمصار ، فندب محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر .

وعاد هؤلاء الذين ندبهم الخليفة إلا عمارا الذى استماله الثائرون فى مصر ، وساعد على ذلك ما كان من عثمان لعمار ، حيث أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس ابن عتبة بن أبى لهب . ويروى المؤرخون أن عمارا أخذ على عثمان أمورا ، وأنه اشترك مع لفيف من الصحابة فى كتاب بعثوا به إلى عثمان يلومونه فيه ، وأقبل عمار على عثمان ، وقدم إليه الكتاب ، فقرأ عليه صدرا منه ، فشتمه عثمان وضربه برجليه . وكان عمار شيخا ضعيفا قد تقدمت به السن .

ولما قتل عثمان وطلب معاوية بدمه ، انضم عمار إلى علىّ ، واشترك فى موقعة الجمل ، ثم صحبه فى موقعة صفّين ، وأبلى بلاء حسنا ، حتى إن الصحابة كانوا يتبعونه كأنه علم لهم . وقد روى أنه كان يقول لهاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وقد أحس بدنو أجله : ياهاشم ! تفر من الجنة ؟ الجنة تحت البارقة ، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شِعاب هجر لعلمت أنا على حق وأنهم على الباطل . وقال عمار : ائتونى بشربة لبن ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن ، وشربها وقاتل حتى قتل. وكان عمره يومئذ أربعا وتسعين سنة ، (وقيل ثلاث وتسعون ، وقيل إحدى وتسعون) . ولما ضرب عمار قال : ادفنونى فى ثيابى فإنى مخاصم . وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين ، ودفنه على بن أبى طالب فى ثيابه ولم يغسله .

روى أهل الكوفة أنه صلى عليه وهو مذهبهم فى الشهيد أن يصلى عليه ولا يغسل. وقد حزن على بن أبى طالب وأصحابه على قتل عمار حزنا شديدا وثارت ثائرتهم، وأدى ذلك إلى اشتداد القتال بين جند على وجند معاوية .

كان عمار بن ياسر من جلة أصحاب الرسول ، وكان من السابقين إلى الإسلام . وقد اشتهر برواية الحديث . روى عنه على بن أبى طالب ، وابن عباس ، وأبو موسى ، وجابر ، وأبو أمامة ، وأبو الطفيل ، وغيرهم من الصحابة . كما روى عنه من التابعين ابنه محمد ، وعمار ، وابن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، ومحمد بن الحنفية ، وأبو وائل ، وعلقمة وغيرهم . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار . وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماخُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

٨- سلمان الفارسى

« سَلمانُ منّا أهلَ البيت »

رحب الفرس بالعرب حباً فى الخلاص من ظلم حكامهم ، ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية ، وأملا فى تمتعهم بالحرية الدينية ، لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادُشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة ، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين ، على أن يدفعوا الجزية للمسلمين . كما رحب سكان المدن ، وخاصة الصناع وأهل الحرف فى فارس ، الذين كان ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء ، بالدين الإسلامى ، لأنه يبيح لهم أن يتمتعوا بالحرية الدينية ، التى تكفل لهم المساواة التامة مع غيرهم فى الحقوق . وقد وجدوا السبيل إلى الإسلام سهلا ميسورا ، لأن الفارسى يستطيع أن يجد فى القرآن الكريم كثيرا من التعاليم الأساسية فى ديانته القديمة ، وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا . وثمة ناحية اجتماعية حبَّبت إلى كبار الفرس ، وخاصة الدهاقين ، وهم كبار الملاك ، اعتناق الإسلام ، لأن الأرض ، وإنْ كانت قد أصبحت ملكا للفاتحين من العرب لاستيلائهم عليها عُنوة ، قد تركوها للأهالى يزرعونها ، على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى الخراج . وكان هذا من أهم العوامل التى ساعدت الفرس على اعتناق هذا الدين .

كان سَلمان من أهالى فارس ، من إحدى قرى أصبهان يقال لها « جَى » . وكان أبوه « دِهقان » هذه القرية ، وكان يحبه حبا جما ، حتى لقد بلغ من محبته إياه ، وإيثاره له ، وخوفه عليه ، أن حبسه فى داره كما تحبس الجارية . على أن هذا الفتى المدلل لم يضيع وقته وينصرف إلى حياة اللهو واللعب ، بل عكف على دراسة المجوسية دين آبائه وأجداده ، حتى كان سادن النار الذى يوقدها ، ولا يتركها تخبو ساعة .

وكان لأبى سلمان بناء فى داره، فقال له يوما: يابنى! قد شغلنى ماترى، فانطلق إلى الضيعة ولاتحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك».

وخرج سلمان، فمرّ بكنيسة للنصارى وهم يصلون، فأعجب بصلاتهم، وسألهم عن أصل دينهم فقالوا: بالشام. وظل مع النصارى حتى غابت الشمس، فاستبطأه أبوه وبعث رسلا فى طلبه. فلما عاد سلمان قال له أبوه: يابنى! قد بعثت إليك رسلا، فقال: مررت بقوم يصلون فى كنيسة، فأعجبنى مارأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا، فقال له: يابنى! دينك ودين آبائك خير من دينهم! فساورت أباه الهواجس، وخشى أن يفتتن ابنه عن دينه، فقيده وحبسه فى داره. لكنه احتال حتى اتصل بهؤلاء النصارى، وطلب إليهم أن يعلموه إذا قدم عليهم من الشام رَكْبٌ من تجار النصارى، وعولوا على العودة إليها. فلما أخبروه بقرب رحيل هذا الركب، ألقى القيد من رجله، وخرج معهم حتى أتى الشام، والتقى بأحد أساقفتها.

لكن سلمان لم يعجب بسيرة هذا الأسقف، لأنه كان يكتنز الصدقة لنفسه ولا يعطيها المساكين، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا. ولما مات هذا الأسقف خلفه أسقف آخر كان زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة. فألقى الله حبه فى قلب سلمان، فبقى معه حتى حضرته الوفاة، فقال له: أوصنى! فذكر له رجلا بالموصل. فلما مات ذلك الأسقف، لحق بها سلمان، ولقى ذلك الرجل، وكان زاهدا متعبدا، فمكث معه حتى حضرته الوفاة، فقال له سلمان: أوصنى! فدلّه على رجل بِعَمُّورِية، فبقى معه، وأخذ منه غنما وبقرات. فلما حضرت ذلك الرجل الوفاة، سأله سلمان أن يوصيه، فقال: «لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبى يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، مُهاجره (مكان هجرته) بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لاتخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.»

ولاعجب فى ذلك، فقد بشر بعض رجال الدين فى الشام بظهور نبى جديد. فلما

ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه أبى طالب إلى بُصْرى بالشام ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، لمح فيه راهب يدعى بَحِيراً ، علامات النبوة ، بعد أن سأله عن أمور فى نومه ويقظته ، ورأى فى بدنه علامات النبوة على ماجاء فى كتب النصارى . وكتب هرقل إمبراطور الروم إلى صاحب إيلياء — وكان مرجعا فى علم النجوم — يخبره بأنه رأى من علم النجوم أن نبى آخر الزمان قد ظهر ، ويسأله رأيه فى ذلك.

رحل سلمان إلى جزيرة العرب مع رَكب من قبيلة كلْب ببادية الشام ، وفى وادى القرى باعوه لرجل يهودى ، فأقام عنده حتى اشتراه يهودى آخر من بنى قريظة قدم به إلى يثرب ، فظل يتعهد نخله حتى سمع بهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .

يقول سلمان : « فإنى لفى رأس نخْلة ، إذْ أقبل ابن عم لصاحبى ، فقال : إى فلان ! قاتل الله بنى قيلة (أم الأوس والخزرج) ، مررت بهم آنفا ، وهم مجتمعون على رجل قادم عليهم من مكة يزعم أنه نبى ، فوالله ماهو إلا أن سمعتها ، فأخذنى القُرُّ وَرَجفت بى النخلة حتى كدت أن أسقط ، ونزلت سريعا وقلت : ماهذا الخبر ؟ فلكمنى صاحبى لكمة وقال : وما أنت وذاك ؟ أقْبِلْ على شأنك، فأقبلت على عملى حتى أمسيت ، فجمعت شيئا ، فأتيته به وهو بِقُبَاء عند أصحابه ، فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة ، فرأيتكم أحق به ، فوضعته بين يديه ، فكف يده وقال لأصحابه . كلوا ، فأكلوا، فقلت :هذه واحدة ورجعت .

« ولما دخل الرسول المدينة ، جمع سلمان شيئا وذهب به إليه ، وقال له : « أحببت كرامتك ، فأهديت لك هدية وليست بصدقة ، ومدّ يده ، فأكل وأكل أصحابه ، فقلت : هاتان اثنتان ؛ ورجعت فأتيته ، وقد تبع جنازة فى بقيع الغرقد ، وحوله أصحابه ، فسلمت وتحولت أنظر إلى الخاتم فى ظهره ، فعلم ماأردت ، فألقى رداءه ، فرأيت الخاتم فقبلته وبكيت ، فأجلسنى بين يديه ، فحدثته بشأنى كله . . .

فأعجبه ذلك وأحبَّ أن يسمعه أصحابه، ففاتنى معه بدر وأحد لبقائى فى الرق، فقال لى كاتب (١) ياسلمان عن نفسك! فلم أزل بصاحبى حتى كاتبته على أن أغرس له ثلثمائة وَدِية (٢) وعلى أربعين أوقية من الذهب. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أعينوا أخاكم بالنخل! فأعانونى بالخمس والعشر حتى اجتمع لى، فقال لى: نقر لها، (٣) ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدى. ففعلت فأعاننى أصحابى حتى فرغت فأتيته، فكنت آته بالنخلة فيضعها ويسوّى عليها ترابا، فأنصرف. والذى بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة، وبقى الذهب، فبينما هو قاعد، إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابه من بعض المعادن، (٤) فقال اذع سلمان المسكين الفارسى المكاتب! فقال: أدِّ هذه! (٥) فقلت يارسول الله! وأين تقع هذه مما علىَّ؟»

دخل سلمان الفارسى فى دين الله، وحسن إسلامه، وأصبح من كبار الصحابة رضوان الله عليهم. وشهد غزوة الخندق، تلك الغزوة التى كان لها أثر بعيد فى نصرة الدين ونشر الدعوة، بعد أن أخذ اليهود الذين أجلاهم الرسول عن المدينة، بعد أن أفسدوا عليه كل شىء فى حياة أهل المدينة بنفاقهم وعدم وفائهم بالعهود، وألبوا عليه سائر القبائل العربية. وكانت قريش قد خرجت من غزوة أحد منتصرة، وخيل إليها أنها هَزَمت المسلمين، ولم يبق إلا أن تشن على الرسول

---

١ ــ أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة. وللامام أحمد بن حنبل فى رواية انها واجبة متى دعا العبد سيده اليها. وان للعبد التجارة ليحصل على ما يدفعه من نجوم (أقساط) الكتابة، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء. وإذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه مابقى من المال المتفق عليه، فالحنيفة تجبره على الأداء حرصا على تحريره. ويشترط الفقهاء أن تراعى فى عقد الكتابة حال الرقيق، ولم يترك الاسلام فرصة من فرص التحرير الا انتهزها، فمن طريقة التدبير وهى أن يوصى السيد بأن يكون عبده حرا بعد موته.

٢ ــ بفتح الواو وكسر الدال وتشديد الياء: الفسيلة فاتت اليد طولا، تنقل من منبتها لأول لتغرس فى مكان صالح لها.

٣ ــ ابحث لها فى الأرض مواضع لتغوص فيها.

٤ ــ المعادن: المناجم.

٥ ــ ادفع هذه مما عليك لمن كاتبك.

عليه الصلاة والسلام غارة أخرى فتقضى عليه نهائيا ، وعولوا على أن يحاصروا الرسول وجيشه فى داخل المدينة وفى خارجها ، وتهيأت الأحزاب للخروج إلى المدينة المنورة .

ولما اتصل بالرسول ماعزم عليه المشركون ، أشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق شمالى المدينة ، وكانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل والأبنية ، ليحولوا دون وصول العدو إليهم . فلما أمر رسول الله بحفره ، أعجب المهاجرون والأنصار برأى سلمان ، فقال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلمان منا أهلَ البيت .

ولم يكن العرب ذوى دراية بهذا النوع من الأعمال الحربية ، التى وقف عليها سلمان فى بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام . حتى إن قريشا قد دهشت عندما رأته وقال قائلهم : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها . ولا عجب فى ذلك ، فقدكان لطول أمد الحصار أسوأ الأثر فى نفوس الأحزاب المتحالفة مع قريش ، كماكان لإخفاقها ورجوعها تجر أذيال الخيبة ، وتندب الآمال التى كانت تحلم بها ، أثر كبير فى سرعة انتشار الإسلام بين القبائل العربية . كماكان من أثر حفر هذا الخندق ، أن قريشا لم تعد تفكر فى غزو المدينة مرة أخرى ، وبلغ من اطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مناعة المدينة بعد حفر الخندق وانتصاره على المشركين ، أنه قال : « اليوم نغزوهم ولا يغزوننا » .

ولاريب أنه كان لتلك المشورة التى أشار بها سلمان على النبى صلى الله عليه وسلم ، أكبر الأثر فى قوة الإسلام وانتشاره ، وضعف روح المقاومة فى قريش ، مما جعل الدعوة الإسلامية تتجه إلى الاستقرار وتخرج من نصر إلى نصر .

كان إسلام سلمان فى السنة الأولى للهجرة ، مبشرا بانتشار الإسلام فى خارج الجزيرة العربية ، قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بفتح ماوراء هذه الجزيرة ؛ فقد صرح الرسول فى وضوح وجلاء ، بأن دعوة الإسلام ليست مقصورة على الجنس العربى ، فقال مؤيدا دعوى عموم الرسالة للجنس البشرى :

إن بلالا أول ثمار الحبشة ، وصهيبا أول ثمار الروم ، وسلمان أول ثمار الفرس .

عرف سلمان بالمتفقه فى الدين ، وروى عن الرسول كثيرا من الأحاديث ، لأنه كان من أكثر المسلمين صحبة وأعلاهم مكانة عنده . عن أبى ظَبْيان قال : « كنا مع سلمان الفارسى فى غزاة ، فمر رجل وقد جنى فاكهة ، فجعل يقسمها بين أصحابه ، فمر بسلمان فسبه ، فرد على سلمان وهو لا يعرفه ، فقيل له : هذا سلمان ، فرجع فجعل يعتذر إليه ، ثم قال له الرجل : مايحل لنا من أهل الذمة ياأباعبدالله ؟ قال : ثلاث : من عماك إلى هداك ، ومن فقرك إلى غناك . وإذا صحبت الصاحب منهم ، تأكل طعامه ويأكل طعامك ، ويركب دابتك وتركب دابته ، فى أن لا تصرفه عن وجه يريده » .

روى سلمان عن الرسول قال : « من اغتسل يوم الجمعة ، فتَطَهَّر بما استطاع من الطهر ، ثم ادهن من دهنه أو من طيب بيته ، ولم يفرّق بين اثنين ، فإذا خرج الإمام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » .

لم يتأثر سلمان بطيب أرومته وتدَلُّلِه وترَفه حين كان فى مَيْعَة الصبا . فقد تقلبت به الأحوال ، فأصبح عبدا نصرانيا بالمدينة ، ثم تحول إلى الإسلام ، فكان أول ثمار الفرس أو سابق الفرس كما تقدم ، وحسن إسلامه ، وحسنت صحبته للرسول حتى عده من آل البيت . فلما تقدمت به السن وأثقلت أعباء إمارة « المدائن » كاهله فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، زاد تقشفه وزهده فى الدنيا ، حتى كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف (ركاب) ، ويأكل خبز الشعير . ولا عجب فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضوان الله عليهما ، لا يتأنقون فى ملبسهم ؟ فحذا عمالهم حذوهم مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

وكان سلمان من المُعَمَّرين ، حتى ذهب بعض إلى القول بأنه عاش مائتين وخمسين سنة بل ثلثمائة وخمسين . وهو قول بعيد عن التصديق . فليس من السهل إذن تحديد سنة ولادته . كذلك اختلف المؤرخون وأصحاب السير فى سنة وفاته

فقيل إنه توفى فى خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل فى خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين ، وقيل فى خلافة علىّ سنة ست وثلاثين ، بيد أن وفاته فى خلافة عمر أقرب إلى الصواب .

وهكذا انتهت حياة سلمان فى غموض كما بدأت فى غموض ؛ فلم يذكر لنا المؤرخون شيئا ذا غناء عن حياته بعد الرسول ، برغم صحبته له ، وعلو مكانته عنده ، واشتراكه فى نشر الدعوة وتفقهه فى الدين ، وكفايته فى الإدارة . ومات سلمان وقد ترك ثلاث بنات ، أقامت إحداهن بأصبهان ، وأقامت اثنتان بمصر .

٩ـ سعد بن عُبادة الأنصارى

سيد الخزرج

ينتهى سعد بن عبادة بن دَليم بن حارثة بن أبى حَزِيمة (١) بن ثعلبة بن طَريف ابن الخزْرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى الساعدى، إلى قبيلة الخزرج التى ترجع فى أصلها إلى عرب الجنوب، ويكنى أبا ثابت، وقيل أبا قيس.

كان أهل يثرب من الأوس والخزرج قد ألفوا أفكار اليهود الدينية، وما فيها من بَعْث وحساب وما بَعدهما من جنة ونار وغير ذلك، حتى أصبحوا أكثر استعدادا لفهم معنى نبوة الرسول الكريم من أهل مكة الوثنيين. وعرف أهل يثرب مبلغ الشبه بين تعاليم الرسول، وبين من توعدهم به اليهود من بعث الرسول: يقومون بنصرته، ويستأثرون به على خصومهم. لذلك بادر أهل يثرب من العرب إلى تصديق الرسول، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتباعه، فيقتلوهم قتل عاد وإرم.

ووجد الأوس والخزرج فى شخصية الرسول أمنيتهم، لانه كان من أكرم بيوتات قريش وساداتها، ثم هو ابن آمنه التى تنتسب إلى بنى النجار، أحد بطون الخزرج، وهو نبى كريم، يستطيعون أن يطاولوا به اليهود بما ينزل عليه من وحى، كما يستطيع هو أن يجمعهم تحت لوائه.

كان الاوس والخزرج يتنازعان الرياسة، وقد وقعت بينهما الحروب بسبب المنافسة: فلما حلت الهزيمة بالخزرج يوم بُعاث، أصبحوا أكثر استعدادا لقبول الإسلام. ومن ثم كانوا ينشدون حليفا يوحد كلمتهم هم والأوس، أو يساعدهم

---

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى وبعدها ياء ثم ميم وهاء، وقيل: حارثة بن حزام بن حزيمة.

على التغلب على منافسيهم . فلما أقبل جماعة من الخزرج إلى مكة للحج فى الموسم التالى ليوم بعاث ، لقيهم الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام عند العقبة (١) ، فأجابوا دعوته . ولما عادوا إلى يثرب ، دعوا قومهم إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

وفى السنة الثانية عشرة من النبوة ، قدم مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب، لقوا الرسول بالعقبة ، وبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ، ولا يعصوه فى معروف . وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة ، قدم مكة ثلاثة وسبعون شخصا من أهل يثرب الذين أسلموا حديثا ، وقد عقدوا العزم على أن يدعوا الرسول الكريم للهجرة إلى بلدهم ، ويبايعوه على النبوة والزعامة عليهم ، فطلب منهم الرسول أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر نقيبا ، فانتخبوا تسعة من الخزوج وثلاثة من الأوس .

كان سعد بن عبادة سيد بنى ساعدة ونقيبهم ، وكان من النقباء الذين اختارهم قومهم ، لعلو مكانتهم فيهم ، وارتفاع شأنهم بينهم ، ولأنهم يستطيعون أن يحملوا قومهم على قبول الدعوة وحماية الرسول ودفع أذى المعتدين عنه .

وكان سعد بن عبادة من أشد أهل يثرب تمسكا بدعوة الرسول ، وأكثرهم استعدادا لنصرته والترحيب بمقدمه . بل لقد حرص على أن يكون له شرف استقبال الرسول فى داره ، فلقيه مع المنذر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا : يارسول الله ! هلم إلينا ! إلى العدد والعدة والمنعة ! فقال : خلوا سبيلها (يعنى ناقته) فإنها مأمورة ! فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا بلغت دار بنى مالك ابن النجار ، بركت على مَرْبَد لغلامين يتيمين من بنى النجار ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل فى دار أبى أيوب بن خالد بن زيد الأنصارى.

على أن سعدا ، وإن لم ينل شرف نزول الرسول بداره ، حرص الحرص كله على إكرام وفادته ، والتعبير عن وَلائه له ومحبته إياه ؛ فكان يحمل إليه كل

---

(١) هى منزل فى طريق مكة على مقربة من منى .

يوم جَفنة مملوءة ثريدًا أو لحما ، يبعث بها إليه فى المكان الذى يسير إليه . ولا عجب فقد ضربت الأمثال بسعد بن عبادة وأهل بيته ، فى الجود والكرم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيس بن سعد بن عبادة : إنه من بيت جود. وقيل إن قريشا سمعوا صائحا يصيح ليلا على جبل أبى قُبَيْس عن سعد بن مُعَاذ وسَعْد بن عُبادة :

فإنْ يَسْلَمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ مُحَمَّدٌ
بمكةَ لا يَخْشَى خلافَ مخالف

فزعموا أنه يعنى سعد بن زيد مناة بن تميم وسعد هذيم من قضاعة ، فسمعوا فى الليلة التالية قائلا يقول :

أيا سعد سَعد الأوس كُن أنتَ ناصراً
ويا سعد سعدَ الخزرجين الغطارِف
أجيبا إلى داعى الهُدى وتمنَّيا
على الله فى الفِردَوْس مُنيةَ عارِف
وإنّ ثواب الله للطالب الهدى
جِنانٌ من الفردَوْس ذات زَخارفِ

فقالوا : هذا سعد بن مُعاذ وسعد بن عُبادة .

اشتهر سعد وأبوه وجده وابنه بالجود والكرم ، وقد بلغ من تقدير الرسول لسعد بن عبادة وآله أن قال : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . وروى ابن سيرين : كان أهل الصُّفة إذا أمسوا ، انطلق الرجل بالواحد ، والرجل بالاثنين ، والرجل بالجماعة ؛ فأما سعد فكان ينطلق بثمانين . لذلك لا نعجب إذا رأينا الأنصار يلقبون سعد بن عبادة : الكامل . كذلك اشتهر عن سعد أنه كان يحسن العوم والرمى .

كان سعد بن عبادة من رؤساء الأنصار وساداتهم، وكان سيد الخزرج غير منازع ، حتى كان يحمل راية الأنصار فى الحروب ، وأبلى البلاء الحسن فى الجهاد . ذكر

ابن الكلبي والمدائنى والواقدى أنه شهد بدرا ، وإن كان ابن إسحق لم يذكره بين البدريين .

وكذلك اشترك سعد بن عبادة مع الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام فى غزوة الأحزاب . وقد بلغ من شدة ثقة الرسول بسعد بن عبادة واعتماده عليه فى أوقات الحرج ، أنه بعث بسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، وعبد الله بن رواحة ، إلى بنى قريظة من اليهود ليوافوه بأخبارهم ، بعد أن نمى إليه أنهم نقضوا ماتعاهدوا عليه مع المسلمين ، وقال لهم الرسول : انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ! فإن كان حقا فالحنوا (١) لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس(٢) ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس . ولما رأوا الغدر من اليهود ، عادوا وأخبروا الرسول ، فقال : الله أكبر ! أبشروا يامعشر المسلمين !

ولما اشتد خوف المسلمين من انضمام بنى قريظة إلى قريش وحلفائها الذين حاصروا المدينة ، فاوض الرسول قائدى غطفان فى قبول ثلث غلة المدينة ، على أن يكفا عن الحصار ، فقبلا . وتحدث الرسول إلى سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، عن أمر ذلك الاتفاق ، فقالا ! يارسول الله ! إن كنت أمرت بشىء فافعله ، وإن كان غير ذلك ، فوالله مانعطيهم إلا السيف. فقال رسول الله : لم أومر بشىء ، وإنما هو رأى أعرضه عليكما ، فقالا : يارسول الله ! ماطمعوا بذلك منا قط فى الجاهلية ، فكيف اليوم وقد هدانا الله بك ؟ فسر النبى صلى الله عليه وسلم بقولهما.

وكذلك اشترك سعد بن عبادة فى غزوة الفتح ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم رايته ، فمر بها على أبى سفيان ، وكان قد أسلم ، فقال له سعد : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا . فلما مر رسول الله

---

(١) اللحن ، التورية أو الرمز ، بمعنى أن يخالف ظاهر الكلام معناه .

(٢) فت فى عضده اذا ضعفه وأوهنه .

فى كتيبة من الأنصار ، ناداه أبو سفيان : يارسول الله ! أمرت بقتل قومك ! زعم سعد أنه قاتلنا ، فقال عثمان بن عفان ، وعبدالرحمن بن عوف : يارسول الله ! ما نأمن سعدا أن تكون منه صولة فى قريش . فقال رسول الله : يا أبا سفيان ! اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله قريشا ! ثم أخذ اللواء من سعد ، وأعطاه ابنه قيسا ، فأخذ اللواء ودخل به مكة .(١)

كان سعد بن عبادة غيورا شديد الغيرة على الإسلام والضرب على أيدى المشركين . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن سعدا لغيور ، وإنى لأغير من سعد ، والله أغير منا ، وغيرة الله أن تؤتى محارمه .

كان لسعد بن عبادة مواقف مشهودة فى حياة الرسول ، تدل على صدق إيمانه وشدة إخلاصه للرسول ، وتمسكه بدعوته . وقد ظهر هذا الإخلاص حين نزل الرسول عما كان له من بنى هوازن وأموالهم ، وظن الأنصار أنه أصبح فى غنى عنهم ، فأمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار ، وخطبهم خطبة بليغة ، أكد لهم فيها محبته إياهم ، وإيثارهم على غيرهم ، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم ، فبكى الأنصار وعلى رأسهم سعد ، وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم ، وعدوا ذلك غنما عظيما .

على أن التنافس على الرياسة ، الذى ساد بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول إلى المدينة ثم خبا فى حياة الرسول ، لم يلبث أن بعث إثر وفاته ، وطمع سعد فى الخلافة ، وجلس فى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار ، ورشح الخزرج سعد بن عبادة ، فقام فيهم خطيبا وقال : « يامعشر الأنصار ! لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . . . استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس » .

ولما اتصل نبأ هذا الاجتماع بعمر بن الخطاب ، أسرع مع أبى بكر وأبى عبيدة إلى السقيفة ، وقام أبو بكر خطيبا ، وأخذ يبرر موقف المهاجرين وأحقيتهم

---

(١) وقيل أعطاء الزبير بن العوام وقيل أمر عليا .

بالخلافة ، وقال : وأنتم يامعشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، فيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

هنا تجلت النفس العربية والطبيعة القبليـــة : فالأنصار يخشون قريشا ، والمهاجرين إن استأثروا بالأمر دونهم ، وهم جميعا فيما بينهم يتوجسون ، وتخشى كل من الأوس والخزرج صاحبتها . وخشيت الأوس أن ينفرد الخزرج بالأمر ، فانضمت إلى المهاجرين . ثم قام عمر فبايع أبا بكر بالخلافة ، وتخلف سعد عن بيعته . ويظهر أنه انصرف عن السياسة والحرب ، وآثر الحياة الهادئة ، ورحل إلى الشام ، وأقام بحوران .

احتل سعد بن عبادة منزلة رفيعة فى قلب الرسول ، الذى كان يزوره فى داره ، ويُضفى عليه من مظاهر التقدير ما هو خليق به ؛ لسبقه إلى قبول الدعوة ، وأثره فى الجهاد . وقد روى عنه بعض كبار الصحابة كعبد الله بن عباس .

وروى سعد بن عبادة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه ، إلا لقى ربه وهو أجذم ، وما من أمير إلا أتى يوم القيامة مغلولا حتى يطلقه العدل » .

وقد روى عنه أولاده : قيس وسعيد وإسحاق ، وحفيده شرحبيل بن سعيد ، ومن الصحابة : عبد الله بن عباس ، وأمامة بن سهل .

مات سعد بن عبادة بحوران فى السنة الخامسة عشرة ، وذلك فى عهد عمر بن الخطاب ، وقيل إنه مات فى السنة الرابعة عشرة ، وقيل فى السنة السادسة عشرة . وقد روى أنه وجد ميتا على مغتسلة وقد اخضر جسده ، ولم يعلموا بنبأ موته ، حتى سمع بعض الغلمان قائلا يقول من بئر :

نَحْنُ قَتَلْنَا سيدَ الخزْ
رَجِ سعدَ بنَ عُبادة

فرميناه بسهمين
فلم نخط فؤاده

فلما سمع الغلمان ذلك ذعروا ، فحفظوا ذلك اليوم ، ثم وجدوا أنه اليوم الذى مات فيه سعد بالشام . وقيل إن قبره بمكان يقال له المنيحة ، وهى قرية من غوطة دمشق ، ولا يزال المسلمون يفدون إلى هذا المكان لزيارة قبر سعد بن عُبادة .

١٠ — سعد بن معاذ

سيد الأوس

كان سعد بن معاذ سيد الأوس ، من الأنصار الذين رحبوا بقدوم الرسول على بلدهم يَثرِب ، واجتمعوا تحت لوائه ، وكان لهم أثر ملحوظ فى نشر الدعوة الإسلامية .

ينتسب سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن جُشم بن الحارث بن الخزرج بن النَّبيت(١) إلى قبيلة الأوس ، التى هاجرت من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب . وأمه كَبْشة بنت رافع من صحابة الرسول وأنصاره .

كان الأوس والخزرج من عرب يثرب ، أكثر استعدادا لقبول الدعوة الإسلامية والإيمان بنبوة الرسول ، من قريش الوثنيين ، لأنهم ألفوا أفكار أهل الكتاب من بنى قرَيْظة وبنى النَّضِير . لذلك سارع أهل يثرب من العرب إلى الدخول فى الإسلام ، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود .

ولما حلت الهزيمة بالخزرج يوم بُعاث ، أقبل جماعة منهم للحج ، فيهم ستة من سادتهم . وكانوا ينشدون حليفا لتوحيد كلمتهم مع الأوس ، أو للتغلب عليهم ؛ إذ كان كل منهما يريد أن تكون له الرياسة ، فلقيهم الرسول عليه الصلاة والسلام عند العَقَبة ، فسمعوا لدعوته وأجابوا .

ولما حل الموسم التالى ، وافى مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، لقوا الرسول بالعقبة ، وبايعوه فى تلك الليلة . وقد سميت تلك البيعة بيعة النساء ، وبيعة العقبة الأولى . ثم أرسل الرسول مع أهل يثرب مُصْعَب بن عُمَير ،

---

١ ـ واسمه عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسى .

وكان قد عاد أخيرا من الحبشة ، يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويؤمهم فى المسجد . وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة ، اجتمع مصعب برسول الله بالعقبة بعد الحج، واتخذ دار أسعد بن زرارة مقاما له ، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن فى تلك الدار أحيانا ، وأحيانا أخرى فى دار بنى ظَفر فى حى من أحياء يثرب ، حيث كانت تقيم هذه الأسرة مع أسرة بنى عبد الأشهل .

كان سعد بن معاذ (ابن خالة أسعد بن زرارة) وأسيد بن حُضير شيخى بنى عبد الأشهل فى ذلك الحين ، وقد حدث ذات يوم أن كان مصعب جالسا مع أسعد ابن زرارة فى دار بنى ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الإسلام بين من دخلوا فيه حديثا ؛ إذْ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم ، وقال لأسيد بن حُضَير : لا أبالك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى ماقد علمت ، لكفيتك . عند ذلك تناول أسيد حربته ، وانطلق إلى أسعد ومصعب ثم صاح بهما : ماجاء بكما إلينا ؟ أتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما فى نفسيكما حاجة ! فأجاب مصعب فى هدوء : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته فكف عنه . فركز أسيد حربته فى الأرض، وجلس إليهما يسمع ، ومصعب يشرح له قواعد الإسلام الأساسية ، ويقرأ بعض آيات من القرآن ، وصاح بعد برهة مأخوذا : كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ فأجابه مصعب: تغتسل فتطهر ثوبك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله. فاستجاب أسيد لساعته ، وردد شهادة الإسلام ، ثم قال : إن ورائى رجلا — يشير إلى سعد بن معاذ — إن اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن .

عند ذلك انصرف أسيد بن حضير ، ولم يلبث أن جاء سعد بن معاذ ثائراً حنقا على أسعد بن زرارة لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد ، فرجا منه مصعب ألا يحكم على هذا الدين قبل أن ينظر فيه. عندئذ رضى أن يصغى إلى كلام مصعب.

وسرعان ماأثر فيه ، وحمل الإقناع إلى قلبه ، فدخل فى الدين ، وأصبح من أعلام المسلمين . ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم : يابنى عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة . فقال سعد كلمته المأثورة : فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل . وسرعان ما أصبحت السيادة إلى سعد بن معاذ على الأوس والخزرج جميعا ، وأسلم كثير من أهل يثرب ، حتى لم يبق دار من دورها إلا وفيها مسلمون ومسلمات . فلا عجب إذا قيل إن سعد بن معاذ كان من أعظم الناس بركة فى الإسلام .

من ذلك تتجلى مكانة سعد بن معاذ بين قومه ، وحسن أثره فى نشر الدين بينهم ، كما تتجلى قوة إيمانه وصدق عقيدته فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ولا عجب فى ذلك ، فهو سيد بنى عبد الأشهل ، بل سيد الأنصار غير منازع . وهو أفضلهم رأيا وأبعدهم أثرا ، فى نصرة الإسلام ، وحماية الرسول ، ودفع أذى المعتدين عنه . ولاغرو فقد أصبح الرسول بعد إسلام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة على حد قول الشاعر :

فإنْ يَسْلَمِ السَّعْدانِ يُصْبِحْ مُحَمد
بمكة لا يَخْشى خِلافَ مُخَالف

أبلى سعد بن معاذ البلاء الحسن فى الجهاد ، فشهد بدرا وأحدا والخندق . فان الرسول لما سار إلى بدر ، وأتاه خبر قدوم قريش ، استشار الناس ، فقال المقداد بن الأسود فأحسن ، وكذلك أبو بكر وعمر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الأنصار ، لأنهم كثيرون ، فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ، قال : أجل ! قال سعد : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به الحق ، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا .

انا لصبر عند الحرب صِدْق عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ماتقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ... فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله وشجعه .

قام سعد مع نفر من الأنصار على حراسة الرسول فى غزوة بدر ، وكان يخاف أن يفاجئه المشركون ، فبالغ فى تشديد الحراسة عليه ، وظهر الجد على وجهه ، فقال له الرسول : والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم ، قال : أجل يارسول الله ! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحبّ إلى من استبقاء الرجال . وكأنما أحب سعد بن معاذ أن يشترى المسلمون أرواحهم ابتغاء الجهاد فى سبيل الله والقضاء على المشركين .

كذلك اشترك سعد بن معاذ مع الرسول فى غزوة الخندق — وتُعرف أيضا بغزوة الأحزاب . وبلغ من ثقة الرسول بسعد بن معاذ واعتماده عليه فى أوقات الحرج والشدة ؛ أن يبعث به — وهو يومئذ سيد الأوس — ، وبسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وعبد الله بن رَواحة ؛ — إلى بنى قرَيْظة من اليهود ؛ ليوافوه بأخبارهم بعد أن اتصل به أنهم نقضوا العهد الذى أخذوه على أنفسهم مع المسلمين . ثم أقبل سعد بن معاذ ومن معه إلى رسول الله ، فسلموا عليه وقالوا . عَضَلْ والقارة.(١)

ولما اشتد خوف المسلمين من انضمام بنى قريظة إلى قريش وحلفائها ، وأراد الرسول أن يُبْرم الصلح مع قائدى غطَفان فى قبول ثلث غلة المدينة على أن يكفا عن الحصار ، قال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة : يارسول الله ! أمرا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (٢) من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرما . فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على

---

(١) يعنى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع الذين وفدوا على الرسول وطلبوا إليه أن يبعث إليه نفرا يعلمونهم الاسلام ، فبعث إليهم ستة من المسلمين فغدروا وذلك قبيل غزوة الأحزاب فى السنة الخامسة للهجرة . والرجيع ماء لبنى لحيان بين مكة وعسفان .

(٢) أى اشتدوا عليكم .

الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ! ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرى(١) أو بَيْعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذاك ! فتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من كتاب ، ثم قال : ليجهدوا علينا .

جاهد سعد بن معاذ جهاد الأبطال فى غزوة الأحزاب التى تحالفت فيها قريش وغطفان وبنو قريظة من اليهود على المسلمين ، ورمى بسهم والمشركون يحاولون اختراق الخندق . وكانت أم سعد مع السيدة عائشة فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب ، فمر سعد وعليه درع له مقلصة قد خرجت ذراعه وفى يده حربة وهو يقول :

لَبِّثْ قليلا يَلْحَقْ الهَيْجا حَمَلْ (٢)
لا بأسَ بالموتِ إذا حانَ الأجَلْ

فقالت أم سعد : الْحَقْ يا بُنَىّ ، قد والله أخَّرْتَ ، فقالت عائشة : يا أم سعد ! والله لوددت أن دِرعَ سعد أسبغ مما هى ، ولم يلبث أن رماه عاصم بن عمرو بن قتادة بن حبان بن العرقة(٣) من بنى عامر بن لؤى وقال له : خذها منى وأنا ابن العرقة ، قال سعد : عَرّق الله وجهك فى النار ! اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئا ، فأبقنى لها ، فإنه لا قومَ أحبُّ إلىّ أنْ أجاهدَ من قومٍ آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، وإنْ كنت وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم ، فاْجعَلهُ لى شهادة ، ولا تُمِتْنى حتى تَقَرَّ عينى فى بنى قريظة .

ولكن انتصارَ المسلمين فى غزوة الخندق ، وما اكتنفها من طول أمد الحصار ، وإن كان قد أنسى سعد بن معاذ آلامه — قد أثار حقده وموجدته على اليهود ،

---

(١) بكسر القاف : الطعام الذى يقدم للضيف .

(٢) حمل اسم رجل .

(٣) قيل إن معرقة تسكنى أم فاطمة ، سميت بذلك لطيب رائحتها .

الذين نقضوا العهد، ومالئوا الأعداء على المسلمين؛ وأبى الرسول إلا أن يؤدبهم ويجليهم عن المدينة. فلما وصل الرسول إلى المدينة ظهرا، أمر بلالا أن يؤذن فى الناس: من كان سميعاً مطيعا، فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا ببنى قريظة. فتلاحق المسلمون، وخرج على بن أبى طالب بالراية، وكانت على حالها لم تُطوَ بعد. فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين، خارت قواهم وأيقنوا بالهلاك، فتبرءوا مما ارتكبوه من الغدر، وسألوا الرسول العفو، فأبى ذلك عليهم، وشدد الحصار خمسة وعشرين يوما حتى نزلوا على حكمه، وسألوا حلفاءهم الأوس أن يتوسطوا فى إطلاقهم، كما توسط الخزرج فى إطلاق حلفائهم من بنى قَيْنُقاع. فتواثبت الأوس وقالوا: يارسول الله! إنهم كانوا موالينا، فقال لهم الرسول: ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى! فقال: فذاك إلى سعد بن معاذ. فلما جىء بسعد وهو جريح، قالوا له: ياأبا عمرو! إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين، أن الحكم فيهم لمن حكم، فأجابوه، وأجابه الرسول: أن نعم! قال سعد: فإنى أحكم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء ليستعين بها المسلمون، فقال له رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم الله.

أثر جرح سعد فى نفس الرسول وفى نفس أمه وسائر المسلمين تأثيرا بالغا، فأمر الرسول بأن يضرب له فسطاط فى المسجد ليكون قريبا منه! وكان يعوده كل يوم مع أبى بكر وعمر وسائر المسلمين. ولما حكم فى بنى قريظة، انفجر جرحه، وسال دمه على رسول الله، فقال أبو بكر: وانكسار ظَهْرَاه! فقال له الرسول: مَهْ! فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. وفاضت روح سعد بن معاذ، فمات شهيدا بعد غزوة الخندق بشهر، وذلك فى السنة الخامسة للهجرة. ولما انصرف الرسول من جنازة سعد بن معاذ، انحدرت دموعه على لحيته وهو ممسك بها، وندبته أمه فقالت:

وَيلَ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدا براعةً ونَجْدا

وَيْلَ أُم سعدٍ سَعْدا صراحةً وجِدًّا

فقال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام : كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد .

كان سعد صاحب مقامات فى الإسلام ، وكان طويلا ضخما . قيل اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ ، وقيل إنه نزل من الملائكة فى جنازته سبعون ألفا ماوطئوا الأرض قبل ، وقال الرسول : لو نجا أحد من ضَغطة القبر ، لنجا منها سعد بن معاذ .

وأثر عن سعد بن معاذ أنه قال : ثلاث أنا فيهن : رجل (يعنى كما ينبغى) ، وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس : ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا قط إلا علمت أنه حق من الله عز وجل ، ولا كنت فى صلاة قط فشغلت نفسى بشىء غيرها حتى أقضيها ، ولا كنت فى جنازة قط فحدثت نفسى بغير ماتقول حتى أنصرف عنها : قال سعيد بن المسيب : هذه الخصال ما كنت أحسبها إلا فى نبى .

١١- سعد بن أبى وقاص

أول من رمى بسهم فى سبيل الله

يعد سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل من أبطال الجهاد فى الإسلام وهو أحد الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وآخر من توفى منهم ، وأول من أراق دما فى سبيل الله ، وأول من رمى بسهم فى سبيل الله، وهو أحد الستة من رجال الشورى . وهو الذى قال عنه الرسول الكريم : هذا خالى فليرنى امرؤ خاله .

أما سعد فهو ابن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن فهر بن النضر بن كنانة القرشى . فهو ابن عم آمنة أم الرسول بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ويجتمع نسبه هو وآمنه فى عبد مناف . وهو بذلك خال الرسول نسبا ، لأن أهل الأم أخوال . وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وقيل حمنة بنت عم أبى سفيان بن أمية . وبذلك يجمع سعد بين بيتين كريمين ، بيت هاشم ، وبيت عبد شمس اللذين كان لهما شأن عظيم فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

ولد سعد فى هذا البيت العريق من بيوت مكة ، من أبوين شريفين ، ونشأ كما ينشأ أبناء سراة مكة وأشرافها وأصحاب الرأى فيها . فلما أشرقت شمس الرسالة المحمدية ، وخرج الرسول إلى أهل مكة مبشرا ونذيرا ، كان سعد قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، فلبى نداء الإسلام ، ودخل فى دين الله . وقد روى عنه أنه قال: رأيت فى المنام قبل أن أسلم ، كأنى فى ظلمة لا أبصر شيئاً ، إذ أضاء لى قمر فاتبعته ، فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر ، فأنظر إلى زيد بن حارثة ، وإلى علىّ ابن أبى طالب ، وإلى أبى بكر . وكأنى أسألهم متى انتهيتم إلى ههنا ؟ قالوا : الساعة !

وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام مستخفيا ، فلقيته فى شِعْب « أجْياد » ، وقد صلى العصر ، فأسلمت ، فما تقدمنى أحد إلا هم . وبذلك يكون سعد أول من أسلم من الفتيان .

تمسك سعد بدينه الجديد ، وأنزله من نفسه منزلة رفيعة . ومما يؤيد ذلك ، أنه لما أسلم ، أتى أمه ، فقالت : ياسعد ! ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَيَّر بى . فقال : وكان من أبَرِّ الناس بأمه : لاتفعلى ياأمَّهْ ! فإنى لا أدع دينى . قال : فمكثت يوما وليلة لاتأكل ، فأصبحت وقد جهدَتْ ، فقلت : والله لوكانت لكِ ألف نفس فخرجتْ نفْسا نفسا ، ماتركت دينى هذا لشىء . فلما رأت ذلك أكلت وشربت ، فنزلت فى ذلك الآية الكريمة : (وإنْ جاهداكَ على أن تُشرك بما ليس لك به عِلمٌ فلا تُطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) .

وإذا كان تمسك سعد بدينه ، قد بلغ به هذا الحد الذى جعله يستعذب الردى فى سبيل عقيدته ، ويخوض المنايا ذَوْداً عن دينه ، ودفاعا عن رأيه ، فلا نعجب إذا رأيناه من أكثر الصحابة حَمِيَّة وأوفرهم حماسا . فقد كان أصحاب الرسول الكريم فى أول عهدهم بالإسلام ، إذا صلوا ، ذهبوا إلى الشِّعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينا سعد فى نفر من أصحاب الرسول فى شِعْب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم ، فاقتتلوا ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى(١) جمل فشجه ، فكان أول دم أريق فى الإسلام .

وقد ظهرت بطولة سعد فى أوضح صورها فى يوم أحد ، حين امتحن المسلمون فى دينهم ، فصمد سعد ، وصبر وصابر . روى أنه قال : كنا لنغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وما لنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السَّمُرْ . وقد بلغ من شدة بأسه فى القتال فى ذلك اليوم أن ناداه الرسول فقال : فداك أبى

---

(١) اللحى : عظم الحنك .

وأمى ! إرم أيها الغلام الحَزَوَّر (١) فقال على بن أبى طالب : ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبى وقاص .

كذلك شهد سعد بدرا والخندق ، كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أحد العشرة من سادات الصحابة الذين أخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى وهو عنهم راض .

انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وآلت الخلافة إلى أبى بكر ، ثم قبض أبو بكر وتمت البيعة لعمر بن الخطاب ، وكانت الجيوش الإسلامية قد أوغلت فى بلاد الفرس والروم ، فقد وجه أبو بكر جيشا إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المُثنى بنُ حارثة ، فانتصر على الفرس ، واستولى على الحيرة والأنبار . ولكن العرب ما لبثوا أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف ، الذى أعده يزدجرد الثالث ، آخر ملوك آل ساسان بقيادة رُستم ، وارتدوا إلى أطراف الصحراء ، وكادت جهود المسلمين تذهب هباء .

فلما ولى عمر الخلافة وزاد الاضطراب فى بلاد الفرس . كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك ، وما كان من جلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه ، وحثه على انتهاز هذه الفرصة . وكان عمر قد اطمأن من ناحية الروم بعد هزيمتهم فى أجنادين سنة ١٥ هـ ، فوجه همه لغزو العراق . ودعا الناس لغزوها ، وهوّن عليهم فتحها . وأراد أن يقود الجيوش بنفسه ، ولكن بعض الصحابة أشاروا عليه بأن يبعث رجلا من كبار الصحابة ، وأن يكون من ورائه يمده بالأمداد . فلما سمع عمر ذلك ، صعد المنبر وقال : « أيها الناس ! إنى كنت عازما على الخروج معكم ، وإنّ ذوى اللب والرأى منكم قد صرفونى نحو هذا الرأى وأشاروا بأن أقيم وأبعث رجلا من الصحابة يتولى أمر الحرب .

وقد ادخرت الأيام سعد بن أبى وقاص ، بطل « أحُد » وحبيب الرسول الكريم ، لينقذ كرامة العرب وكرامة الإسلام ، فاختاره عمر وأمّره على الجيوش المحاربة

---

(١) الغلام الحزور : اذا اشتد وقوي وخدم .

فى العراق ثم أوصاه بأن يترفق بالمسلمين فى سيرهم ، وأن يريحهم يوما وليلة فى كل جمعة ، وأن يذكى العيون بينه وبين العدو ، وأن يتخذ من قواده من يطمئن إلى نصحه .

وقد أعار سعد هذه النصيحة أذنا مصغية ، فجعل ينتقل فى الأراضى التى بين الحجاز والكوفة ، يستمع الأخبار ، ورسل عمر توافيه ، وكتبه تأتيه ، يشير فيها بآرائه ويمده بالجنود . ثم التقى سعد برستم عند القادسية ، وكانت باب العراق ، فى جيش يبلغ ثلاثين ألفَ مقاتل ، على حين كان جيش سعد يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف. وكان الفرس يضحكون من نَبْل العرب ويشبهونها بالمغازل . وقد بعث سعد قبل بدء المعركة إلى رستم برسالة هذا نصها : إنّ الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فسعدنا بإجابته واتباعه ، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا . ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنْ فعلتَ ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، فقال رستم : والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غدا حتى نقتلكم أجمعين ، فقال رسول سعد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وكأنه سخر من رُستم حين اغتر بقوته ، ولم يعبأ بما خبأته الأقدار .

وخاض سعد المعركة ، فخرج منها مظفرا منتصرا ، فأوقع بالفرس ، وأسر إحدى بنات كسرى ، وقتل عددا كبيرا من جنود رستم ، فاعتنق الإسلام دهاقين الفلاليج والنهرين وبابل ونهر الملك وكوثى وغيرهم .

ثم كتب سعد إلى عمر يبشره بالفتح ، فكتب إليه : قف مكانك ، ولا تتبعهم ، واقنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بينى وبينهم بحرا . فاختط سعد الكوفة ، وبعث سلمان الفارسى وحُذيفة بن اليمان يرتادان له موضعا تتوافر فيه هذه الشروط ، فوقع اختيارهما على مكان غربى الفرات ، على مقربة من الحيرة . وأقر الخليفة عمر هذا الاختيار ، فنزل سعد بجنده فى الكوفة ، وذلك فى المحرم سنة ١٧ هـ . وقد عسكر جند العرب فى الخيام أولا ، ثم بنوا بيوتا من القصب . وسرعان ما أتت عليها النار ، فأمر عمر بأن تبنى الدور

باللبن ، فاختط أبو الهياج بن مالك الأسدى شوارعها وأزقتها ، وأسس بها جامعا ، وبنى فى مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام . وجعل العرب المسجد فى وسط المدينة ، حيث تفرعت الطرق والدروب ، وبنى فى نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبى وقاص ، واتخذ فيها بيت المال . وأصبحت الكوفة قصبة العراق ، وأعظم مراكز العلم والسياسة والحرب فى البلاد الإسلامية .

ثم توغل سعد فى بلاد العراق ، واستولى على « المدائن » حاضرة بلاد الفرس ، بعد أن حاصرها شهرين ، وغنم العرب منها غنائم كثيرة ، من بينها بساط كسرى ، وفر يزدجرد إلى حلوان ، وحمل معه أمواله ، وذلك كله بفضل عبقرية سعد فى وضع الخطط ، وتسيير دفة الحرب ، وما أوتيه من ضروب المهارة ، حتى أصبح إتمام الفتح مهمة سهلة أمام العرب .

ولما أشرف عمر بن الخطاب على الموت ، جعل سعد بن أبى وقاص أحد أصحاب الشورى الستة وقال : « إن وَلى سعد الإمارة فذاك ، وإلا فأوصى الخليفة بعدى أن يستعمله ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة » . فلما تمت البيعة لعثمان بن عفان ، عرف لسعد بن أبى وقاص فضله وإخلاصه فى خدمة الإسلام والمسلمين ، فولاه الكوفة ، وأطلق يده فى شئون العراق ، لأنه أبصر بشئونها ، وأقدر على تنظيم أمورها بعد إتمام فتحها .

ثم قتل عثمان ، واندلعت ألسنة الفتنة فى العالم الإسلامى ، فوقف سعد بن أبى وقاص من الطوائف المتحاربة المتناحرة موقف المحايد ، فلزم بيته ، لأن أطراف النزاع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخشى أن ينحاز إلى فريق فيغضب الفريق الآخر ، فأراد أن يحتفظ بصداقتهم أجمعين ، فزهد فى الخلافة ، وانقطع إلى الصوم والصلاة . فلما أراد ابنه عمر وابن أخيه هاشم بن عتبة أن يدعو إلى نفسه بالخلافة بعد مقتل عثمان ، أبى وامتنع ، فطمع فيه معاوية ، وكتب إليه أن يعينه على الطلب بدم عثمان ، فأجاب سعد بهذه الأبيات :

مُعَاوِىَ داؤكَ الداءُ العُيَاءُ　　وليس لِمَا تجىءُ به دَوَاءُ

أيدْعونى أبو حسنٍ علىّ فلم اردد عليه مايشاء
وقلتُ له أعطِنى سَيْفاً قَصيرا تميزُ به العداوةُ والوَلاء
أتَطمَعُ فى الذى أعيا عليًّا على ماقد طَمِعْتَ به العفاء
ليوم منه خير منك حيا وميتاً أنتَ للمرء الفداء

من هذا يتبين كيف أن سعد بن أبى وقاص ، قد جمع بين عطفيه أنبل الخلاق وأكرم الخصال : طيبُ المنبت، ذكىُّ الفؤاد ، ثابتُ الجنان ، مقداما ، صوّاما، قواما . إذا اشترك فى الحرب ، اشتد على العدو ، ونافح عن الدين ، وذبّ عن الرسول . وقد ظهرت هذه الخلال الحميدة فى جميع الغزوات التى شهدها سعد فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما ظهرت فى المعارك الدامية التى خاض غمارها جند المسلمين ، نعم ! إن سعد بن أبى وقاص قد تجمع فيه كثير من الخصال .

قال أبو المنهال : سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب عن خبر سعد ابن أبى وقاص فقال : متواضع فى خبائه ، عربى نمرته (١) ، أسد فى تاموره ، يعدل فى القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد فى السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرّة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

ولعمرى إن هذه لخصال القادة الفاتحين الذين خلد التاريخ ذكراهم على مر السنين. فقد كان سعد القائد يعطف على جنوده عطف الأم على أبنائها ، حتى يكسب قلوبهم فيحبوه ، وإذا أحبوه أخلصوا له، واذا أخلصوا له ، كتب لهم النصر من عند الله .

كان سعد لا يفرق بين صغير أو كبير ، ولا بين عجمى ولا عربى ، الجميع سواسية كأسنان المشط . من تفوق فى القتال وفنى فيه ، نال الغنم الأكبر والشرف الأعظم .

كان سعد بن أبى وقاص من سراة العرب : قيل إنه ابتنى داره بالعقيق ، ووسع

---

(١) النمرة كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب .

فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات . وقد ذكر المؤرخون أن عثمان بن عفان أقطع سعد بن أبي وقاص قرية هرمز .

روى سعد كثيراً من الأحاديث عن الرسول . وروى عنه أولاده : إبراهيم وعامر ومصعب وعمر وعائشة ، ومن الصحابة : عائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عباس وعبدالله بن عمر ، ومن كبار التابعين : سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وقيس بن أبي هازم وعلقمة والأحنف بن قيس .

وقد أسلم سعد وطلحة والزبير وعلى فى سنة واحدة ، ولذا كان سهمهم واحدا. وكان سعد مستجاب الدعوة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم استجب لسعد إذا دعاك ،فكان لايدعو إلا استجيب له . وقد روى أن أسعد أصحاب الرسول أربعة : عمر ، وعلى ، والزبير ، وسعد . وكان سعد من أحدّ الناس بصرا . رأى ذات يوم شيئا يزول ، فقال لمن معه . ترون شيئا قالوا : نرى شيئا كالطائر ، قال أرى راكبا على بعير ، ثم جاء بعد قليل عم سعد على بعير ، فقال سعد : اللهم إنا نعوذ بك من شر ماجاء به .

ثم شاء الله أن يختم هذه السيرة العطرة ، فحضرت سعد بن أبي وقاص الوفاة، فدعا بخَلق جبة له من صوف فقال : كفنونى فيها ، فإنى كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى علىّ ، وإنما كنت أخبئها لهذا . وقيل إن تركته كانت مائتى ألف درهم وخمسين ألف درهم.وتوفى سعد سنة خمس وخمسين للهجرة (وقيل سنة أربع وخمسين ، وقيل سنة ستة وخمسين ،وقيل سنة ثمان وخمسين) وله من العمر اثنتان وسبعون سنة .

١٢ – خالد بن الوليد

«سيف الله»

نسوق إلى القارىء سيرة بطل من أشهر أبطال العرب والمسلمين، وقائد من أعظم قواد الفتوح الإسلامية، ظل يجاهد فى سبيل الله ونصرة دينه، حتى انتقل إلى جوار ربه، ذلك هو سيف الله خالد بن الوليد.

كان خالد من أشراف قريش فى الجاهلية والإسلام: فأبوه الوليد بن المغيرة ابن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية، وأخت ميمونة بنت الحارث زوج الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم الرسول. وبذلك ينحدر خالد من أشرف البيوتات العربية، فهو ينتسب إلى الرسول، وإلى عمه العباس وإلى بنى مخزوم وبنى هلال.

نشأ خالد مع أبناء الأشراف فى مكة، وكانت مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية، يفد إليها العرب من كل حَدَب وَصوْب، أيام الحج والمواسم، فيتناقلون الآداب الاجتماعية، ويتناشدون الأشعار الحماسية، ويتحدثون بكرم أصلهم وشرف محتدهم، فتغرس كل هذه المظاهر فى نفوس أطفالهم، المواهب النادرة، والخصال الكريمة، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمى الغايات.

ونشأ خالد كما نشأ فتيان الطبقة الراقية فى قريش، فتعلم الفروسية، وعرف بين قومه بالنجدة والبأس، وقدر له قومه مواهبه وكفايته، فأسندوا إليه «القُبَّة»، وكانوا يضربونها ويجمعون فيها مايجهزون به الجيش، كما عهدوا إليه الإشراف على أعنة الخيل وقيادة الفرسان: فكان بذلك المقدم على خيول قريش فى الحروب.

فلما ظهر الإسلام، وأصبح شيوخ قريش وشبابها من أشد الناس عداوة له، كان خالد ممن ناصب هذا الدين العداء. ففى غزوة أحد، انتهز خالد مخالفة المسلمين وصية الرسول إياهم بالثبات فى أماكنهم حتى يعلن هو انتهاء القتال، وتحين خلو الجبل من الرماة، وأتى المسلمين من خلفهم، وأعمل الرماح فى ظهورهم، وقلب نصرهم هزيمة. ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وتلقى المؤمنون فى هذه الموقعة أنفع الدروس وأبعدها أثرا فى حياتهم المستقبلة.

وهكذا ظل خالد على عدائه للإسلام، حتى إن الرسول لما خرج فى السنة السادسة للهجرة للعمرة، وهى زيارة البيت الحرام فى غير موسم الحج، وقف القرشيون فى طريقه يمنعونه من دخول مكة. وقد قيل إن خالدا كان على خيل المشركين فى ذلك الوقت. وقد تم الاتفاق بين قريش والرسول على أن يرجع هذا العام من غير عمرة، ثم يأتى فى العام التالى، فيدخل مع أصحابه مكة، بعد أن تخرج منها قريش، ويقيمون بها ثلاثة أيام، ليس معهم من السلاح، إلا السيوف بالقُرُب، أى الأغماد.

كان هذا الاتفاق فى الواقع نصرا للمسلمين، فقد أدركت قريش أن أمر الإسلام ظاهر لا محالة، وكان المسلمون واثقين من وعد الله إياهم بفتح مكة، وأدرك خالد أن انتصار المسلمين قد تكرر، وأن أمره قد عظم فى جميع البلاد العربية، فقتلت سادات قريش، ومات ذوو الحلم فيها، كما أدرك أن أمر الإسلام سينتهى بالظفر، وأن سقوط مكة قريب.

لذلك أسرع خالد، فأدرك الفرصة قبل فواتها، وعقد النية على الدخول فى الإسلام، ووقف فى قريش يقول: «لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين؛ فحق على كل ذى لب أن يتبعه.» وفزع عكرمة بن أبى جهل لما سمع، فرد قائلا: لقد صبوت ياخالد! فقال خالد: لم أصْبُ، ولكنى أسلمت، فقال عكرمة: والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت. فقال خالد: ولم؟ فقال عكرمة: لأن محمدا وضع

شرف أبيك حين جرح ، وقُتل عمك وابن عمك ببدر ! فوالله ما كنتُ لأسلم ولأتكلم بكلامك ياخالد . أما رأيت قريشا يريدون قتاله ؟ فقال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها ، لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق ؛ وبعث خالد للنبى بأفراس ، كما بعث إليه بإقراره بالإسلام .

ولقد لقى خالد عمرو بن العاص ، وهو مقبل من مكة يريد المدينة المنورة ، فقال عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام المنسِم ، وإن الرجل لنبى ، أذهبُ والله أسلم ، فحتى متى ؟ فقال عمرو : والله ماجئت إلا لأسلم . فقدما على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتقدم خالد ، فأسلم وبايع ، ثم دنا عمرو فأسلم وبايع .

كان خالد علما من أعلام الإسلام ، كما كان علما من أعلام الشرك من قبل ، ومازال بعد إسلامه موضع ثقة الرسول ، حتى إنه كان يوليه أعِنةَ الخيل ، فيكون فى مقدمتها . بعث الرسول إلى الغساسنة ، وكانوا من العرب الضاربين على حدود الشام ، رسولا يدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوه ، فأنفذ إليهم فى السنة الثامنة للهجرة ، جيشا يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، بقيادة مولاه زيد بن حارثة ، فلقيته جموع هرقل إمبراطور الروم عند مؤْتة ، وهى قرية من قرى البلقاء على حدود الشام . فأبلى زيد بلاء حسنا فى الجهاد ، حتى استشهد فى سبيل الله ، فتولى إمرة المسلمين عبد الله بن أبى رواحة ، فاستشهد ، فخلفه جعفر بن أبى طالب ، فلحق به ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، فأبلى فى الجهاد ، حتى قال : لقد اندق يومئذ فى يدى سَبعة أسياف ، فما ثبت فيها إلا صفيحة يمانية .

وقد نزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ، بخبر من استشهد من القواد فى هذه الغزاة ، فصعد المنبر ، وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه فى قيادة الجيش ، إلى أن قال : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ، خالد ابن الوليد ، ففتح الله عليه : فسمى خالد «سيف الله» .

ولما نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم وبين الرسول فى السنة السادسة

للهجرة ، وأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين ، استجارت هذه القبيلة بالرسول ، فساروا إلى مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، فى عشرة آلاف من المسلمين ، وكان خالد على جناح المسلمين الأيمن ، وقد أمره الرسول أن يدخل مكة من أسفلها ، فأبلى فى القتال بلاء حسنا ، حتى إنه لم يقتل من جنده إلا اثنان .

ومازال الرسول عليه الصلاة والسلام يستعين بخالد ، فأرسله إلى بنى جَذيمة من بنى عامر بن لؤى . وكان خالد على مقدمة جيش المسلمين فى غزوة حنين (سنة ٨ هـ) ، فجرحَ فيها ، فعاده الرسول ، فنفث فى جرحه ، فبرأ . كما أرسله عليه الصلاة والسلام إلى أكيدِر بن عبد الملك صاحب دُومة الجَندَل ، فأسره وساقه إلى الرسول ، فصالحه على الجزية . ثم أرسله فى السنة العاشرة من الهجرة إلى بنى الحارث بن كعب ، فأسلموا على يديه .

هكذا حسن إسلام خالد ، فجاهد فى سبيل الله ، واشتد تعلقه برسول الله ، حتى لقد قيل إن الرسول حلق شعره فى إحدى عُمَراته . فاستبق الناس إلى شعره ، فسبق خالد إلى الناصية فأخذها ، واتخذ قلنسوة جعل هذه الناصية فى مقدمتها ، وأخذ يتبرك بها فى حروبه . فما خاض معركة إلا ارتدى القلنسوة ، التماسا لبركة الرسول ، وتفاؤلا بالنصر والظفر . روى ابن حجر أن خالدا فقد هذه القلنسوة فى يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ! فلم يجدوها ، وإذا بها خلفه . فلما سئل عن سبب اهتمامه بهذه القلنسوة ، قال : اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الناس شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ؛ فلم أشهد قتالا وهى معى ، إلا تبيّن لى النصر .

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وبويع أبو بكر بالخلافة ، وقامت حروب الردة التى كادت تمزق وحدة العرب وتفرق كلمتهم وتزعزع دينهم ، كان خالد فى مقدمة الذين استعان بهم أبو بكر من أشراف العرب وساداتها وذوى الرأى فيها ؛ فسيره لقتال مسيلمة الكذاب فى اليمامة . فدعاه خالد للمبارزة عسى

أن يقضى على رأس تلك الفتنة ويخمد جذوتها . ولكن مسيلمة لم يستطع صبرا أمامه ، فولى هاربا ، وحمل المسلمون على أصحابه فهزموهم . كذلك سير أبو بكر خالدا لقتال طُلَيْحة بن خُوَيْلد ، الذى ادعى النبوة فهزمه . ولما فرغ من قتاله ، سار إلى مالك بن نوَيرة ، وأحلّ به الهزيمة وقتله .

وقد اختلف الناس فى قتل خالد مالكا بن نويرة ، وأنكر عليه عمر بن الخطاب هذا العمل ، حتى كان ذلك من أهم الأسباب التى تذرع بها لعزل خالد عن قيادة جيش المسلمين فى الشام .

ذلك أن أبا بكر لم يكد ينتهى من حروب الردة التى شنها على العرب المارقين ، حتى أرسل الجيوش لفتح البلاد ونشر الإسلام ، فوجه إلى أطراف العراق جيشا بقيادة خالد بن الوليد ، ومعه المُثَنَّى بن حارثة الشيبانى ، فأخضع القبائل العربية التى كانت تقيم جنوبى نهر الفرات . وانتصر خالد على الفرس ، واستولى على الحيرة والأنبار . ومازال لواء النصر معقودا له ، حتى وافاه كتاب أبى بكر : « أن سِرْ حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشْجُوا ، فليهنأك أبا سليمان النية والحظوة ، فأتمم يُتْمِمْ الله لك ولا يدخلنك عجب ، فتخسر وتُخْذل ، وإياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المنّ ، وهو ولى الجزاء » .

ولما كانت انتصارات المسلمين تتوالى فى العراق ، وصلت أنباء الشام بأن أبا عبيدة بن الجراح لم يقو على مدافعة الروم ، فاستنجد أبو بكر بخالد ، وسيره لمساعدة جيوش المسلمين فى هذه البلاد . فولى خالد المثنى بن حارثة جند المسلمين فى العراق وسار هو على رأس جيش كبير من أهل الشجاعة والنجدة ، حتى وصل إلى بُصْرى . وكان أبو عبيدة قد أنفذ شُرَحبيل بن حسنة إليها ، فلم يقو على هزيمة الروم ، ولم ينج المسلمين إلا حضور خالد ، الذى استولى على المدينة بمعونة واليها « رومانوس » الذى اعتنق الإسلام ، وسلم المدينة للمسلمين ، بعد أن دلهم على الدخول إليها من سرداب تحت سورها .

على أن خالدا سار إلى الشام كارها ، واعتقد أن عمر بن الخطاب سعى لدى

أبى بكر لإقصائه عن العراق حتى لا يتم فتحها على يديه . فقد قال عندما جاءه كتاب أبى بكر : «هذا عمل الأعيْسِر بن أم شمْلة ، يعنى عمر بن الخطاب ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » .

واشترك خالد فى معركة اليرموك ، التى اشتركت فيها جيوش المسلمين الأربعة ، وكانت تتألف من أربعين ألف مقاتل ، لمحاربة جيوش الروم التى كانت تربى على مائة وأربعين ألف مقاتل ، وأدرك خالد المسلمين وهم يقاتلون الروم متساندين ، فرتب الجيش ، وجعل أبا عبيدة فى القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ، ويزيد ابن أبى سفيان على الميسرة . ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين ، ولم يخيِّب خالد رجاء أبى بكر الذى قال فيه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وبينما كان العرب يقاتلون الروم فى اليرموك أتاهم نعى أبى بكر وتولية عمر الخلافة ، وكان لا يزال يذكر لخالد موقفه من مالك بن نويرة ، فعزله عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة . غير أن أبا عبيدة ، استحيا أن يقرأ خالد الكتاب حتى فُتحت دمشق ، وجرى الصلح على يديه ، وكتب الكتاب باسمه .

ولكن خالدا لم يكن بالرجل الذى يتمرد على خليفة رسول الله ، أو يعترض على أمره ، حرصا منه على وَحْدَة المسلمين حتى ينصرفوا إلى جهاد العدو ، ابتغاء مرضاة الله ونصرة الدين . فلما قرأ كتاب عمر قال : « ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين » ، وحارب تحت إمرة أبى عبيدة جنديا من جنود الإسلام .

على أن بعض المسلمين لم ير رأى عمر فى عزل خالد عن القيادة ، فقد قال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة لعمر : « عزلت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضبا لابن عمك » .

وقد ذكر الزبير عن أسباب عزل خالد : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه فى أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبى بكر حسابا . وكان فيه تقدم على أبى بكر ، يفعل

أشياء لا يراها أبو بكر . أقدم على قتل مالك بن نويرة ، وتزوج امرأته ، فكره ذلك أبو بكر ، ولم ير أن يعزله . وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد . . . قال عمر لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرك ، فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك ؛ فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : فمَن يجزى عنى جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا . فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر فى الدار ، فمشى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر ، فقالوا : ماشأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ وما بالك عزلت خالدا وقد كفاك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ، ففعل . فلما قبل عمر ، كتب إلى خالد ألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبى بكر ، فقال عمر : ماصدقت والله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر ، فلم أنفذه ، فعزله .

وقد قيل إن عمر عزل خالد بن الوليد ، لأنه كان يخشى أن يفتتن الناس به وأنه عزم على أن يوليه بعد أن يرجع من الحج ، لولا أن المنية وافته سنة إحدى وعشرين للهجرة ، وقيل إنه توفى بحمص ، وقيل بالمدينة المنورة .

وهكذا أسلم خالد وحسن إسلامه ، وأخلص للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى جل حياته فى الجهاد ، حتى لقد شغله الجهاد عن تعلم كثير من القرآن .

ولما حضرت خالدا الوفاة قال : لقد طلبت القتل مظانة فلم يقدَّر لى إلا أن أموت على فراشى ، وما من عمل أرجى عندى بعد أن لا إله إلا الله أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين . وأثر عن خالد أيضا أنه قال : ماليلة يُهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام ، أحبّ إلى من ليلة شديدة الجليد . ثم قال : إذا أنا مِتّ ، فانظروا فى سلاحى وفرسى ، فاجعلوه عُدة فى سبيل الله .

وخرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشيع جنازة سيف الله ، فإذا أمه تندبه وتقول :

أنْت خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ
مِ إذا ما كُبَتْ وجوه الرجالِ

فقال عمر : صدَقت والله ! إنه كان لكذلك ، ماعلى نساء آل الوليد أن يسفحن دموعهن على خالد مالم يكن نقْعا . روى ابن حجر أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة ، أوصى إلى عمر بأن يتولى وصيته ، وسمع عمر راجزا يذكر خالدا ، فقال : رحم الله خالدا ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

لا أعرفنّك بعد اليوم تَنْدُبُنى
وفى حياتى ما زَوّدْتَنى زادى

فقال عمر : إنى ماعتبت على خالد إلا فى تقدمه وماكان يصنع فى المال .

١٣ عمرو بن العاص

« أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص »

من أشهر أبطال العرب والمسلمين وأعظم قواد الفتوح الإسلامية ، عمرو ابن العاص .

كان عمرو بن العاص من بنى سهم ، أصحاب الحكومة فى قريش ، وقد نشأ مع أبناء الأشراف فى مكة ، التى كانت - كما نعلم - مركز حركة الحجاز التجارية والأدبية ، يفد إليها العرب من كل صوب وحدب ، فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم عن بعض ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ، فتغرس هذه المظاهر فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة ، والقرائح الوقادة ، والخصال الكريمة .

وعلى الرغم من أنه لم يكن لقريش قدم ثابتة فى القراءة والكتابة ، نشأ عمرو كاتبا قارئا . وقد ولع بالتجارة منذ نعومة أظفاره ، مما زاد فى ثقافته واتساع أفق عقله .

وكان عمرو من هؤلاء العرب الذين رأوا الوثنية فى قوتها وفى ضعفها . وألفوا الإسلام يظهر ويقوى ويتغلب على غيره من العقائد شيئا فشيئا . على أن عمرا قاوم هذا الدين الجديد ، وكان من أشد القرشيين عداوة للإسلام ، فكان أحد الرسل الذين أوفدتهم قريش إلى النجاشى ليردّ من هاجر إلى بلاده من القرشيين إلى مكة ، ولكنه لم يلبث أن عقد النية على الدخول فى الإسلام ، وخرج إلى المدينة ، فلقيه خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة ، فقدما معا على الرسول ، فتقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنا عمرو فقال : يارسول الله ! إنى أبايعك على أن تغفر لى ماتقدم من دينى ، ولا أذكر ماتأخر ، فقال الرسول : ياعمرو ! بايع ؛ فإن الإسلام يجبُّ ماقبله وإن الهجرة تجب ماقبلها .

أسلم عمرو ، وحسُنَ إسلامه ، وأخلص لدينه الجديد ، وكان إيمانه إيمانا قويا. واغتبط المسلمون باعتناق عمرو الإسلام ، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ؛ كما اغتبط الرسول بشجاعته ودهائه ، وأصبح موضع ثقة الرسول ، فولاه قيادة سَرِيّة ذات السلاسل ، التى كان بين رجالها خيرة المسلمين ؛ كأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة بن الجراح . كذلك أرسله الرسول الكريم فى سرية لهدم « سُواع » ، وهو صنم لهُذَيل ، وولاه الصدقة بعُمَان التى أسلم أهلها بعد أن كانوا يدينون بالمجوسية ، فوطد دعائم الإسلام فيها ، وبقى واليـــاً على صدقتها ، حتى انتقل الرسول إلى جوار ربه .

ولما بويع أبو بكر الصديق بالخلافة ، وقامت حروب الردة الطاحنة التى كادت تمزق وَحْدة المسلمين ، كان عمرو بن العاص فيمن استعان بهم أبو بكر من أشراف العرب ، كما قام بدور هام فى إخضاع قبيلة قُضاعة ، وأرغمهم على أداء الزكاة والرجوع إلى الإسلام. ولم يكد أبو بكر ينتهى من حروب الردة التى شنّها على العرب ، حتى أرسل الجيوش لفتح بلاد العراق ، وأرسل أربعة جيوش لغزو الشام وفلسطين ؛ وعقد لعمرو بن العاص اللواء على الجيش الذى سيّره لفتح فلسطين ، فتوالت انتصاراته على الروم فى جميع المواقع التى خاض غمارها . وكان لما أظهره عمرو من ضروب البسالة فى يوم اليرموك وفى أجنادين وبيت المقدس وغيرهما أثر كبير فيما أحرزه المسلمون من نصر مؤزر على جيوش الروم .

وقد أظهرت هذه الانتصارات الباهرة ، التى أحرزها عمرو فى حروب الشام وفلسطين للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مقدار شجاعة عمرو وحزمه ، فأذن له الخليفة بفتح مصر ، برغم ما كان يحيط بهذا المشروع الخطير من صعاب . وكان عمرو من الأفراد القلائل الذين استطاعوا فهم نفسية الشعوب التى غلبها الروم على أمرها . ولا عجب فقد رأى فى فتح مصر وسيلة لتثبيت قدمه فى بلاد الشام وفلسطين . فلم يكن بدٌّ إذن من القضاء على الروم فى مصر والمغرب كما

ساعد على القضاء عليهم فى حروب الشام وفلسطين. هذا إلى أن ثروة مصر قد حفزت العرب على فتحها، ووقف عمرو على ذلك فى الجاهلية عند زيارته لها، فرأى أنه إذا فتح هذه البلاد، استطاع أن يستغلها لمصلحة العرب والإسلام. وكان القبط يكرهون الروم، لإثقالهم بالضرائب، واختلافهم وإياهم فى العقائد الدينية، وحرمانهم من الحقوق المدنية. وسرعان ما اخترقت جيوش عمرو — التى لم تتجاوز أربعة آلاف — الصحراء، وسار إلى حصن بابليون وحاصره وقت فيضان النيل، وطلب المدد من الخليفة عمر، فأمده بأربعة آلاف، على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم، وهم : الزبير بن العوام، والمقْداد بن الأسود، وعُبادة بن الصامت، ومَسلمة بن مخُلد.

ثم فتح عمرو حصن بابليون، وسار إلى الإسكندرية، وكانت حاضرة الديار المصرية فى ذلك الحين، وأغنى مدن العالم وأوفرها ثروة وأوسعها تجارة، فأخرج الروم منها وأزال سلطانهم من هذه البلاد. وقد رأى عمرو ببعد نظره أن يؤمِّن حدود مصر الغربية بفتح برقة، إذ كان يُعدها امتدادا طبيعيا لمصر، كما مد نفوذ العرب إلى بلاد النوبة لتأمين حدود مصر من ناحية الجنوب، وأصبح بحيث يستطيع التفرغ لإصلاح البلاد.

ويرجع انتصار المسلمين على الروم إلى شجاعة عمرو وإقدامه. ولا عجب فقد ضرب لجنده المثل الأعلى فى التضحية، وكان سباقا إلى حرب عدو يفوقه عددا وعدة. وكان البطل العربى المؤمن، يقود جنده، ويثير فى نفوسهم الشجاعة والتضحية.

لم تعد مدينة الإسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية، فلم يكن بد إذنْ من اتخاذ الحاضرة الجديدة فى نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب. لذلك وقع اختياره على موضع الفسطاط، لقربها من النيل والجبل والمزارع. وإلى الشمال من حصن بابليون أسس عمرو أول مسجد بنى فى مصر الإسلامية، وهو المسجد العتيق

المعروف الآن بجامع عمرو . ولم يلبث أن أصبح جامع عمرو مركز الحركة السياسية والاجتماعية فى مصر ، وكان أشبه بناد يجتمع فيه المسلمون ويتخذه علماء التفسير والحديث مقرا لهم .

كذلك أعاد عمرو حفر الخليج الذى كان يصل النيل بالبحر الأحمر ، وعُرف فيما بعد باسم خليج أمير المؤمنين ، نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم عرف باسم خليج القاهرة بعد أن تأسست مدينة القاهرة على يد جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

وقد وجه عمرو بن العاص همته إلى تنظيم الجيش ، فأنشأ له ديوانا يُشرف على شئون الجند الذين لم يتجاوز عددهم بعد فتح حصن بابليون ١٦٫٠٠٠ . وكانت ولاية عمرو عامة ؛ إذ كان يشرف على القضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة. كما نظم القضاء على وَفْق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء ، وقسم البلاد المصرية إلى كور ، وعَين على كل منها قاضيا قبطيا يفصل فى النزاع الدينى والمدنى لغير المسلمين وَفْق شرائعهم . أما إذا حدث نزاع بين عربى وقبطى ، تقدم المتقاضون إلى مجلس مؤلف من قضاة من الطرفين المتنازعين . ولا عجب فى ذلك فان من أهم مبادىء الدين الإسلامى : التسامح الدينى ، والمساواة بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة .

وكانت معاملة عمرو للقبط تدل على كثير من التسامح . ولا غرو فقد أمدُّوه بالمساعدة ، ويَسَّروا له مهمة الفتح ، فأحبَّهم وأقام العدل بينهم ، ونظر فى عمران بلادهم ، فتألف بحسن سياسته قلوب المصريين عامة والقبط خاصة ، حتى صاروا له أعوانا وللمسلمين إخوانا ، وتمتعوا بالهدوء والطمأنينة ، وتخلصوا من عسف الروم وظلمهم ، حتى إن البطريق بنيامين عبر عن ارتياحه بقوله : « لقد وجدت فى مدينة الإسكندرية الطمأنينة التى كنت أنشدها بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون .

ولم يرهق عمرو المصريين بالضرائب ، وسار معهم وفق شروط الصلح ، فلم

تتجاوز جزية الرءوس دينارين (١) فى السنة، كما راعى فى جباية الأموال حالة النيل من حيث النقص والزيادة، مما اضطره إلى تأجيل دفع الخراج أحيانا. وترك عمرو لأهل القرى الحرية فى تحديد خراجهم. كما أباح لهم أن يحجزوا بعض المال لتعمير كنائسهم. وكانت الأموال التى تجبى من كل قرية تجمع على أيدى أهلها. لذلك قالوا: الجزية جزيتان: جزية على رءوس الرجال، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية. وكانت هناك ضرائب عينية تفرض على ما تغله الأرض.

لم يكد عثمان بن عفان يلى الخلافة حتى عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولاها عبدالله بن سعد بن أبى سرح. وعلى الرغم من عزل عمرو عن ولايته، كان عثمان يستشيره فى أمور الدولة، كما استشاره فى الفتنة التى انتهت بقتله، فأسدى عمرو النصح له برغم حقده عليه. على أن بعض المؤرخين يقول إن عمرو بن العاص كان يطعن على عثمان ويعمل على خلعه، وأنه فارق أخته لأمه حين عزله عن ولاية مصر.

ومن عجب أن ينضم عمرو إلى معاوية بن أبى سفيان حين طلب بدم عثمان. وقد قيل إنه كان يطمع فى ولاية مصر، وإن ذلك لن يتحقق له إلا بانضمامه إلى معاوية. وقد أظهر عمرو ضروب الحيل حين كادت الهزيمة تحل بجيش معاوية فى موقعة صفّين، فنادى عمرو برفع المصاحف على أسنّة الرماح، وانطفأت شعلة الحماسة فى جند على، ورغب بعضهم فى الموادعة وقالوا: هذا كتاب الله بيننا وبين معاوية. ورغب آخرون فى مواصلة الحرب وأيقنوا أن ذلك خدعة، واضطر علىّ إلى وقف القتال ونجحت حيلة عمرو.

ويدل موقف عمرو فى مسألة التحكيم على حنكته السياسية؛ فقد غرّر بأبى موسى الأشعرى ودفعه إلى الإقرار بعزل علىّ، وجعل الأمر شورى للمسلمين، كما جعله يعلن أحقية معاوية فى الأخذ بدم عثمان، وبين له أن مصلحة المسلمين

(١) الدينار يساوى نصف جنيه مصرى تقريبا.

تقتضى عزل علىّ وعزل معاوية ، مع أن معاوية لم يبايعه أحد من المسلمين. وأخيرا اتفق كل من عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى على أن يعزل كل منهما صاحبه؛ فعزل أبو موسى عليا ، وثبت عمرو صاحبه معاوية ، وعاد أهل الشام منتصرين ، وعاد جند على منهزمين ، لا بالسيف ولكن بالخديعة . ثم عمل عمرو على استرداد ولاية مصر ، وانضم إليه العثمانية أنصار عثمان بن عفان بمصر ، وهزم جيش على ، وأسر محمد بن أبى بكر وكان قد ولى مصر من قبل على ، وأقر معاوية عمرو بن العاص على ولاية مصر ، وأعطاها له طعمة ، على أن يدفع أرزاق الجند والموظفين وما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح ، ويبقى لنفسه ما بقى من الأموال.

يعد عمرو بن العاص من أعلام المسلمين ، فقد تجلت سجاياه ومواهبه فى فتوحه الواسعة ، وفى إدارته التى اتسمت بالحزم والعمل على إصلاح البلاد التى وليها وترقية شئونها.

اشتهر عمرو بن العاص بالفصاحة ، حتى كان عمر بن الخطاب يقول إذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه : « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد». وتتبين لنا بلاغة عمرو من ذلك الكتاب الذى أرسله إلى الخليفة عمر ، يصف فيه مصر ، ويشرحُ له السياسة التى عزم على انتهاجها فيها . ومن هذا الكتاب :

« اعلم يا أمير المؤمنين أنّ مصر تربةٌ غَبْراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يَخُطُّ وَسَطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويَكْثُرُ فيه ذبابه ، تُمِدُّه عيون الأرض وينابيعها . . »

وإن هذه الخطبة الرائعة التى خطبها عمرو فى جامعه ، لتمثل لنا رجلا ناصحا لرعيته حريصا على الاستمساك بسياسة عمر بن الخطاب . وهى خطبة طويلة يحث فيها المسلمين على أن يستمتعوا بلذات الحياة من غير إسراف ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ونصرة الإسلام ، وعلى الاعتناء بالخيل كأنه كان يضمر حربا أخرى يحاول فيها فتح برقة التى كان يعتبرها امتدادا طبيعيا لمصر (١). وهاك إحدى هذه الخطب عن

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ص ١٣ - ١٤

ابن عبدالحكم ، «عن سعيد بن ميسرة المعافرى قال :

رحت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة وذلك آخر الشتاء بعد خميس النصارى بأيام يسيرة ، فأطلنا الركوع ، إذ أقبل الرجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت فقلت . يا أبت!من هؤلاء ؟ قال : يابنى!هؤلاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا رَبعة قصير القامة وافر الهامة ، أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ، فحمد الله وأثنى عليه حمدا موجزا وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم . ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ؛ فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال فقال :

يامعشر الناس ! إياكم وخلالا أربعا فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة . إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال، وتضييع المال ، والقيل بعدالقال، فى غير درك ولانوال . ثم لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها.ومن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولايضيع المرء فراغه نصيب العلم من نفسه فيحوز من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه باطلا . يامعشر الناس ! إنه قد تدلّت الجوزاء وزلت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقلّ الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ودرجت السخائل،وعلى الراعى بحسن رعيته حسن النظر . فحىّ لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده،وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها،فإنها جنتكم من عدوكم، وبها مغانمكم وأنفالكم. واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا،وإياكم والمومسات المعسولات،فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم. حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر،فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لهم فيكم صهرا ، وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم،ولأعلمنّ ماأتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه .....»

كذلك اشتهر عمرو بحكمه البليغة، وله أقوال مأثورة، منها: «ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ولكنه يعرف خير الشرّين.» وروى عن عمرو أنه قال يوما لمعاوية: «إنّ الكريم يصول إذا جاع واللئيم يصول إذا شبع. فسُدَّ خصاصة (حاجة) الكريم، واقمع اللئيم». قال معاوية لعمرو: من أبلغ الناس؟ قال: من كان رأيه رادًا لهواه. وقال: فمن أسخى الناس؟ قال: مَن بذل دنياه فى صلاح دينه. وقال: فمن أشجع الناس؟ فقال من رد جهله بحلمه». ومن غرر أقوال عمرو: موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة». وقوله وقد نظر على بغلة قد شمط وجهها هرما فقيل له: أتركب هذا وأنت أمير مصر؟ فأجاب: «لا ملل عندى لدابتى ما حملتنى، ولا لامرأتى ما أحسنت عشرتى، ولا لصديق ما حفظ سرى. إن الملل من كواذب الأخلاق». وقوله: «إذا أنا أفشيت سرى إلى صديق فأذاعه فهو فى حل»، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: «أنا كنت أحق بصيانته».

كان عمرو من دهاة العرب المشهورين. يدل على ذلك تلك الحيلة التى ابتكرها فى موقعة صفين وجيش على بن أبى طالب على وشك الانتصار، وما كان من رفع المصاحف على أسِنّة الرماح، وما أحدثه من أثر فى التفريق بين صفوف علىّ، وتغلّبه على أبى موسى الأشعرى بدهائه ومكره. ولم يكن قيام حزب الخوارج الذى لم يرضَ بحكم علىّ ولا بحكم معاوية، وظهور حزب الشيعة بشكله الواضح، وانتصار معاوية وتحويل الخلافة إليه، إلا نتيجة لدهاء عمرو.

وكان عمرو حاضر البديهة طيب الفكاهة. أراد معاوية أن يختبر بديهته يوما، فقال عمرو: أخرج من عندك، فأخرجهم معاوية، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين أسارّك، فأدنى معاوية رأسه منه، فقال عمرو: مَن معنا فى البيت حتى أسارك؟

مات عمرو فى يوم الفطر من السنة الثالثة والأربعين للهجرة. وقد تأخرت وفاته ثلاث سنين، لأن ابن ملجم قتل على بن أبى طالب، ولم يفز الذى ندب نفسه لقتل معاوية بقتله، وكذلك عمرو بن بكر الذى عزم على قتل عمرو، فانه

جلس فى الليلة المعهودة ، فلم يخرج عمرو لمرضه ، وندب خارجة بن حذافة قاضى مصر أن يصلى بالناس . وبينما هو فى صلاته ضربه الخارجى بالسيف فقتله ، وكان يظنه عمرا . فلما علم أن المقتول غير عمرو ، قال : أردت عمرا وأراد الله خارجة ، فذهبت مثلا . ولما وقف الرجل بين يدى عمرو ، بكى ، فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الإقدام ؟ قال : لا والله ، ولكن غما أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو !

وقد روى فى كتاب الحيوان الكبرى أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة قال له ابنه : يا أبتاه إنك كنت تقول لنا : ليتنى كنت ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت به حتى يصف لى ما يجد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لى الموت . فقال : « يابنى ! والله كأن السماء قد أطبقت على الأرض ، وكأنى أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى هامتى » .

لَيْتنى كنتُ قبلَ ماقدْ بَدا لِي فى رءوس الجبال أرعى الوعولا

ثم قال عمرو لأبنائه : إن أنا متّ ، فلا ، تتبعنى نائحة . فإذا دفنتمونى فى قبرى ، فسنّوا علىّ التراب سنّا ، فليس جنبى الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ؛ ولا تجعلوا فى قبرى خشبة ولا حجرا . فإذا فرغتم من دفنى ، فأقيموا عند قبرى قدر ما يُنْحر جزور ويقسم لحمها ، فإنى أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربى . ثم قال لبنيه : يابنى ! ماتغنون عنى من أمر الله شيئا ، قالوا : يا أبت ! إنه الموت ، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا ، فقال : أسندونى ! ثم قال وقد استقبل القبلة : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا . وهذا مقام العائذ بك ؛ فإنْ تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداى . اللهم لا قوىّ فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر . أستغفرك وأتوب إليك ، ولكن لا إله إلا الله ، فما زال يقولها حتى مات فى يوم عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين من الهجرة كما تقدم .

ودفن عمرو بسفح المقطم ، وقيل فى المكان الذى يقع على حافته الشرقية

قبر الإمام الشافعى ، وقيل أيضا فى مكان يقع شرقى مشهد السيدة آمنة بنت موسى الكاظم .

كان عمرو بن العاص أحسن مثال للنفسية العربية المسلمة ، فقد تجلى فى هذه الشخصية الفذّة العدل والحلم والشجاعة والإقدام وطهارة السريرة والرجوع إلى الحق ؛ فاحتلت مكانتها بين شخصيات الأبطال وأعلام الإسلام الذين يحفظ لهم التاريخ أجمل الذكرى وأطيب الأثر .

١٤– الزُّبَيْر بن العَوّام

حوارىّ رسول الله ومن العشرة المشهود لهم بالجنة

من أعلام الإسلام : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزى بن قصى بن كلاب حوارى الرسول الكريم وابن عمته ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأول رجل سل سيفه فى الله ، وهو أحد الستة من أصحاب الشورى الذين ندبهم عمر ليختاروا من بينهم خليفة يتولى أمور المسلمين . وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، فهو ابن عمة الرسول ، وابن أخى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ، وكانت فاطمة الزهراء بنت الرسول بنت عمته. وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر بكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب ، وكنى الزبير بأبى عبد الله .

ولما ظهر الإسلام كان الزبير فى طليعة الذين آمنوا بالرسول وصدقوه . أسلم بعد أبى بكر بوقت يسير ، وكان خامس من دخل هذا الدين . وقد هداه الله وهو لايزال فى ميعة الصبا ، حتى قيل إنه أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة .(١)

مات العوام والزبير صغير ، فكان يلى أموره خاله نوفل بن خويلد . وكانت أمه صفية تعنى بتربيته عناية فائقة ، ولا تألو جهدا فى تقويمه ، بل لقد كانت تشتد عليه وتضربه وهو صغير ، فعاتبها أخوها نوفل ، وخشى أنها تضمر لابنها الكراهة والبغضاء . فردت عليه ردا ينطوى على حبها إياه وإيثارها مصلحته ورجزت به :

مَنْ قال إنى أبغضه فقد كَذَبْ   وإنما أضربه لكى يلب

---

(١) وقيل وهو ابن ست عشرة سنة ، وقيل وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وقيل وهو ابن ثمانى سنين .

وَيَهْزِمُ الجيشَ ويأتى بالسلب ولا يكنُ لما له خبأً مخب
يأ كل فى البيتِ من تَمرٍ وحَبّ

لذلك لانعجب إذا عرف الزبير منذ نعومة أظفاره بالقوة والبأس وإيثار الحق وإنصاف المظلوم. فلما أسلم تأدب بآداب الدين الجديد، برغم مالقيه من الآلام وما تعرض له من الأذى، حتى لقد روى أن عمه كان يعلقه فى حصير ويدخن عليه ليرتد عن دينه ويرجع إلى الكفر، ولكنه أبى إلا التمسك بأهداب هذا الدين الذى أصبح عقيدة راسخة خالطت شغاف قلبه، ولقى ما لقى من أذى المشركين، واضطر إلى الهجرة مع من هاجر من المسلمين إلى الحبشة.

ولما عاد الزبير إلى مكة وآخى الرسول بين المهاجرين، آخى بينه وبين عبد الله بن مسعود. وكان الزبير من أخاص صحابة الرسول وأشدهم إيمانا بدعوته، لذلك نراه يبادر إلى الهجرة إلى يثرب، فيتبع الرسول مع من تبعه من المهاجرين. وسرعان ما أصبح أهل يثرب من أشد أنصار الرسول عودا وأقواهم بأسا. فإذا استقر بالمهاجرين المقام آخى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار ليخفف من وطأة الهجرة على هؤلاء الذين تركوا ديارهم وتركوا أموالهم بمكة؛ فآخى فيمن آخى بين الزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش، وظلت هذه المؤاخاة قائمة يرث المتآخيان أحدهما الآخر، حتى نزل قوله تعالى فى سورة الأنفال: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله».

قدر الرسول الكريم لهذا الصحابى الجليل قدره، وعرف له سبقه إلى الإسلام، وصدق إيمانه بدعوته؛ وتعلقه بمحبته، كما عرف له حسن بلائه فى الجهاد. وقد قيل إن الزبير كان أول من سل سيفا فى الله عز وجل. ولما كان المسلمون مع الرسول فى مكة، اتصل بالزبير أن الكفار أخذوه، فأقبل يشق الناس بسيفه والرسول بأعلى مكة فقال له: مالك يازبير؟ قال أخبرت أنك أخذت. فصلى الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له ولسيفه.

وقد اشترك الزبير فى غزوات الرسول، حتى قيل إنه شهد المشاهد كلها : حارب يوم بدر وعليه عمامة صفراء ، فقال الرسول : إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير ، وندبه الرسول ليأتيه بخبر بنى قريظة من اليهود ، حين نقضوا العهد الذى أخذوه على أنفسهم ، بعد أن أقبل المشركون من قريش وأحلافها ، وهاجموا المدينة فى السنة الخامسة من الهجرة وحاولوا اختراق الخندق .

كذلك شهد الزبير صلح الحديبية ، وبلغ من شدة إعجاب الرسول بشجاعة المسلمين الذين اشتركوا فى بدر والحديبية وتقديره بلاءهم فى الحرب وإخلاصهم فى الجهاد أنه قال : لن يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية .

ويظهر أن الزبير قد آثر العزلة بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه ، فلزم المدينة المنورة ولم يفارقها إلا للحج . وقد عكف على الاشتغال بالتجارة التى أدرت عليه الأموال . وكان لتربيته المنزلية ، وما اكتسبه من وراء اتصاله بالرسول الكريم من فضائل وآداب من كتاب الله ، أثر بعيد فيما أصاب من ثراء وما نعم به من خير . قيل له يوما : بِمَ أدركتَ فى التجارة ما أدركتَ ؟ قال : لأنى لم أشتر غبناً ، ولم أرِدْ ربحا . والله يبارك لِمَنْ يشاء .

ولكن الزبير لم يحفل بهذا الثراء حين دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجهاد فى سبيل الله ، وقد عرف له شجاعته ومهارته فى الحرب. فلما طلب عمرو بن العاص المدد من الخليفة ، أمده بأربعة آلاف ، عليهم أربعة من القواد وكتب إليه : لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة من مشاهير الصحابة الواحد منهم بألف رجل . وكان هؤلاء الأربعة : الزبير بن العوام ، وعُبادة بن الصّامت ، والمقداد ابن الأسود ، ومَسْلمَة بن مُخَلد .

ولما شدد المسلمون الحصار على حصن بابليون ، تجلت شجاعة الزبير ، وضرب للمسلمين أروع أمثلة التضحية فى سبيل إعلاء كلمة الدين . فانظر إليه وقد بلغت الحرب مرحلة دقيقة : إما النصر والظفر ، وإما الهزيمة والخذلان ، فيقدم نفسه فداء للإسلام ويقول : إنى أهب نفسى لله تعالى وأرجو أن يفتح الله بذلك على

المسلمين . ثم يضع سلما إلى جانب الحصن ، ويصعد ويأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا . وعلى حين غفلة يكبرّ الزبير على رأس الحصن ومعه السيف، ويتحامل الناس على السلم ، وينهاهم عمرو بن العاص خوفا من أن ينكسر، ثم يكبر الزبير تكبيرة ، فيجيبه المسلمون من الخارج، ولم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموه جميعا ، فيهربون ، ويعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن فيفتحونه . وبذلك مهد هذا الجندى الباسل والمسلم المجاهد ، للمسلمين فتح مدينة الإسكندرية حاضرة الديار المصرية فى ذلك الحين. كما اشترك الزبير مع المسلمين فى فتح بلاد طبرستان.

من أجل ذلك لا نعجب إذا اتخذ الرسول الزبير حواريه ، وعدّه من العشرة المشهود لهم بالجنة . كما لا نعجب إذا اختاره عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أصحاب الشورى الستة الذين رشحهم ليختاروا من بينهم خليفة يلى أمور المسلمين بعد وفاته ، وقال للصحابة : عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة .

ولما ظهر التنافس على الخلافة بين الذين كانوا يميلون إلى تولية علىّ ، والذين يميلون إلى تولية عثمان ، لم يظهر الزبير ميلا إلى أحد المتنافسين : علىّ وعثمان ، بل آثر العافية ، وأيد عبد الرحمن بن عوف حين أخرج نفسه من الخلافة . ولما آلت الخلافة إلى عثمان حرص على أن يؤثر الزبير ويقربه إليه برغم ما كان بينهما من خصومة زمنا ما . ولم يشتد الزبير فى معارضة سياسة عثمان ، بل شارك الصحابة فيما وجهوا إليه من نقد وأسدوا إليه من نصح . ولكنه لم يذهب فى هذه المعارضة إلى ما ذهب اليه أهل المدينة وغيرهم من أهالى الأمصار الأخرى ، الذين اشتركوا فى الفتنة التى انتهت بقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقد حفظ له عثمان هذا الموقف ، وعبر عن رضاه عنه حين قيل له استخلف الزبير ، فقال : أما أنه لأخيرهم وأحبهم الى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

على أنا لا ندرى كيف أن الزبير الذى آثر العافية ولم ينغمس فيما انغمس فيه بعض المسلمين ، ينضم إلى عائشة وطلحة ! وقد قيل إنه انضم إليهما ، لأنه طمع

فى ولاية العراق ، كما طمع طلحة فى ولاية اليمن ، وأن عليا لم يحقق لهما ما كانا يطمعان فيه ، فنقما عليه ، وندما على بيعتهما إياه ، وعزما على الخروج عليه ، فاستأذناه فى الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمرهما ، فقال لهما : « والله ما العمرة تريدان !

بل إن الزبير لم يصغ لنصح الناصحين ، ولم يرع حرمة لوحدة المسلمين ، على الرغم من أنه كان ابن عمة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وابن أخى السيدة خديجة. ولكنه آثر من جهة أخرى الانضمام إلى أم المؤمنين عائشة أخت أسماء بنت أبى بكر ، ليظفر بالخلافة ، إن لم يكن لنفسه ، فلابنه عبد الله بن أخت السيدة عائشة.

وقد أراد علىّ كرم الله وجهه أن يثنى الزبير عن قتاله يوم الجمل ، فناداه ، وذكر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ، وقد وجدهما يضحكان: أما إنك ستقاتل عليا وأنت له ظالم . وقد قيل إن الزبير ذكر ذلك وهم بالانصراف عن القتال ، فتبعه عمرو بن جرموز ، من بنى تميم وقتله بموضع يعرف بوادى السباع ، وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ست وثلاثين للهجرة ، وله ست وستون سنة (وقيل سبع وستون) . ولكن عليا لم يفرح لموت رجل من أعلام الإسلام ومن كبار الصحابة ، بل حزن عليه وعبر عن استيائه من قاتل الزبير حين جاءه عبد الله بن عباس بعد مقتله فقال : إلى أين يدخل قاتل ابن صفية (يعنى الزبير) فقال على : النار.

كان الزبير — كما قال عمر بن الخطاب — من أركان الدين ، وأول رجل سل سيفه فى الله . ومواقفه فى الجهاد مذكورة مشهورة . روى أنه كان فيه ثلاث ضربات فى السيف : ثنتان يوم بدر ، وواحدة يوم اليرموك . وقد حدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان قليل الحديث برغم صحبته للرسول . قال الزبير بن بكار فى كتاب النسب : سألت الزبير عن قلة حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : كان بينى وبينه من الرحم والقرابة ما قد علمت ، ولكنى سمعته يقول : « من قال علىّ مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار » .

كان الزبير من أصحاب اليسار ، وقد تضخمت ثروته حتى أصبحت مضرب

الأمثال فى الضخامة. فقد بنى داره بالبصرة ، وقد شاهدها أبو الحسن على المسعودى فى سنة ٣٣٢ هـ ، فقال : تنزلها التجار وأرباب الأموال ، وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم » ، كما ابتنى الزبير دورا أخرى فى البصرة والكوفة والفسطاط والإسكندرية وبعض الدور فى المدينة . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف عبد ، وألف أمة ، عدا ماخلف من الدور والضياع .

وكان للزبير ألفا مملوك يؤدون إليه الخراج ، فما يُدخل إلى بيته منه درهما واحدا ، بل كان يتصدق بذلك كله . ولقد عظم دينه على الناس حتى إنه أوصى ابنه عبدالله يوم الجمل أن يؤدى عنه دينه من ماله ، فقام عبد الله بتنفيذ وصية أبيه ، فأدّى هذا الدين كله إلى أصحابه ، ومات هذا الصحابى الجليل فقيرا . وقد سار مدح الزبير على لسان حسان بن ثابت الذى فضله على الصحابة ، كما فضل أبو هريرة جعفر بن أبى طالب على الصحابة ، فقال حسان يمدح الزبير فى أبيات منها .

أقام على عهد النبى وهدْيه ... حواريه والقول بالفعل يَعدِلُ
أقام على مِنهاجه وطريقه ... يوالى ولىَّ الحق والحقُّ أعدل
له من رسول الله قرْبى قَريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مُؤثل

كان الزبير من الذين جاهدوا فى سبيل الله حق جهاده .

وعلى الرغم مما امتاز به الزبير من جهاد ، وما تحلى به من فضائل، وما اشتهر عنه من صدق ووفاء وكرم ، لايسعنا إلا أن نحكم عليه لانغماسه فى الفتنة التى اشترك فيها بعض الصحابة ، وطوّحت بالوحدة الإسلامية ، وأدت إلى انقسام المسلمين فرقا وطوائف ، ظهرت آثارها فى هذه الحروب الطاحنة التى نشبت بين على ومعاوية ، فزالت دولة الخلفاء الراشدين بعد حين ، وقامت على أنقاضها الدولة الأموية ، وتفاقمت هذه الكراهة التقليدية التى قامت بين بنى أمية وبنى هاشم فى الجاهلية ، ولم يزدها الإسلام إلا تفاقما وازديادا .

١٥ – طلحة بن عُبَيْد الله

« الفيَّاض »

من أعلام الإسلام صحابى جليل كان فى طليعة الذين آمنوا بالرسول الكريم وصدقوه. وهو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى، الذين ندبهم عمر ليختار المسلمون خليفة منهم : هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى . وكانت أمه الصَّعْبَة بنت الحَضْرَمى ، أخت العَلاء بن الحَضْرمى من أهل اليمن .

أسلم طلحة على يد أبى بكر الصديق ، وقيل إنه كان ثامن من دخل هذا الدين، وقيل فى سبب إسلامه : إنه حضر سوق بُصرى، التى كان يتردد عليها تجار العرب فى الجاهلية، والتى ذهب إليها الرسول مع عمه أبى طالب ولمح فيها راهب اسمه بَحِيرا فى الرسول علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور فى نومه ويقظته ، ورأى فى بدنه علامات النبوة .

فى تلك المدينة رأى طلحة راهبا فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم ، أفيهم أحد من أهل الحرم قال طلحة : نعم أنا ، فقال : هل ظهر أحمد ؟ قلت مَنْ أحمد قال ابن عبد الله، هذا شهره الذى يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء ومَخْرَجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ ، فإياك أن تُسبق إليه. فوقع هذا الكلام موقعه من نفس طلحة، فخرج مسرعا حتى قدم مكة . وسأل أصحابه : هل من حَدَث؟ قالوا : نعم ، محمد الأمين تنبأ ، وقد تبعه ابن أبى قحافة ، يعنون أبا بكر . وخرج طلحة حتى جاء إلى دار أبى بكر ، فصحبه حتى لقى الرسول ، فأسلم على يديه ، وأخبره بخبر ذلك الراهب .

أفاد طلحة من اشتغاله بالتجارة فوائد معنوية وأدبية ، فقد خالط أقواما مختلفين من ذوى المدنيات القديمة ، وساعده ذلك على معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية ، مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقله ورقى مداركه . ولاشك أن نفس طلحة كانت مهيأة لقبول الإسلام .

وكان طلحة من أفراد المسلمين القلائل الذين سارعوا إلى قبول دعوة الرسول ، فخالط الاسلام شغاف قلوبهم ، وأبلوا البلاء الحسن فى نصرة هذا الدين . يتجلى ذلك من مواقفه المشهورة فى الغزوات : كان بالشام فى تجارة حين وقعت غزوة بدر ، ولكن الرسول الكريم عرف له سبقه إلى الاسلام وجهاده فى الدين ، فعده من صفوف المؤمنين الذين شهدوا هذه الغزوة ، وخصه بسهم ، واحتفظ له بنصيبه. كذلك شهد طلحة غزوة أحد التى خصصت لها قريش جميع ما كان من مال فى العير التى أثارت النزاع فى غزوة بدر ، وأبلى طلحة البلاء الحسن ، وجاهد فى سبيل الله .

ولما وقعت موقعة أحد ، وأهمل الرماة وصية الرسول إياهم بالثبات فى أماكنهم ، وأخذوا يجمعون ما تركه العدو وراءهم من الغنيمة والأسلاب ، انتهز خالد بن الوليد خلو الجبل من الرماة ، وأتى المسلمين من خلفهم ، وأعمل الرماح فى ظهورهم ، فاضطرب المسلمون لهذه المفاجأة ، واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر . ثم اشتد الخطب عندما صرخ ابن قَمِيئة من المشركين : ألا إن محمداً قد قُتل ! وتخاذل المسلمون ، واستولى اليأس على قلوب فريق منهم . لكن طلحة لازم النبى مدافعاً عنه ، ووقاه بنفسه ، واتقى النَّبْل عنه بيده حتى شُلَّت إصبعه . وهذه العبارة تحمل الدليل القاطع على صدق إيمان طلحة وتفانيه فى محبة الرسول ، والذود عن الإسلام ، مُعرِّضاً نفسه لخطر الموت فى سبيل المحافظة على حياة الرسول الكريم .

وهب الله سبحانه طلحة مع قوة الإيمان والإخلاص للدين ، قوة البدن وصلابة العود التى ساعدته على الذود عن حياض الدين ، وصد الأذى عن الرسول ولو كان

فى ذلك إصابة يده وشلها . وتتجلى هذه الصفات مما وصفه به المؤرخون وأصحاب السير ، فقد كان طلحة أبيض يضرب إلى الحمرة ، وكان ربعة حسن الوجه يميل إلى القِصَر . وكان رحب الصدر بعيد ما بين المنكبين، ضخم القدمين، إذا مشى أسرع فى مشيته ، يتدفق حيوية ونشاطاً وقوة ، بذلها كلها فى نصرة الدين حتى إنه جاد بنفسه فى سبيل وقاية الرسول . روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهض إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة ، فنهض حتى استوى عليها .

وكان طلحة من الفدائيين الذين يعدون عدة الجيوش فى أدق ساعات القتال. وابتدع هذه الفكرة التى خلدت الصحف ذكر أصحابها فى الحرب العالمية الثانية ، فقدموا نفوسهم فداء لأوطانهم ، وألقوا بأنفسهم وسط مخازن الذخائر والمصانع الحربية ينسفونها ، مضحين أنفسهم معها . فانظر إلى طلحة وأصحابه الذين بايعهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت يوم أُحُد ، حين انهزم المسلمون فصبروا، وجعلوا يبذلون نفوسهم دونه حتى قتل منهم من قتل ، وكان من هؤلاء أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسهل بن حنيف، وأبو دجانة .

كذلك آخى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بين طلحة وعبد الله بن الزبير بمكة قبل الهجرة، كما آخى فيما آخى بين المهاجرين والأنصار فى المدينة بين طلحة وأبى أيوب الأنصارى ؛ ليخفف عن المهاجرين وطأة الهجرة وقد هجروا ديارهم وتركوا أموالهم .

وقد اشترك طلحة فى الأحداث الهامة التى وقعت بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه ، فانحاز إلى على بن أبى طالب . كما اشترك أيضا فى حروب الردة الطاحنة التى كادت تودى بوحدة الجزيرة العربية وتقضى على التراث الذى خلفه الرسول ، لولا هذه الروح القوية التى بثها الرسول فى نفوس أتباعه المخلصين من أمثال طلحة بن عبيد الله .

كان طلحة من الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليقع اختيار خليفة منهم،

على الرغم من أن طلحة كان متغيبا عن المدينة فى ذلك الوقت ، بما يدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به من مركز ممتاز فى السياسة الإسلامية ، فقد قال عمر: « إذا مت ، فتشاوروا ثلاثة أيام ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا . . . وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة ، فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه ، فاقضوا أمركم » .

وكان طلحة ممن بادروا إلى تولية على ، ولكنه سرعان ما تغير عليه لأنه كان يطمع فى ولاية اليمن . فلما أرسل علىّ الولاة ولم يكن له حظ فى الولاية ، نقم عليه وتكلم فى شأنه ، وندم على بيعته ، وعزم على الخروج ؛ فاستأذن عليا فى الخروج إلى مكة لأداء العمرة ، ولكنه لم يخف عليه أمره وقال له وللزبير : والله ما العمرة تريدان ! وهذا يبين أن خروج طلحة والزبير على علىّ بن أبى طالب كان للمطالبة بالخلافة . فقد قيل إن مروان بن الحكم قال لهما بعد خروجهما : على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ، فقال عبد الله بن الزبير : على أبى (يعنى أباه الزبير) ، وقال محمد بن طلحة : على أبى طلحة .

وقد انضم إلى عائشة طلحة والزبير اللذان عملا على استمالة زعماء البصرة، ولم يصغيا لنصح الناصحين ، ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التى كادت تتمزق شر ممزق ،وخرج ثلاثتهم إلى البصرة ، والتقوا بجيش على فى منتصف جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة ، وقتل طلحة ، الذى رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله، لما كان يتهمه بتحريض الناس على قتل عثمان . وكان فى الرابعة والستين .

وأنا لنعجب كيف ينضم طلحة ، ذلك الصحابى الجليل ، الى المطالبين بدم عثمان ، مع أنه كان متهما بتحريض الناس على قتل عثمان . كما نعجب أيضا حين يؤلب طلحة الناس على علىّ بن أبى طالب لأنه لم يقلده ولاية اليمن !

ومهما يكن من أمر ، فإن طلحة كان من أشد الصحابة تعلقا بالرسول وتفانيا فى خدمة الدين ، وقد بذل فى سبيل الدين أموالا ضخمة . روى أن الرسول مر فى

غزوة ذي قرد على ماء مالح يقال له بيسان فقال: هو نعمان، وهو طيب. فغير اسمه، فاشتراه طلحة وتصدق به على المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنت يا طلحة إلا فياض! فبذلك قيل له: طلحة الفياض.

وقد روى سفيان بن عبد الملك عن قبيصة بن جابر قال: صحبت طلحة فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه.

فقد ذكر المسعودي أن طلحة ابتنى داره بالكناس (١) بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة (٢)، وشيد داره بالمدينة المنورة، وبناها بالآجر والجص والساج.

روى طلحة بن عبيد الله عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وروى عنه بنوه: يحي، وعيسى؛ كما روى عنه أيضا: قيس بن أبي حازم، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والأحنف بن قيس، ومالك بن أبي عامر وغيرهم.

كان طلحة آدم كثير الشعر، ليس بالجعد ولا بالسبط، حسن الوجه، دقيق العرنين، إذا مشى أسرع.

تزوج طلحة أربع نسوة كان عند الرسول صلى الله عليه وسلم أخت لكل منهن، وهن: أم كلثوم بنت أبي بكر أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة، ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة.

---

(١) بكسر أوله، موضع من بلاد غنى. عن أبي عبيدة قال جرير:

لمن الديار كأنها لم تحلل
بين الكناس وبين طلحة الأعزل

والكناسة (بالضم) محلة بالكوفة قتل فيها زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على سنة ١٢٢ هـ.

(٢) السراة: سلسلة جبال تمتد من عرفة (قرب مكة) إلى صنعاء فى الجنوب، يسكنها قوم من الأرد يقال لهم أزد السراة، وهي جبال التوائية يتخللها أخاديد وتنبت فيها الكروم وقصب السكر والقرظ.

١٦ – المقداد بن الأسود

فارس يوم بدر وأول من قاتل على فرس فى سبيل الله

ضرب الاسلام أحسن الأمثلة للحرية والاخاء والمساواة ، فسوى بين العبد والحر ، وبين الأبيض والأسود . من هؤلاء المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ابن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائى نسبة الى قبيلة بهراء ، وقيل الحضرمى .

أصاب عمرو أبو المقداد دما فى قومه ، فهرب الى حضرموت ، ثم حالف كندة ، فقيل له الكندى . وتزوج هنالك من امرأة ولدت له ابنه المقداد . ولما شب هذا الفتى وكبر ، وقع بينه وبين أحد أفراد هذه القبيلة نزاع ، فضرب رجله بالسيف ، ولكنه خشى على نفسه ، فهرب إلى مكة ، وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، فتبناه الأسود ، فنسب إليه المقداد ، فسمى المقداد بن الأسود ، كما سمى المقداد بن البهرائى ، والمقداد الكندى ، ثم سمى المقداد بن عمرو بعد أن أنزل الله عز وجل « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . ولكن تسميته المقداد بن الأسود ، غلبت عليه . وكان يكنى أبا الاسود ، وأبا عمرو وأبا معبد ، وأبا سعيد.

كان المقداد فى طليعة الذين آمنوا بالرسول وصدقوه ، وكان من السابقين الأولين . روى ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد . وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال : لم يكن نبى الا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، وإنى أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعلى ، والحسن ، والحسين ، وابن مسعود ، وسلمان ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال .

ولا عجب ، فقد كان المقداد ممن عمر الإسلام قلوبهم ، واطمأن الرسول إلى استعدادهم لقبول دعوته . وقد تعرض المقداد لما تعرض له المؤمنون من أذى قريش ، فلم تضعف عزيمته من هول هذه المحنة ، بل لقد ساعد ذلك الاضطهاد على إذكاء الحماسة الدينية فى نفسه .

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء أذن للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر عشرة رجال وأربع نسوة ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة ، سوى الصبيان . وكان المقداد من بين هؤلاء المهاجرين .

وبينما كان الرسول وأهل بيته يلاقون الشدائد والأهوال فى مكة ، كان المقداد ومن هاجر معه يقاسون آلام الغربة فى الحبشة ، حتى وجدت دعوة الرسول بيئة صالحة فى أهل يثرب التى لم تلبث أن أصبحت بعد هجرته صلى الله عليه وسلم معقل الاسلام وملجأ جماعة المسلمين . ثم عاد المقداد مع من عاد من مهاجرى الحبشة ، ولحق بالرسول فى المدينة ، وعاونه فى نشر الدعوة ، واشترك معه فى غزواته وسراياه .

نعم شهد المقداد غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها المسلمون على الكفار ، حتى لقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فيها أن سموها غزوة الفرقان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى فرق بها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام وأذل الكفر . وكان للمقداد فى هذه الغزوة أثر ملحوظ . فإن الرسول لما علم أن قريشا قد عقدوا العزم على أن يمنعوا غير المسلمين ، استشار كبار الصحابة ، « فقال أبو بكر فأحسن وقال عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ! امض لما أمرت به فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق نبيا لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له » .

وكان المقداد من فرسان العرب المعدودين . روى أنه كان فارس يوم بدر ،

وأول من قاتل على فرس فى سبيل الله .

اشترك المقداد مع المسلمين فيما تلا بدرا من غزوات ، وأبلى البلاء الحسن فى نصرة الدين . فنراه يحارب المشركين من قريش وحلفائها فى غزوة أحد ، وفى غزوة الخندق التى كان لها أثر بعيد فى نشر الدعوة الإسلامية ، كما نراه يقاتل اليهود فى خيبر . وقد عرف له الرسول قوة إيمانه وحسن بلائه ، فعبر له عن محبته له وحدبه عليه ، فزوجه من ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب .

كان المقداد جالسا مع عبد الرحمن بن عوف ، وكان من أثرياء قريش ، فقال له : مالك لا تتزوج ؟ قال : زوجنى ابنتك ، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له ، فشكا المقداد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أنا أزوجك ، فزوجه ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . وبذلك لم يفاضل الرسول الكريم بين مسلم ومسلمة ،لأن المسلمين إخوة لاتفاوت بينهم إلا بقدر مايتفاضلون به من الحق . قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : أمرنى الله عز وجل بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم : على ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان » .

اشترك المقداد فى الفتوح الإسلامية وعرف له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه شدة إيمانه وحسن بلائه . ذلك أن عمرو بن العاص لما طلب إلى الخليفة أن يرسل إليه مددأ يستعين به على اختراق أسوار حصن بابليون المنيعة وأبراجه الشامخة التى كان يحيط بها النيل فى وقت الفيضان ، أمده بأربعة آلاف ، على رأسهم أربعة من كبار الصحابة ، وكتب إليه عمر : إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف منهم رجل مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود ، وعُبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مُخَلَّد . وقال عمر : اعلم أن معك اثنى عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

وقد بلغ من إعجاب المسلمين بمهارة المقداد وأصحابه وما أحرزوه فى فتح مصر من نصر وظفر ، أن قالوا : إن عمر بن الخطاب أمد عمرو بن العاص بثمانية آلاف

رجل ، وزعموا أن كلا من هؤلاء القواد الأربعة ، كان يعدل ألف جندى ، وذلك لما اشتهروا به من مهارة ممتازة وكفاية نادرة .

ولقد أثر عن كسرى أنه كان له رجال اشتهروا فى الحروب ، وأنه كان إذا احتاج إلى بقاء أحدهم إلى جانبه ، زاد جيشه ألف رجل يحلون محل ذلك القائد .

وبقدر ما امتاز به المقداد من مهارة فى الحرب ، اشتهر كذلك بالتفقه فى الدين ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأحاديث ، وروى عنه كثير من المسلمين الأولين ؛ كعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، ومن التابعين كعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وميمون بن أبى شَبيب .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرنى الله عز وجل بحب أربعة ، وأخبرنى أنه يحبهم : علىّ ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسَلْمان » .

وقد أثرى المقداد بن الأسود ثراء كبيرا . قيل إنه ابتنى داره بالمدينة المنورة ، فى الموضع المعروف بالجرف على بعد أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصَّصَة الظاهر والباطن .

وروى عن المقداد أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا كان يوم القيامة ، أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قيد ميل أو اثنين ، فيكونون فى العرق على قدر أعمالهم ، فمنهم منْ يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاما ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بيده إلى فيه ؛ أى يلجمه إلجاما .

كان المقداد بن الأسود وفيا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يحب علىّ بن أبى طالب ويرى أنه أحق الصحابة بالخلافة . وقد تجلىّ هذا الوفاء فى قصة الشورى حين مات عمر والستة الذين اختارهم وقد انقسموا على أنفسهم ، وأصبح المسلمون فريقين : فريق يؤيد عثمان ، وفريق يؤيد عليا . فلما ازدحم المسجد بالناس ، قام عمار بن ياسر فقال لعبد الرحمن بن عوف بعد أن خلع نفسه من الخلافة : إن أردت ألا يختلف الناس ، فبايع عليا ، فقال المقداد بن الأسود :

صدق عمار ، إن بايعتَ عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقام عبد الله بن أبى سرح وقال : إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عمار بن ياسر : أيها الناس ! إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه . فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ، فقال سعد بن أبى وقاص : ياعبد الرحمن ! افرغ قبل أن يفتتن النـــاس ، وتمت البيعة لعثمان برغم معارضة المقداد بن الأسود وعمار ابن ياسر .

كان المقداد طويلا ، أسود اللون ، كثير الشعر ، أعين ، مقرونا ، يصفر لحيته ، وكان ضخم الجسم . وليس من السهل أن نحدد سنة ولادته . أما سنة وفاته ، فإن المؤرخين وأصحاب السير يكادون يجمعون على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين للهجرة بأرض له بالجرف ، وحمل إلى المدينة ، وأنه كان فى السبعين من عمره . وإذا صح ذلك ، كانت ولادة المقداد قبل الهجرة بسبع وثلاثين سنة ، وأنه كان فى الرابعة والعشرين من عمره حين بعث الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد قيل فى سبب وفاته : إنه كان عظيم البطن ، وإنه كان له غلام رومى ، فقال له : أشقُّ بطنك ، فأخرج من شحمه حتى تلطف ، فشق بطنه ، ثم خاطه ، فمات المقداد ، وهرب الغلام .

١٧ — عبد الرحمن بن عوف

إن الذى يحافظ على أزواجى من بعدى هو الصادق البارى

كان عبدالرحمن بن عوف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغنى أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم . وكان يشاطر الفقراء ماله ، وينفق جله فى سبيل الله عز وجل ، وفى سبيل إعلان كلمة الدين ورفع لواء الإسلام . وهو أحد الستة الذين أخبر عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مات وهو عنهم راض . وعبد الرحمن أمين رسول الله على نسائه ، وهو الأمين فى السماء والأمين فى الأرض . وصحابى هذه سيرته ، وهذا مكانه من قلب الرسول ، وهذا بلاؤه فى الإسلام ، لخليق بأن نترجم له ونضعه فى مصاف الفاتحين . فقد فتح غيره بسيوفهم ، وفتح هو بماله حين كان يجند الجند ويبتاع السلاح فى سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الإسلام .

وصاحب هذه الترجمة هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى الزُّهرى ، ويُكنى أبا محمد . وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبد الكعبة . ولد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنين ، ونشأ فى بيئة مكة التى كانت تعج بحياة الجاهلية وعبادة الأوثان والغلو فى الآثام والاستهتار بالفضيلة . ولكنه كان — برغم ذلك — عفا عزوفا عن المآثم الشائعة فى زمنه ، فقد روى أنه حرم الخمر فى الجاهلية ، واتصف بالصفات الحميدة حتى بُعث الرسول وانتشر الإسلام فى مكة ، وأقبل عليه القرشيون بعد أن ناصبوه العداء .

أسلم عبد الرحمن بن عوف قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم بن أبى الارقم التى اتخذت مركزا للدعوة سرا إلى الإسلام ولاتزال بمكة إلى اليوم .

وكانت هذه الدار على جبل الصفا يؤمها الحجيج والغرباء . وتعد الفترة التى قضاها الرسول فى هذه الدار فترة هامة فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام بمكة ، حتى إن كثيرا من المسلمين يورّخون دخولهم إلى الإسلام ، من تلك الأيام التى كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم . روى أن أمه لما علمت بإسلامه قالت له : « والله لا يظلنى سقف من الحر والبرد ، وإن الطعام والشراب علىّ حرام حتى تكفر » .

كان عبد الرحمن من السابقين إلى الإسلام ، من أمثال عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن ابى وقاص ، وغيرهم من مشاهير الصحابة الذين يعتز بهم الإسلام . فلما أسلم سماه الرسول عبد الرحمن.

ولما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان ، وكلهم من بطون قريش. وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ، والزبير بن العوام، وجعفر ابن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عُميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن عوف .

من هذا يتبين كيف أن عبد الرحمن بن عوف ، ذلك التاجر الثرى القرشى النسب، قد أبى إلا أن يفر بدينه غير هياب ولا وَجِل ،غير مبال بما يناله من إيذاء على يد قريش ، إيذاء فى نفسه وولده وماله . إذ لا شك أن ذلك قد أصاب تجارته بالبوار . وكانت هجرته هذه تضحية عظيمة فى سبيل هذا الدين الجديد . ثم عاد عبد الرحمن إلى مكة مع مَن عاد إليها من المهاجرين ، حتى أذن الله للرسول صلى الله عليه وسلم أن يهاجر إلى يثرب بنفسه وبأصحابه ، فخرج عبد الرحمن إلى المدينة مهاجرا . فلما أراد الرسول أن يؤلف بين المهاجرين والأنصار حتى يصبحوا بنعمة الله إخوانا ، ألف بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع

وقد استطاع عبدالرحمن أن يفوز برضى الرسول الكريم ، فوثق به لأمانته وإخلاصه واستقامته ، حتى إنه صلى الله عليه وسلم صلّى خلفه وهو فى أحد سفراته ركعة من صلاة الصبح . ثم ائتمنه على أهل بيته . فقد روى عن سفيان ابن عُيينه عن ابن أبى نُجَيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الذى يحافظ على أزواجى من بعدى هو الصادق البار ، فكان عبد الرحمن بن عوف يخرج بهن ويحج معهن ويجعل على هوادجهن الطيالسة ، وينزل بهن فى الشعب الذى ليس له منفذ . كما أخرج الحرث بن أبى أسامة عن على بن أبى طالب قال : عبد الرحمن أمين فى السماء وأمين فى الأرض .

اشترك عبد الرحمن بن عوف فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فشهد بدرا وشهد أحدا ، وأبلى فيها البلاء الحسن ، حتى قيل إنه جرح واحدا وعشرين جرحا وأصيب فى رجله . وهكذا أنفق عبد الرحمن ما له ودمه فى سبيل الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الدين .

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدر عبدالرحمن بن عوف حق قدره ، لما عرفه من أمانته وإخلاصه وحسن بلائه فى الجهاد . فاستخلفه على الحج فى السنة التى ولى فيها الخلافة . وإذا عرفنا أن عمر بن الخطاب كان من أشد الخلفاء محافظة على الدين وأكثرهم توفيقا فى اختيار الرجال ، عرفنا كيف أن اختيار عبدالرحمن كان يرجع إلى ما تحلى به من الفضائل الكريمة والأخلاق القويمة .

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب دخل عليه نفر من الصحابة فقالوا له : «يا أمير المؤمنين ! لو استخلفت .» قال: منْ أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ؛ فان سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة ؛ ولو كان سالم مولى ابى حُذَيفة حيا استخلفته ، فان سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله . فقال : رجل أدلك عليه ، عبدالله بن عمر . فقال عمر : قاتلك الله و الله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا فى أموركم ، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . بحَسْبِ آل عمر أن يُحاسب منهم رجل

واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. وقد خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نحبه دون أن يستخلف أحدا ، فذهبوا إليه مرة أخرى وقالوا : يا أمير المؤمنين ! لو عهدتَ عهدا ، فقال عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر ، على ألا يكون له من الأمر شىء . وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فى صفه عبد الله بن عمر فى حالة تساوى الأصوات . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فانظر مبلغ ثقة عمر بن الخطاب فى أمانة هذا الصحابى الجليل ونزاهته !

ثم مات عمر فاجتمع هؤلاء الستة من رجال الشورى فى بيت المسور بن مخرمة إلا طلحة فإنه كان غائبا . ولكن سرعان ماظهر فيهم التنافس ، فقال لهم أبو طلحة الانصارى : « أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها . ولكن عبد الرحمن بن عوف أخرج الناس من هذا المأزق ، فحقن دماء المسلمين اذ قال لهم : أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟ فأنا أخلع منها نفسى، فرضى القوم بذلك وعلى ساكت، فقال له : ماتقول ياأبا الحسن ؟ قال : أعطنى موثقا لتُؤْثِرَنَّ الحق ، ولاتتبع الهوى ، ولا تخُصَّ ذا رَحِم لرحمه ، ولا تألُ الأمة. فقال : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على منَ بدَّل وغيَّر ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ألا أخُصَّ ذا رحم ولا آلُ المسلمين . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله، ثم أخذ يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس فيمن يصح أن يختار خليفة من بين هؤلاء . ثم ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار على وأنصار عثمان، فقال سعد بن أبى وقاص : ياعبدالرحمن ! افرغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن : إنى قد نظرت وشاورت فلاتجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا فقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب

الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ثم دعا عثمان فقال : نعم ! فبايعـــه . وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقـال علىّ لعبد الرحمن : « لقد حبوْته حبوَ دَهْر ، ليتَ هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبرٌ جميل ، والله المستعان على ماتصفون ، والله ماولَّيْتَ عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن .

والواقع أن الأمر كاد يتم لعلى لولا أنه لم يتمش مع عبد الرحمن بن عوف بأن يسير على ماسنه أبو بكر وعمر ، وأراد أن يعمـل بمبلغ علمه فصرفت عنه الخلافة إلى عثمان . ومع ذلك فإن عبد الرحمن انصرف إلى شئونه الخاصة ، ولم يشترك فى الأحداث السياسية التى وقعت فى عهد عثمان .

روى الزبير بن بكار قال : كان عبدالرحمن بن عوف أبيض أعْيَن ، أهدب ، أقنى ، له جمّة أسفل من أذنيه ، حسن الوجه دقيق البشرة لا يخضب .

وقد جمع عبد الرحمن من تجارته الواسعة مالا كثيرا ، فابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، حتى إن ربع ثمن ماله بلغ أربعة وثمانين ألفا بعد وفاته . ولكن عبد الرحمن كان برغم ذلك الثراء الطائل ، من أندى الناس يدا ، وأكثرهم سخاء ، واشدهم برا بالفقراء والمعوزين وأبناء السبيل . فضرب بذلك اروع الامثال فى بر الاغنياء بالفقراء ومساعدة الموسرين لإخوانهم المحتاجين والمعوزين . فكان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يشطر ماله ، ويتصدق به على الناس ، حتى انه تصدق مرة بأربعين ألف دينار ، وقد حمل ماله على خمسمائة فرس فى سبيل الله وخمسمائة راحلة .

وكان عبد الرحمن يعتق الرقاب ؛ أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا . وبلغت جملة ما أعتقه ثلاثين ألف نسمة . وكان — مع كثرة ماله — يخشى المال ويكرهه ويبرأ منه . روى أنه بكى مرة بكاء شديدا ، فسئل عن بكائه فقال : إن مصعب بن عمير كان خيرا منى ؛ توفى على عهد رسول الله ولم يكن له ما يكفن فيه ، وإن حمزة ابن عبدالمطلب كان خيرا منى ، لم نجد له كفنا . وإنى أخشى أن أكون ممن عجلت

له طيباته فى حياة الدنيا ، وأخشى أن احتبس عن أصحابى بكثرة مالى .

كان عبد الرحمن أكثر الناس إحساسا بآلام المحتاجين وما يعانيه الساغبون الجائعون . فقد روى نوفل بن إياس قال : كان عبد الرحمن بن عوف لنا جليسا ونعم الجليس ، وأنه انقلب بنا ذات يوم حتى دخلنا منزله ودخل فاغتسل ، ثم خرج فجلس معنا ، فاتينا بقصعة فيها خبز ولحم . ولما وضعت بكى عبدالرحمن بن عوف فقلنا له : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : مات الرسول ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، ولا أرانا أخرنا لما هو خير لنا .

وروى أيضا أنه دخل على أمه فقال : ياأمه لقد خفت أن يهلكنى كثرة مالى ، أنا أكثر قريش مالا . قالت : يابنى! أنفق فإنى سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه . فخرج عبدالرحمن فلق عمر وأخبره ، فجاء عمر فدخل عليها فقال : بالله منهم أنا ؟ فقالت : لا والله ولن أبرىء أحدا بعدك أبدا .

كان عبدالرحمن مثاليا فى كل شىء . كان غنيا كريما بارا رحيما . وكان مسلما ورعا تقيا ، وكان مهاجرا سباقا ومجاهدا بماله ودمه ، كما كان أمينا ؛ ائتمنه الرسول صلى الله عليه وسلم على آل بيته ، فكان بارا بهم رحيما عليهم ، كما كان زاهدا متقشفا مع ثرائه العريض . وكان يصلى قبل الظهر صلاة طويلة ، فإذا سمع الأذان شدّ عليه ثيابه وخرج .

كان عبد الرحمن بن عوف متفقها فى الدين ، بصيرا بالكتاب والسنة . فكان فى عهد الرسول يفتى بين الناس . وقد عرف الصحابة له مكانته وقدروه حق قدره ، فولاه عمر بن الخطاب على الحج فى السنة التى ولى فيها الخلافة كما تقدم . وكان يرجع إليه فى أخذ الجزية من المجوس .

ومات هذا الصحابى الجليل سنة إحدى وثلاثين بعد أن عاش اربعا وسبعين سنة ، ودفن بالبقيع ، وصلى عليه عثمان والزبير بن العوام . فرحم الله عبدالرحمن ابن عوف ، وطيب ثراه ، وجعل الجنة مثواه . .

١٨ عبد الله بن مسعود

« الامام الرباني وصاحب الرسول وخادمه »

كان عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب، بن شمخ بن مخزوم من بنى هزيل إمام المحدثين ، وشيخ القراء ومن أقرب الناس إلى قلب الرسول الكريم ، حتى لقد كان يُعرف بصاحب السواد والسواك . وهو سادس من دخل فى الإسلام ، وأول من جهر بالقرآن بمكة .

كان أبوه مسعود بن غافل حليف عبدالله بن الحارث بن زُهْرة ، وأمه أم عبد بنت عَبْد وَدّ بن سَواد من بنى هذيل أيضا . وكان عبد الله بن مسعود يُعرف بابن أم عَبْد .

من ذلك ترى أن عبدالله نشأ من أبوين فقيرين ، من أحْلاف قريش ، وهم من المستضعفين الذين كان يلوذون بالقبائل الكبرى التماسا لحماية أنفسهم من اعتداء القبائل الأخرى .

ثم انبثق نور الإسلام وبُعث محمد صلى الله عليه وسلم مُبشّرا ونذيرا ، وبسط حمايته على المستضعفين والفقراء ، وآمن به النـــاس . وكان عبد الله الحليف المُستضعَف ممن لبى دعوة الرسول الكريم . ويُروى عن سبب إسلامه أنه كان يرعى الغنم ، فمر به الرسول ، ومعه أبو بكر الصديق ، فقال : ياغلام ! هل معك من لبن ؟ فقال : نعم ! ولكنى مُؤْتَمَن . فقال : ائتنى بشاة لم يَنزُ عليها الفحْل ، فأتاه بواحدة ، فاعتقلها الرسول ، وجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ، فملأت إناء فشرب أبو بكر ثم شرب الرسول ، ثم قال الرسول للضرع : اقلص فقلص ، فعاد كما كان . فقال له الغلام عبدالله : يارسول الله ! علمنى من هذا الكلام ، فمسح رأسه وقال : إنك غلام مُعَلَّم .

كان إسلام عبدالله بن مسعود حدثا خطيرا غيَّر مجرى حياته ؛ فقد ضمه الرسول الكريم ، وقرّبه إليه ، حتى كان يدخل داره دون حجاب ، فيلبسه نعليه ويمشى معه،ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام . وقد أحبه الرسول صلى الله عليه وسلم ووثق به ، حتى لقد روى أنه قال : رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد، وسخطت لأمتى ماسخط لها ابن أم عبد . وقال فى حديث آخر : تمسكوا بعهد ابن أم عبد ، ثم قال : رجل عبدالله فى الميزان أثقل من أحُد ، أعنى أن رجل ابن مسعود تعدل ثواب غزوة أحُد .

وقد شارك عبدالله بن مسعود الرسول فى السراء والضراء ، فلقى مالقى من اضطهاد وتعذيب؛ فلما هاجر المسلمون إلى الحبشة فِرارا بأنفسهم وبدينهم من بطش قريش ، هاجر معهم عبدالله بن مسعود . وقد عرف بين أصحابه بقوة الإيمان والجرأة فى الحق ، حتى قيل إنه كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد اجتمع أصحاب الرسول يوما وقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجْهَر لها . فمَنْ رجلٌ يُسمعهم؟فقال عبدالله : أنا. فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إنْ أرادوه فقال : دعونى إنّ الله سيمنعنى . فغدا حتى أتى قريشا فى أنديتها وقال رافعا صوته : بسم الله الرحمن الرحيم : علم القرآن . فاستقبلها فقرأ بها ،فتأملوا وجعلوا يقولون : مايقول ابن أم عبد ، ثم قال إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد ، فجعلوا يضربون فى وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه فقالوا: هذا الذى خشينا عليك، فقال : ماكان أعداء الله قط أهونَ علىّ منهم الآن ،ولئن شئتم غاديتهم بمثلها ، فقالوا : حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

بهذه الروح اشترك عبد الله بن مسعود فى الأحداث الكبرى التى وقعت فى عهد الرسول ، فهاجر إلى المدينة، وآخى النبى بينه وبين الزبير بن العوام وبين سعد ابن مُعاذ . وهذا يدل على مبلغ تقدير الرسول الكريم إيمانَ عبد الله ومكانته من المسلمين .

اشترك عبد الله بن مسعود فى غزوات الرسول ، فشهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وهو الذى قتل أبا جَهْل أعدى أعداء الإسلام . روى أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر، فقلت يارسول الله! إنى قتلت أبا جهل . قال : بالله الذى لا إله غيره ، لَئِنْ قتلته ؟ قلت : نعم ، فاستخفه الفرح، ثم قال : انطلق فأرنيه : قال : فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه ، فقال : الحمد لله الذى أخزاك ! هذا فِرْعَوْن هذه الأمة ، فنفلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه .

ثم انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، وعبدالله بن مسعود أقرب الناس إلى قلبه . فقد قال الرسول : لو كنت مُؤَمِّراً أحداً بغير مشورة لأمَّرْتُ ابن أم عبد. وعن عبد الرحمن بن زيد النخعى قال ، أتينا حذيفة ، فقلنا: حدثنا بأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم هديا ودلا نلقاه فنأخذه عنه. قال: كان أقرب الناس هَدْياً ودَلاً وسَمْتاً برسول الله ابن مسعود .

كان عبدالله بن مسعود من كتاب الوحى فى عهد الرسول الكريم ، حتى لقد قال: إنه أخذ من الرسول سبعين سورة ما نازعه فيها أحد . ووثق الرسول بروايته حتى لقد قال : استقرئوا القرآن من أربعة نفر ، وبدأ بعبد الله ابن مسعود. كما قال أيضاً : من سَرَّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد. ولا عجب إذا أصبح عبدالله بن مسعود شيخ القراء وإمام المحدثين .

تمتع عبد الله بن مسعود فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بمثل ما كان يتمتع به فى عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . فلما أراد عمر أن يبعث إلى الكوفة بإمام يعلم الناس ، اختار عبد الله بن مسعود وقال : إنى قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما » .

ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة بقى عبد الله بن مسعود فى الكوفة ، يقرأ

القرآن ويروى الحديث ويُعلّم الناس ، حتى أحبّ عثمان أن ينسخ المصحف تلافياً لما قد يجر إليه التهاون فى هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة . وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار ، وقام بهذا العمل زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

ويظهر أن إغفاله أمر ابن مسعود ، برغم أنه أكبر من زيد سناً ، وأرفع مقاما، قد أثار غضب عبد الله، فوقف فى الناس خطيباً وقال : أيأمرونى أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت ؟ والذى نفسى بيده لقد أخذت مِنْ فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، والله ما نزل من القرآن شىء إلا وأنا أعلم فى أى شىء ، وما أحد أعلم بكتاب الله منى ، ولو أعلم أحداً تبلغنيه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته ! فبعث عثمان إليه يأمره بالخروج إلى المدينة ؛ وأحب أعداؤه أن يستغلوا هذا الأمر لمقاومة عثمان، ولكن عبدالله نزّه نفسه عن ذلك، وأبى إلا أن يطيعَ الخليفة عثمان قائلا : «إنها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها » ! ثم ذهب إلى المدينة وظل يحترم عثمان حتى مات . وبذلك نَزّه عبد الله ابن مسعود نفسه عما انزلق إليه غيره من الصحابة .

كان عبد الله بن مسعود من أفقه المسلمين فى القرآن وأرواهم للحديث . روى الحديث عن الرسول ، وعن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وغيرهما من جلة الصحابة . واشتهر من الصحابة بالفتيا فى عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلا وامرأة ، نبغ منهم سبعة، هم: عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والسيدة عائشة، وعبدالله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبدالله بن عمر.

وقد ظهرت للقراءات سبع طرق ، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها، ترجع قراءتها إلى إمام ، وتستند إلى أحاديث موثوق بها. ويرجع أكثر الاختلاف فى القراءات إلى قراء موثوق بهم عاشوا فى القرن الأول ، كعبد الله بن عباس ، وعائشة، وعثمان بن عفان ، وإلى قراء معترف بهم ؛ كعبدالله بن مسعود ، وأُبَىّ بن

كعب . وكان لعبدالله بن مسعود طريقة خاصة فى قراءة القرآن تختلف عن طريقة زيد بن ثابت ، وعن طريقة أبى موسى الأشعرى .

وقد تجلى اختلاف هذه القراءات فى الكوفة ، فغضب، حذيفة بن اليمان عامل عثمان ، وسار إلى الخليفة ، وأخبره بما رأى وقال : أنا النذير العريان ، فأدركوا الأمة . فجمع عثمان الصحابة ، وأخبرهم بما سمع ، فأعظموه ورأوا ما رأى حذيفة، فبعث عثمان إلى حفصة بنت عمر أن ارسلى إلينا بالصحف ننسخها . وكانت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر بمشورة عمر رضى الله عنهما .

مات عبد الله بن مسعود سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، ودفن بالبقيع وصلّى عليه عثمان ، وكان قد جاوز الستين بقليل ، وطويت حياة علم من أعلام الإسلام، وكاتب الوحى ، وإمام القراء ، وأحب المسلمين إلى قلب الرسول.

كان عبد الله بن مسعود حاضر البديهة ، ذرب اللسان ، قوى الحجة. روى عن سعيد بن جبير عن أبى الدرداء قال : خطب النبى صلى الله عليه وسلم خطبة خفيفة ، ثم قال : قم يا أبا بكر ! فقام فخطب فقصّر دون النبى صلى الله عليه وسلم، فقال : قم يا عمر فاخطب ! فخطب ، فقصر دون أبى بكر ، ثم قال : قم يا فلان فاخطب ! إلى أن قال : قم يا ابن أم عبد فاخطب ! فقام عبد الله بن مسعود ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ! إن الله ربنا وإن الإسلام ديننا ، وإن هذا نبينا ، وأومأ بيده إلى النبى صلى الله عليه وسلم . رضينا ما رضى الله لنا ورسوله ، السلام عليكم » . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أصاب ابن أم عبد ، صدق ابن أم عبد .

وكان عبد الله بن مسعود قصيراً نحيفا ، يكاد طوال الرجال يوازيه جلوساً وهو قائم . ولكن ذلك لم ينقص من قدره ، بل رفعه علمه وإيمانه وجهاده إلى مصاف الشهداء الأبرار .

وإن تاريخ عبد الله بن مسعود ليمثل الديمقراطية الإسلامية الحق التى ترفع العبد والحليف إلى مصاف السادة والأشراف . وكَمْ من شريف حسد عبد الله الحليف على مكانته من نفس الرسول . مات مَرْضِياً عليه ، فكان من الصديقين والأبرار .

١٩ – أبو ذر الغفارى

رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ،
ويبعث وحده .

كان أبو ذر فى طليعة العرب الذين آمنوا بالرسول الكريم وصدقوه، وكانت حياته مثلا من أروع الأمثلة التى تصور تسامح الإسلام وعدالته .

ينتسب أبو ذر جُندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صَعير بن حرام الغفارى(١) إلى قبيلة غفار . وأمه رملة بنت الوقيعة من بنى غفار التى كانت تقيم فى طريق تجارة قريش إلى بلاد الشام . وكانت مكة – كما نعلم – مركزا للتجارة بين اليمن والحبشة والشام .

كان أبو ذر من السابقين إلى الاسلام ، حتى قيل إنه كان رابع من أسلم من الرجال(٢) . وقد روى فى قصة إسلامه أنه لما بلغه مبعث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى ، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى . فانطلق أخوه حتى قدم على الرسول وسمع قوله ، ثم عاد إلى أبى ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، ويتكلم كلاما ماهو بالشعر . فقال أبو ذر : ما شفيتنى مما أردت ثم قدم مكة ودخل المسجد الحرام ، فلما أدركه الليل اضطجع بالمسجد، ثم تبع على بن أبى طالب حين رآه ، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح ، فعاد

---

١ – وقيل جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفارى .

٢ – وفى رواية أخرى أنه كان خامس من أسلم .

أبو ذر إلى المسجد وظل به طيلة النهار . ولما أتى المساء عاد إلى مضجعه، فمر به على فقال له : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فسار معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء إذا ، حتى كان اليوم الثالث، فعل أبو ذر مثل ما فعله فى اليومين السابقين، فأقامه عليّ وقال له : ألا تحدثنى ما الذى أقدمك ؟ قال: إن أعطيتنى عهداً وميثاقا لترشدنى فعلت . ففعل ، فأخبره ، ثم قال له علي : إنه حق ، وإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك ، قمت كأنى أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى ، ففعل . فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فدخل معه ، وسمع من قوله ، وأسلم مكانه. فقال له النبى : ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى . فقال أبو ذر : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فدفع عنه أذاهم وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجاركم إلى الشام ؟ ثم عاد أبو ذر من الغد لمثل ما فعل ، فضربوه ، فأنقذه العباس منهم .

لم يكن أبو ذر من المهاجرين الأولين إلى المدينة ، بل ظل بمكة حتى وقعت غزوتا بدر وأحد ، ثم لحق بالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبلغ من ثقة الرسول به أن ولاه المدينة مرتين : الأولى حين غزا نجدا فى السنة الرابعة للهجرة ، يريد بنى مُحارب وبنى ثَعْلبة ، والثانية فى السنة السادسة للهجرة ، حين غزا بنى المصطلق بن خزاعة من حلفاء بنى مُدْلج ، على مقربة من قديد الواقعة على طريق المسافر من مكة إلى المدينة .

ولما عول الرسول على غزو الروم وتوطيد نفوذه فى شمال الحجاز فى السنة التاسعة للهجرة ، وجد تثاقلا من بعض أصحابه ، وتخلف عنه المنافقون بزعامة عبدالله بن أبى. وكان أبو ذر من الصحابة الذين رافقوا الرسول فى غزوة تبوك على بعد اثنى عشر فرسخا من المدينة . فلما خرج الرسول من ثنية الوداع

من ثنية الوداع ، صار يتخلف الرجل من أصحابه فيقول المسلمون: يارسول الله! تخلف فلان ، فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك أراحكم الله منه . وتلوَّم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ أخذ متاعه ، فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع رسول الله ماشيا ، ونزل الرسول فى بعض منازله ، فنظر أحد المسلمين فقال : يارسول الله ! إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال الرسول: كن أباذر . فلما تأمله القوم قالوا : يارسول الله ! هو والله أبو ذر ، فقال الرسول : « رحم الله أباذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » . فأخبره خبر بعيره ، فقال : إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفا ، لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنبا إلى أن بلغتنى .

لم يساهم أبو ذر الغفارى فى الفتوح العربية التى تمت فى عهد أبى بكر وعمر ، وبلغ من علو منزلته أن عمر لما أخذ فى توزيع العطاء على المسلمين ، ألحقه بمن شهد بدراً ، على الرغم من أنه لم يشترك فيها . وقيل إن أبا ذر ظل بالمدينة حتى استخلف عمر ، فخرج إلى الشام ، والتحق بديوانها ، وكان يتردد على المدينة ، ويتخلف بها ، إلى أن ولى عثمان بن عفان الخلافة .

رأى أبو ذر عثمان يعطى مروان بن الحكم مالا كثيرا ، ويمنح أخاه الحارث ثلثمائة ألف درهم ، ويعطى زيد بن ثابت الأنصارى مائة ألف درهم ؛ فأنكر ذلك ، وعبر عن استيائه بقوله : بشر الكافرين بالنار ، وصار يتلو قول الله تعالى فى سورة التوبة : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . ولما سمع مروان قول أبى ذر شكاه إلى الخليفة ، فأرسل إليه مولى له ينهاه عن قوله ، فلم يؤبه أبو ذر وقال : أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ؟ لأنْ أرضى الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أرضى عثمان بسخط الله . واستمر أبو ذر فى نقد سياسة عثمان الذى أمره بالرحيل الى الشام ، حيث وجه حملاته على سياسة عثمان وسياسة معاوية واليه على هذه البلاد .

ولم يكن أبو ذر فى سخطه وإنكاره على سياسة عثمان ، إلا معبرا عن آراء كثير

من المسلمين الذين أخذوا على عثمان ، أنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم، وامتلاك الضياع فيها ، وبدأت الثروات التى تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها فى نفوس العرب ، فتغريهم بالاستمتاع بها ، استمتاعا دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف ؛ فانتشر فى المدينة بعض ضروب من اللهو ، واضطر عثمان الى الضرب على أيدى أصحابها ، ونفى بعضهم عن المدينة ، فتذمروا وتذمر ذووهم وذوو فريق من الصحابة ، كعبد الله بن مسعود ، وأبى ذر الغفارى وعمار بن ياسر . . . .

هذا فى المدينة ، وهى حاضرة الدولة العربية وقلبها النابض . أما فى الولايات الإسلامية فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان طبقتان من الشعب ، هما : طبقة الأرستقراطيين ، وطبقة المقاتلين . أما طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة التى أوجدها عثمان فقد أباح لأفرادها أن يتملكوا الضياع ويشيدوا القصور فى الولايات الإسلامية كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم فى الحجاز أملاكا فى الأمصار . وقد أنشأ هؤلاء القوم أرستقراطية دينية ، سداها المال ، ولحمتها السبق فى الإسلام وصحبة الرسول .

ومن تلك الثروات التى وصفها المؤرخون ، نستطيع أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية ، مفتونين بما يفيضه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات . وكان نفر من هؤلاء الموسرين يتمنى أن يلى الخلافة واحد منهم ، لتكون لهم الحظوة ويعلو مقامهم . كما وجدت طبقة أخرى فقيرة معدمة أنشأها عمال عثمان الذين استأثروا بالفىء والغنائم لأنفسهم ، وحرموا المقاتلة ، مدعين أن الفىء لله ، وأنه ليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه . فلما رأى هؤلاء المحاربون ، وجلهم من البدو ، هذا الثراء الفاحش ، قد استأثر به الولاة والقواد من قريش ، حقدوا عليها ، وتمنوا الخلاص من سيادتها ، وأعلنوا أن الفىء والغنائم لهم ، وأنها ليست للحكومة ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله .

من هذا يتبين أن حالة الدولة الإسلامية قد تغيرت . وقد أثار هذا التغير روح المعارضة لسياسة الحكومة والإستياء من تصرفاتها ، وأثار التمرد عليها فى المدينة

وفى جميع الأمصار الإسلامية .

وهكذا كان الجو ملائما تمام الملاءمة ومهيئا لدعوة عبد الله بن سبأ ومن لف لفه ، والتأثر بها إلى أبعد حد .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم ، اشتهر بالورع والتقوى ، وعرف بالزهد فى عرض الدنيا ومتاعها . هو أبو ذر الغفارى ، وكان أبو ذر من أهل الصفة من الفقراء ، ولا يبعد أن يكون لهذا أثره فى ميوله الاشتراكية . وقد وفد ابن سبأ إلى الشام ، وحرض أبا ذر على معاوية وقال له : « يا أباذر! ألا تعجبْ إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إنّ كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين (أى من ديوان العطاء) ؟ » .

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن استياءه من سياسة معاوية ، ويحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء ، وعلى الإقلاع عن ادّخار الأموال وكنزها ، محتجا بقوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

كما لا نعجب أيضا إذا ألفينا الفقراء يلتفون حول أبى ذر ، ويسيئون إلى الأغنياء ، حتى شكوا ذلك إلى معاوية . فلما رفع الأمر إلى الخليفة عثمان ، أيقن أن الفتنة قد أخرجت خَطْمها(١) وعينها .

بعث عثمان فى طلب أبى ذر . فلما دخل المدينة ، ووجد الاجتماعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعْواء وحرب مذْكار . ومضى أبو ذر فى دعوته الاشتراكية ، والطعن على عثمان حتى ضاق به ، فأذن له الخليفة بالإقامة فى الربذة ، وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة ، أو نفاه إليها ، ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات فى سنة ٣١هـ .

---

(١) الخطم : مقدم الأنف والفم من الدابة والمراد هنا: بدأت أوائل الفتنة .

كان أبو ذر من جلة أصحاب الرسول ، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام . وقد عرف بالتفقه فى الدين ورواية الحديث . قال على بن أبى طالب ، الذى كان يقدره قدره ، حتى إنه شيعه حين خرج إلى الربذة ، وأثار بذلك غضب الخليفة عثمان بن عفان : « وعى أبو ذر علما عجز الناس عنه ، ثم أركأ عليه فلم يخرج منه شيئا ». وروى عنه كثير من الصحابة، كأنس بن مالك ، وعبدالله بن عباس ، وأبى أدريس الخولانى . ولما شيع علىّ أبا ذر وودعه وأراد الانصراف ، بكى أبو ذر وقال : « رحمكم الله أهل البيت ! إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ، ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ فشكا مروان بن الحكم إلى عثمان ، فقال عثمان : « يامعشر المسلمين ! منْ يعذرنى من علىّ ؟ رد رسولى عما وجهته له ، وفعل كذا وكذا ، والله لنعطينه حقه ». فلما رجع علىّ استقبله الناس فقالوا : « إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أباذر » ، فقال على : « غضب الخيل على اللجم » ثم جاء . فلما كان بالعشى ، جاء إلى عثمان فقال له : « ما حملك على ما صنعت بمروان ، واجترأت علىّ ، ورددت رسولى وأمرى ؟» قال: أما مروان فإنه استقبلنى يردنى ، فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده . ، قال عثمان : « أولم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ فقال على : أو كل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة لله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل . قال عثمان : « أقيد مروان ؟» قال : « وما أقيده !» قال : « ضربت بين أذنى راحلته » . قال على : أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل . . . فلما كان من الغد ، واجتمع الناس إلى عثمان ، شكا إليهم عليا وقال : «إنه يعيبنى ويظاهر من يعيبنى» ، يريد بذلك أبا ذر ، وعمار بن ياسر ؛ فدخل الناس بينهما ، وقال له على : « والله ما أردت تشييع أبا ذر إلا لله » .

وكان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ينزل أبا ذر من نفسه منزلة رفيعة، ويذكر له سبقه إلى الإسلام وتفانيه فى نصرته . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبو ذر فى أمتى على زهد عيسى بن مريم ». وروى عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء ، أصدق لهجة من أبى ذر » . «وروى الطبرانى«أن رسول الله كان يبتدىء أبا ذر إذا حضر ويتفقده إذا غاب» ، وروى عن الرسول أنه قال : « أمرنى الله عز وجل بحب أربعة ، وأخبرنى أنه يحبهم : على ، والمقداد (بن الأسود) وأبو ذر ، وسلمان » .

وقد روى أنه لم يكن مع أبى ذر فى الربذة إلا امرأته وغلامه ، فلما شعر بدنو أجله ، أوصاهما أن اغسلانى وكفنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق . فأول رَكْب يمر بكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعينونا على دفنه . فلما توفى وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق ، فلم يَرُعْهُم إلا الجنازة على ظهر الطريق ، قدكادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعينونا على دفنه . فبكى عبدالله بن مسعود وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك » . ثم نزل هو وأصحابه فواروه .

٢٠ – عبد الله بن عمر

ما من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر

يعد عبدالله بن عمر فى طليعة الصحابة ، الذين عرفوا بالزهد والورع وتبحروا فى رواية الحديث وتفسير القرآن والتمسك بأهداب السنة القويمة ، حتى لقد قيل فيه : مامن أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر . كما قيل إنه أحد الأعلام فى العلم والعمل ، وقيل : هو حبر هذه الأمة لتبحره فى العلم ، وقيل : يُقتدى بعمر فى الجماعة وبابنه فى الفرقة ، أى ماتفرقت كلمة المسلمين وأصبحوا شيعا . وهو ابن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى ، وأمه زينب بنت مظعون الجمحية ، وأخته حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد عبدالله سنة ثلاث من البعثة النبوية، وشب فى هذه البيئة المكية المترفة ، وترعرع فى ذلك البيت القرشى الكريم ، حتى ألان الله قلب أبيه للإسلام ، وانبثق من قلبه نور الرسالة المحمدية بعد أن كان من ألد أعدائها وأعتى المدافعين لها ، فأسلم ثم أسلم معه ولده عبدالله وهو لم يزل طفلا صغيرا ، فكان من أول من أسلم من الصبيان . وقد غدا أبوه بعد إسلامه من أشد الناس إخلاصا لله ورسوله ، كما غدا عبدالله من أكثر الصبيان إخلاصا لله ورسوله .

شب عبدالله فى حجر الفاروق عمر ، فنشأه على خير ما ينشىء المؤمن الحق فلذة كبده ؛ فنبض قلبه بالإخلاص وعمر صدره بالاسلام ، حتى إذا قضى الله أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة فارا بدينه ، خرج عبد الله مع المهاجرين وهو فى العاشرة من عمره ، بل قيل إنه هاجر قبل أن يهاجر أبوه .

ولما حط عبدالله رحاله فى المدينة، اندمج فى الحياة الجديدة التى قامت فيها بعد

الهجرة النبوية . ثم شرع الله الجهاد ، وكتب على المسلمين أن يقاتلوا المشركين دفاعا عن دينهم ، باذلين النفس والمال دون ذلك . وقد أبى عبدالله وهو لم يزل بعد فتى غض الإهاب إلا أن يبذل دمه فداء للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: فقد تطوع للقتال يوم بدر ، فاستصغر الرسول سنه ، فنكص عبد الله على عقبه آسفا إذ لم تتحقق رغبته فى الإندماج فى صفوف المسلمين . حتى إذا وقعت غزوة الخندق كان عبدالله قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، وقد شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال واشترك فى القتال ، فطابت نفسه بتحقيق الأمنية التى كانت تجيش فيها . ولما هم المسلمون بفتح مكة ، كان عبدالله بن عمر فى طليعة من اشتركوا فى القتال من فتية المهاجرين . وكان إذ ذاك فى العشرين من عمره .

وقد شاء الله أن يُقبل ذلك الشاب على عهد جديد من تاريخ حياته . فقد شرح الله صدره وعمر قلبه بالإيمان : وكان لا يزال غلاما يافعا ، جاءته الهداية فى صورة رؤيا رآها وهو نائم فى المسجد بعد الصلاة ، قال : رأيت فى المنام كأن ملكين أتيانى ، فذهبا بى . فقصصت الرؤيا على حفصة ، فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل . »

وكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا ، يقضيه متعبداً متبتلا خاشعاً إلى الله عز وجل .

وقد بلغ من رقة قلب عبدالله بن عمر وشدة حبه لرسول الله ، أنه كان يبكى إذا ذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا مر بمشهد من مشاهده أغمض عينيه فسحت دموعه . وكان إذا قرأ القرآن بكى حتى غلبه البكاء . هكذا شرح الله صدر عبدالله وهداه ، فأقبل على رواية الحديث وتفسير القرآن حتى برع فيهما فى عهد الرسول وبعد وفاته .

ثم قبض أبو بكر الصديق وتمت البيعة لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . ولما طعن عمر بخنجر أبى لؤلؤة وشعر بدنو أجله ودخل عليه نفر من الصحابة

رضوان الله عليهم فقالوا له: « يا أمير المؤمنين! لو استخلفت » قال « ومن أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته. فقال رجل أدلك عليه، عبدالله بن عمر، فقال عمر: « قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا، لا ارب لنا فى أموركم. ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. »

ولما خشى أصحاب رسول الله أن يقضى عمر نحبه دون استخلاف ذهبوا اليه، مرة أخرى وقالوا: « يا أمير المؤمنين لو عهدت! فقال: « عليكم بهؤلاء الرهط الذى مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وقال فيهم إنهم من أهل الجنة: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبدالله ابن عمر.

هذا رأى عمر فى ولده عبدالله. ولم يكن ذلك لهوى فى نفسه، إنما كان اعترافا بالأمر الواقع، اعترافا بما لابنه من علم وفضل وورع وتقى، مما اضطر بعض الصحابة أن يرشحه للخلافة بعد أبيه. وكان عمر — كما نعلم — أبعد الناس عن الهوى، كما كان من أكثر الصحابة عدلا وفضلا حتى سمى الفاروق.

هكذا اشترك عبد الله بن عمر فى اختيار عثمان، لم يرشحه إلا علمه وورعه وفضله.

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان لم يغفل ما لعبد الله من فضل وعلم، بل وثق به وأدناه، وكان يختاره لمهام الأمور. فلما أصبحت الحالة فى البصرة والكوفة ومصر من الحرج بمكان، اضطر عثمان إلى ندب أربعة من مشاهير الصحابة ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات الإسلامية، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وعاد هؤلاء إلى الخليفة إلا عمار بن ياسر الذى استماله الثائرون فى مصر.

ثم قتل عثمان واندلعت ألسنة الفتنة فى المدينة وفى مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية، وعولت حفصة بنت عمر على الخروج مع عائشة، ولكن أخاها عبدالله ثناها عن عزمها. وقد عمل طلحة والزبير على استمالة زعماء البصرة، واستمالا عبدالله بن عمر فقالا له: يا أبا عبدالرحمن! إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس، فاشخص معنا فإن لك بها أسوة، فان بايعنا الناس فأنت أحق بها. فقال: «أيها الشيخان! أتريدان أن تخرجانى من بيعتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم، وإنى قد تركت الأمر عيانا فى عافية أنالها.» ثم عاود طلحة والزبير عبدالله بن عمر لعله يعدل عن رأيه الأول، فلم يكن منه إلا التمسك به، إذ كان يرى فى القعود النجاة والخير، كما كان يرى فى انزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم؛ إذ يقول لطلحة والزبير: واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وانتما المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه. وأما الشورى فقد والله كانت. فقدّما وأخرتما، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها، فاكفيانى أنفسكما، ولم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين.

ولم تكن بيعة عبدالله بن عمر لعلى بن أبى طالب انتقاصا من مقامه أو حطا لكرامته، إنما كان ذلك بُعدًا بنفسه عن التيارات السياسية المصطخبة فى ذلك الوقت. فقد كان شأنه فى ذلك الوقت شأن عبدالله ابن عباس، ينصرف إلى علمه، يروى الحديث، ويفسر القرآن فى هدوء واطمئنان.

فلما قتل على وتم الأمر لمعاوية بن أبى سفيان، سالمه عبد الله بن عمر كما سالمه كثير من أشراف قريش. فوفد عليه عبد الله بدمشق مع الوافدين؛ فأشركه معاوية فى حملة القسطنطينية التى اشترك فيها عبدالله بن عباس وأبو أيوب الأنصارى. ولما أحب معاوية أن يأخذ البيعة لابنه يزيد رفض عبدالله بن عمر أن يقره على

ذلك ، إذ رأى فى ذلك خروجا عن مبدأ الشورى الذى أقره الخلفاء الراشدون، ولم يُجْدِ تهديد معاوية أو وعيده ولا ذهبه أو فضته نفعا ، فاستمسك ابن عمر بالسنة والشورى ، ولم يبال أسخط معاوية أم رضى .

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة وبعث إلى عامله على المدينة لأخذ البيعة له من المعارضين من أمثال ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير : بايعه ابن عمر كما بايعه ابن عباس، متوخيا سياسة الحكمة التى أخذ نفسه بها لينجو بعلمه من مواطن الزلل .

وقد أخذ عبدالله نفسه مذ وطئت قدماه أرض المدينة المنورة برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظه ، فاشتهر بروايته وتفقه فيه ، حتى قيل إن عبد الله بن عمر أقام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ستين سنة يقدم عليه وفود الناس . وقيل فى رواية أخرى: انه لم يخف عليه شىء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبلغ من سعة علمه بالحديث وروايته وتفسيره، أن اعتبره الصحابة من أئمة الدين ، إذ قيل « إنّ إمام الناس بعد زيد : ابنُ عمر». وقيل أيضاً : « من أخذ بِقَوْل ابن عمر لم يَدَعْ من الاستقصاء شيئاً . »

وقد فاز عبدالله بن عمر بهذه الثقة التى لا حد لها فى رواية الحديث، لما عرف به من الدقة فى النقل والتحرج فى الرواية . فكان يَتحَفَّظُ ما سمع من الرسول الكريم صلوات الله عليه ، ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله . وكان يتبع آثار الرسول فى كل مسجد صلى فيه . وكان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله عرض ناقته فيها . وكان لا يترك الحج إذا وقف بعرفة، يقف فى الموقف الذى وقف فيه الرسول ، حتى قال فيه إسحاق بن سعيد : ما رأيت أحداً كان أشد اتقاء للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن عمر .

كان عبدالله بن عمر متبتلا صواما قواما . كان يحيى الليل صلاة ، ثم يقول : يانافع أسْحَرْنا ؟ فيقول : لا ، فيعاود، فإذا قال نعم ، فقد يستغفر الله حتى يصبح. وإذا فاتته صلاة العشاء فى الجماعة أحيى بقية ليلة . وكان يصلى ماقدر له، ثم يأوى

إلى فراشه ، فيغفى إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ثم يرجع .

كان يفعل ذلك فى الليل أربع مرات أوخمساً . وكان لا يصوم فى السفر ، ولا يكاد يفطر فى الحضر ، إذاسمع القرآن تذكر واعتبر ، وإذا تليت هذه الآية الكريمة : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » بكى حتى يغلبه البكاء. روى سعيد بن المسيب قال : لو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر ، وقال أيضاً : « ابن عمر حين مات خير من بقى » ، وقال أيضاً : « ما رأيت أحداً أروع من ابن عمر » ، وقيل : « هو مثل عمر فى الفضل . »

كان عبدالله مع ورعه وتقاه سمحا جوادا كثير البذل والعطاء ، يصبر على الإساءة ثم يعفو عنها . ومن أمثلة نجدته ماروى من أن صحابا مرّوا بإبل ابن عمر فاستاقوها ، فجاء الراعى فقال : « ياأبا عبد الرحمن ! احتسب الإبل ، وأخبره الخبر . » قال : فكيف تركوك ؟ قال : انفلتّ منهم لأنك أحب إلىّ منهم » فقال : « إنى أحتسبك معها ، فأعتقه لوجه الله ، كما أعتق جارية له يقال لها رمثة كان يحبها ، وقال : سمعت الله تعالى يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

وبلغ من سماحة عبدالله بن عمر وجوده ، أنه أعطى فى نافع مولاه عشرة آلاف درهم ، فما كان منه إلا أن قال : هو حر لوجه الله . وقدم ابن عمر براع فقال : «هل من جزرة ؟» ، قال : ليس ههنا ربها ، قال : تقول له إن الذئب أكلها ، قال : فاتق الله . فاشترى ابن عمر الراعى والغنم وأعتقه ووهبها له . ومن جميل أدبه أنه كان لا يلعن خادما قط . روى معمر عن الزهرى قال : ما لعن ابن عمر خادما قط إلا واحدا فأعتقه : وأراد مرة أن يلعن خادما فقال : اللهم الع . . فلم يتمها وقال إنها كلمة ما أحبّ أن أقولها .

وكان عبدالله يصبر على الإساءة ويغفر للمسىء . روى زيد بن أسلم قال : جعل رجل يسب ابن عمر وابن عمر ساكت . فلما بلغ باب داره التفت إليه فقال: «إنى وأخى عاصم لأنسب الناس . »

كان عبد الله بن عمر شجاعا ، يجهر برأيه فى غير ما خرف أو تردد ، ولا يخشى فى الله لومة لائم . روى أنه قام والحجاج يخطب ، فقال : « عدو الله استحلّ حرم الله ، وخرب بيت الله ، وقتل أولياء الله . » فقال الحجاج : مَنْ هذا؟ فقيل : عبد الله بن عمر ، فقال الحجاج : أسكت يا شيخا قد خَرّف . فلما صدر الحجاج ، أمر بعض الأعوان فأخذ حربة مسمومة فضرب بها رجل عبدالله بن عمر ، فمرض ، ودخل عليه الحجاج عائداً ، فسلم ، فلم يردّ عليه ، وكلمه فلم يجبه .

توفى عبد الله بن عمر سنة اثنتين وسبعين ، وقيل سنة ثلاث وسبعين ، وله من العمر أربع وثمانون سنة . غفر الله له وأقعده مقعد صدق عند عزيز مقتدر .

٢١ – عبد الله بن عباس

الإمام البحر عالم العصر

هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو الخلفاء . أحبه الرسول وقربه اليه وأدناه من قلبه . وعرف بالورع والتقوى والتبحر فى علم الحديث والتفسير، حتى قيل إنه حبر العرب، وأبو الخلفاء، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس. وسمى بالبحر لسعة علمه وغزارته. وهو ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى القرشى الهاشمى ، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية .

ولد عبد الله قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل بخمس سنين . وكان بنو هاشم إذ ذاك بالشعب ، حين رأت قريش أن مكايدهم التى دبروها للرسول الكريم قد أخفقت ، فأجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعاهدوا أنفسهم على الا يتعاملوا مع هذين البيتين ، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم أنفسهم ، ولا يتجرون معهم حتى يسلموا اليهم رسول الله ليقتلوه . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا، حتى جهدوا لا يصل إليهم شىء إلا سرا مستخفيا ممن أراد صلتهم من قريش . وهكذا ظل بنو هاشم مهجورين فى شعب من شعاب مكة الا فى الأشهر الحرم حيث حرم القتال فى كافة أنحاء بلاد العرب .

هكذا شب عبد الله فى حجر النبوة وترعرع فى نور الدعوة المحمدية . فقد كان - بحكم صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم - كثير الاتصال به ، يشهد عن كثب تطور الدعوة إلى الإسلام ، ويهفو قلبه الصغير إلى ذلك الدين الجديد الذى أظل نوره أرض مكة كلها . وكان الرسول يحب أهله وينزل عمه العباس من نفسه منزلة خاصة، فأحب عبد الله لأنه كان يحب أباه العباس . روى ان الرسول دعا عبد الله وهو صغير يدب على الأرض ، فمسح رأسه وتفل فى فيه وقال : اللهم فقهه فى

الدين وعلمه التأويل . ويبدو أن عبد الله كان يحس هذه النعمة الكبرى . فكثيرا ماكان يدخل بيت الرسول ، فإذا ألقاه يتوضأ سكب له الماء . وقد سر الرسول لذلك . فلما فرغ عبدالله دعا له ، ثم أجلسه فى حجره ومسح رأسه ودعا له بالعلم، وقال : اللهم بارك فيه وانشر منه . ولا يذكر الرواة كيف أسلم عبدالله، ولكنهم يذكرون أنه صلى خلف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو صغير، لما يبلغ السابعة أو الثامنة من عمره . وروى عبد الله نفسه ذلك فقال : صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدى فجرنى حتى جعلت حذاءه . فلما أقبل على صلاته خنستُ، فلما انصرف قال لى: ماشأنك ؟ فقلت : يارسول الله ! أو ينبغى لأحد أن يصلى حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا لى أن يزيدنى الله علما وفهما . وذكر الرواة أيضا أن عبدالله انطلق إلى دار الرسول وهو صغير، ثم دخل عليه فرأى رجلا ليس له به عهد ، فعاد الى أبيه العباس مذعورا خائفا،فقال له ابوه العباس: إنك قد رأيت جبريل عليه السلام .

ثم هاجر عبد الله إلى المدينة مع من هاجر من أهل مكة من المسلمين . ولم تذكر الرواية عن حياته فى المدينة إلا النزر اليسير .فقد ذكروا أنه كلف برواية الحديث منذ نعومة أظفاره ،كما حفظ القرآن .ثم توفى الرسول وكان عبد الله فى الثالثة عشرة من عمره ، وقيل فى الخامسة عشرة ، وقيل أيضا إن الرسول توفى وهو ختين . وروى عبد الله عن نفسه فقال : أقبلت وأنا راكب على حمار أتان ، وأنا يومئذ قد ناهزت من الاحتلام ، والنبى صلى الله عليه وسلم يصلى .

ثم توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشب عبد الله عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال،وتفتحت أكمام قلبه وعقله ، فأينعت بالعلم والتقوى ، فأخذ يجمع الحديث ويتفقه فى القرآن،ويفتى فى الناس حتى لقد قيل: إنه جلس للقضاء بين الناس . وكان فى منزلة أعلام الصحابة مثل عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر . حتى إذا توفى أبوبكر وآلت الخلافة إلى عمر ،كان عبد الله قد بلغ فى العلم غايته وأتاه الناس من كل فج ينهلون

من علمه ويبتغون من فضله . وقد أحبه عمر بن الخطاب حبا جما ، وأدناه وقربه وشاوره ، شأنه شأن جلة الصحابة رضوان الله عليهم . وكان عمر يقول: ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سئول ، وقلب عقول . كما كان يقول : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس ، لو أدرك أسناننا ما عاشره منا رجل » . كما قال أيضا : ما سمعت فتيا أحسن من فتيا ابن عباس إلا أن يقول قائل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذا رأى عمر الفاروق فى ذلك الفتى العالم ، فأنعم به من رأى . وهو ان دل على شيء ، فإنما يدل على سماحة خلق وغزارة علم ورجاحة عقل .

كان عبد الله يجل عمر ويحترمه . روى أن رجلا قدم على عمر فسأله عن الناس فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آى القرآن، قال فزبرنى(١) عمر، فانطلقت إلى منزله فقلت : ما أرانى إلا قد سقطت من نفسه. فبينا أنا كذلك إذ جاءنى رجل فقال :أجب ! فأخذ بيدي ثم خلا بى فقال: ما كرهت مما قال الرجل؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ! إن كنت أسأت فاستغفر الله. قال : لتحدثنى ! قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ومتى اختلفوا ضلوا ، قال : لله أبوك ، لقد كنت أكتمها الناس . وكان عبد الله بن عمر ، برغم ما نعم به من منزلة رفيعة فى العلم يقول : اذا سأله سائل عن شيء ، سل ابن عباس ، فانه أعلم من بقى بما أنزل الله على محمد .

ومما يدل على المكانة السامية التى كان يتمتع بها عبدالله بن عباس فى مجلس عمر بن الخطاب ، أن الحطيئة نظر إليه فى المجلس وقد قرع بكلامه ، فقال الحطيئة : من هـذا الذى نزل على القوم بسنه وعلاهم فى قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس فأنشد يقول :

إنى وجدت بيان المرء نافلة
تهدى له ووجدت العى كالصمم

(١) زبر زبرا من باب قتل بمعنى زجر أو نهر .

المرء يبلى ويبقى الكلم سائرة
وقد يُلام الفتى يوماً ولم يُلِم

ثم تمت البيعة لعثمان ، فظفر عبد الله من رعايته مثلما ظفر من رعاية عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . ولا غرو فقد كان فحل بنى هاشم علما وأقربهم إلى الرسول رحما . فلما أمر عبدالله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان بغزو إفريقية سنة سبع وعشرين للهجرة ، بعث إليه فيمن بعث من جلة الصحابة عبدالله بن عباس ؛ فاشترك فى القتال وأبلى فيه البلاء الحسن ، لأنه كان حريصاً على أن يعفر جبهته بتراب الغزو فى سبيل الله ، اكتسابا للأجر وفوزا بالجنة التى أعدت للشهداء والقديسين .

ولما أراد عثمان بن عفان فتح بلاد طبرستان ، سير إليها جيشاً بقيادة سعيد بن العاص ، ثم بعث إليه بنفر من خيار الصحابة منهم : الحسن والحسين ، وعبدالله بن عباس ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام . واضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح ، وتعهد بأن يدفع مائتى ألف درهم كل سنة . وقد أحب عبدالله بن عباس عثمان كما أحب عمر . فقد روى عنه أنه قال فيه : رحم الله أبا عمرو ! « كان والله أكرم الجعدة(١) وأفضل البررة ، هجاداً بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهاضاً عند كل مكرمة ، سباقا عند كل منحة ، حييا أبيا وفيا ، صاحب جيش العسرة وختن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأعقب الله على من يلعنه لعنة اللاعنين إلى يوم الدين » .

كان عثمان يثق فى عبدالله بن عباس ثقة كبيرة ، فأمره على الحج فى السنة التى قتل فيها . ولم يكن عبدالله برغم حبه لعثمان يتورع عن مواجهته بالحق إذا اقتضى الأمر ذلك . روى أن جماعة من الصحابة منهم عبدالله بن عباس وفدوا على عثمان فى حاجة ، فراجعوه إلى أن عذروه إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم ير بدا من أن يقضى حاجة الوفد .

---

١ — الجعدة أى أكرم الناس .

وقد ارتاع عبد الله بن عباس لمقتل عثمان وأعرب عن شديد أسفه ، إلا أنه اضطر بسبب صلة القربى بعلى بن ابى طالب أن يقف الى جواره حين أصبح الصراع سافرا بين بنى هاشم وبنى أمية الذين طالبوا بدم عثمان . وقد أحبه علىّ وأجله وقال فيه : إنا لننتظر الى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته ، كما قال ايضا لما علم بتفسير ابن عباس قول الرسول : لم أكن لأحرقهم » . . . ويح ابن أم الفضل (يعنى ابن عباس) إنه لغواص . فلما تمت البيعة لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه ولى ابن عباس البصرة ، فانتقل اليها بعلمه وأخذ يفسر القرآن للناس بمسجدها فى شهر رمضان . ولما التقت جموع على ومعاوية يوم صفين، كان عبد الله ابن عباس على ميسرة جند على ، فاشترك فى القتال وأبلى فيه البلاء الحسن . فقد كان يذب عن قضية الهاشميين عموما ، وكان لا بد من أن ينصر عليا ؛ فقد قيل : انصر أخاك ظالما أو مظلوما . ثم كانت خدعة التحكيم ، واجتمع الحكمان : عمرو ابن العاص عن معاوية، وأبو موسى الأشعرى عن على ، وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافدوا بدومة الجندل .

ويظهر أن ابن عباس كان يشفق من نتيجة التحكيم ويخشى أن يخرج منها ابن عمه على مخذولا . فقد ذكر الرواة أنه لما دنا وفد على من موضع الاجتماع ، قال عبد الله لأبى موسى : « إن عليا لم يرض بك حكما لفضل على غيرك ، والمتقدمون عليك كثيرون، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشر يراد بهم . وقد ضم داهية العرب معك. إن نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة . » ومع هذا لم يكن ماقاله عبد الله بن عباس لأبى موسى من شأنه أن يرضيه ولا أن يبعثه على الاخلاص والشدة فى نصرة على . وقد فطن عبد الله للخدعة التى دبرها عمرو فصاح فى أبى موسى قائلا : « ويحك إنى والله لأظن عمرا قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا

فيما بينك وبينه . فاذا قمت فى الناس خالفك » . وقد صدقت ظنون عبد الله بن عباس ، فقد خُذل على فى التحكيم .

ثم قتل على واستتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، فلم يشأ أن يقف منه موقف العداء . فقد كان عبد الله بن عباس رجل علم يحب أن يجنب نفسه مواطن الشطط ، فوفد عليه بدمشق مع من وفد عليه من اشراف قريش ، من أمثال عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان . وكان معاوية — برغم اختلافه مع ابن عباس فى الرأى — يجله ويقدره حق قدره ، فأشركه فى الجيش الذى أعده لفتح القسطنطينية سنة ٤٨ هـ واشترك فيه عبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى . وبلغ إعجاب معاوية بعبد الله حدا جعله يقول فيه الشعر متمثلا ؛ فقد روى أنه أنشد :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل
مصيب ولم يُثنِ اللسان على هجر
يُصَرِّفُ بالقول اللسانَ إذا انتحى
وينظر فى اعطافه نظر الصقر

ولما مات معاوية وأخذت البيعة لولده يزيد، تخلف عبد الله بن عباس عن البيعة مع من تخلف من أشراف مكة من أمثال الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، فكتب يزيد الى الوليد بن عتبة عامله على المدينة أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر ، فبايعه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، إذ يبدو أن عبد الله بن عباس لم يحب أن ينغمس فى التيارات السياسية انغماسا يصيبه منه أذى . فلما أراد الحسين بن على أن يخرج الى الكوفة تلبية لنداء أهلها، عارضه ابن عباس ونصحه بعدم السفر ، وقال له : أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا دعوك إليهم ، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال . ولا آمن عليك أن يغرروك ويكذبوك

ويخالفوك ويخذلوك ، فلم يستمع الحسين لنصيحة عبد الله بن عباس ، فقتل فى كربلاء .

كان من نعم الله على عبد الله بن عباس أن هداه الله الى العلم صغيرا ، فشب على الورع والتقوى ، وعرف برجاحة العقل وسعة الصدر وشدة الايمان وغزارة العلم مذ بلغ مبلغ الرجال . ويظهر أن حبه المفرط للآثار النبوية الشريفة قد جعله يشغف بجمع الحديث ونقله وحفظه ، ليحفظ بذلك تراث السنة وأقوال الرسول ، حتى لا تتفرق بطول الزمن ، فيكون بذلك قد أدى لعلوم الشريعة خدمة جلى . فهو نبع الحديث ، وهو راويته الأول . ومما يدل على اهتمامه المبكر بجمع الحديث وتدوينه، ماروى من أنه لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم جاء عبدالله لرجل من الأنصار وقال له : هلم فلنسأل أصحاب الرسول فانهم اليوم كثير ، فقال له صاحبه : واعجبا لك! أترى الناس يفتقرون إليك ؟ فلم يلتفت عبدالله إليه ومضى يسأل الناس . وقال : فان كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل (أى فى القيلولة) فأتوسد ردائى على بابه، يسفى الريح على من التراب، فيخرج فيرانى فيقول : يا ابن عم رسول الله ! ماجاء بك ؟ هل أرسلت الى فآتيك؟ فأقول: لا،أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث .

ولم يكتف عبد الله بهذا ، فقد كان يدون الحديث ويكتبه . روى أنه كان يصطحب معه من يكتب له . وبلغ من تبحره فى علوم الحديث أنه ظفر بإعجاب الصحابة أجمعين . روى أن أبا هريرة كان يقول إذا سأله سائل عن حديث، انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . كما قالت فيه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : هو أعلم الناس بالحج . وكان الصحابة إذا تدارءوا فى أمر صاروا الى قول ابن عباس . واخرج البغوى عن طاووس أنه قال : أدركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سألوا عن شىء فخالفوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا هو كما قال ، ولذلك سمى ابن عباس بالبحر لغزارة علمه وتعدد موارده. وكان عمر بن الخطاب مع اجتهاده يعده للمعضلات . وقال القاسم بن محمد: ما رأيت

فى مجلس ابن عباس باطلا قط، وما سمعت فتوى أشبه بالسنة من فتواه . وكان أصحابه يسمونه الحبر . مدحه حسان بن ثابت فقال :

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه
رأيت له فى كل أحواله فضلا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل
بمنتظمات لاترى بينها فصلا
كفى وشفى ما فى النفوس فلم يدع
لذى اربة فى القول جدا ولا هزلا

ومن العلوم النقلية التى اشتغل بها المسلمون لفهم معانى القرآن الكريم علم التفسير . روى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آيات تعد علمهن إياه جبريل». فلما اتسعت الدولة العربية ودخل العجم فى الاسلام، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن ، وأخذ بعض الصحابة يشتغلون بالتفسير ، وفى طليعتهم عبد الله بن عباس ، الذى برع وجوّد حتى قيل فيه : نعم ترجمان القرآن ابن عباس. وقد آتاه الله من سرعة الخاطر ودقة الفهم ما جعله المصدر الأول للتفسير فى القرن الأول للهجرة ، حتى إن كبار المفسرين والشراح من أمثال عبد الله بن عمر كانوا يحيلون عليه . روى أن رجلا سأل ابن عمر عن قوله : كانتا رتقا ففتقناهما ، فقال : اذهب الى ذلك الشيخ فسله (يقصد ابن عباس) ، ثم تعال فأخبرنى . فذهب الى ابن عباس فسأله فقال : كانت السماء رتقاء لاتمطر والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات. فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال : « لقد أوتى ابن عباس علما صدقا . هكذا لقد كنت أقول ما يعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه قد أوتى علما . قرأ ابن عباس مرة سورة النور ثم جعل يفسرها فقال رجل : لو سمعت هذا الديلم لأسلمت .

وكان ابن عباس مع علمه متواضعا، إذا سئل عن شىء فكان فى القرآن أخبر به،

فان لم يكن وكان عن رسول الله أخبر به ، فان لم يكن وكان عن أبى بكر وعمر أخبر به ، فان لم يكن قال برأيه . وفى رواية ابن سعدة اجتهد .

كان عبد الله بن عباس أبيض طويلا مفرطا فى الطول، مشربا صفرة ، جسيما وسيما،صبيح الوجه يخضب بالحناء . روى عن مسروق أنه قال : إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس ، فاذا نطق قلت أفصح الناس ، فاذا تحدث قلت أعلم الناس .
ولكن عبدالله كان برغم جمال خلقه، جميل النفس، عالى الأخلاق،متواضعا فى غير ضعف ،كريما فى غير سرف، حليما حتى ليضرب المثل بحلمه . قيل : شتمه رجل فقال : إنك لتشتمنى وفى ثلاث : انى لاسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأحبه ، ولعلى لا أقاضى اليه أبدا ؛ وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ، ومالى بها سائمة ولا راعية ؛ وإنى لآتى على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثلما أعلم .

أصيب عبدالله فى بصره فى أواخر أيامه ، فلم يجزع ولم ييأس، إنما كان يقول:

انى وجدت بيان المرء نافلة يهدى له ووجدت ألعىّ كالصمم

توفى عبد الله بن عباس سنة ثمان وستين فى عهد عبد الملك بن مروان وصلى عليه محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب .

وهكذا كان ابن عباس إماما فى علمه ، قدوة فى خلقه ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

٢٢ - الحسن بن على

سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبى وشبيهه

الحسن بن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ، هو سِبط الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت الرسول سيدة نساء العالمين ، وهو سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبى وشبيهه . وشخصٌ هذا حَسَبُه وهذا نسبه ، وهذه عترته الشريفة ، جدير بأن نُترْجِم له ونضعه فى مصاف أعلام الصحابة ومشاهير المسلمين .

وُلد الحسن فى النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وقيل وُلد للنصف من شعبان سنة ثلاث للهجرة ، وقيل ولد بعد أحُد بسنتين . وكان بين أحُد والهجرة سنتان وستة أشهر ونصف . روى المؤرخون أن أم الفضل زوج الرسول صلى الله عليه وسلم رأت قبل أن يُولد الحَسن كأنّ عضوًا من أعضاء الرسول فى بيته . فلما قصت عليه الرؤيا قال : خَيْراً رأيت ، تلد فاطمة غلاما فتُرضِعيه بلبن قثم . فولدت فاطمة الحسن بعد ذلك بقليل .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن مات بَنُوه ولم يَبْق منهم الا فاطمة ، يريد أن يرى أبناءها وفلذة أكبادها يَدبون على الأرض فيملئون قلبه سعادة وغبطة . فما كاد يعلم بنبأ هذا الميلاد حتى خف إلى بيتها وقال : أرونى ابنى ماسَمَّيْتُمُوه ؟ قال على بن أبى طالب : سميته حَرْباً ، قال : بل هو حسن . فكأنّ الرسول الكريم قداختار له هذا الاسم الكريم . وبلغ من فرح الرسول بمولد هذا الطفل الميمون أن أمر بحلق رأسه ، وأن يتصدق بزنة شعره فضة ، كما أمر بنحر كبشين وزِّعت لحومهما على الفقراء .

هكذا ولد الحسن بن على فى هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والايمان ،

وفى هذا البيت المتواضع الذى أسس على الفضيلة وخَشْية الله عز وجل . فكأن عينيه قد تفتحتا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة .

وقد أحبه الرسول حبه لأبنائه وفلذات أكباده ، حتى لقد كان حبه إياه مضرب الأمثال فى بر الآباء بالأبناء وتواضع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم . فقد روى عن أسامة بن زيد أنه قال : طرَقْت النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة ، فخرج الىّ وهو مشتمل على شيء لا أدرى ماهو . فلما فرغت من حاجتى قلت ما هذا الذى أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فاذا الحسن على وركه فقال : هذا ابنى وابن بنتى ، اللهم إنّى أُحِبُّهُ فأحْبِبْهُ وأحْبِب منْ يُحِبُّهما . وروى أيضا فى معرض الحديث عن حَدَب الرسول على ابن بنته وبره به أن ابن عباس قال : كان الرسول حاملا الحسن على عاتقه فقال رجل : نعم المركب ركبت ياغلام ! فقال النبى : ونعم الراكب هو . وقد حدث أيضا أن الرسول كان بالمسجد يخطب المسلمين، فاذا الحسن فى قميص أحمر يمشى ويعثر، فقطع الرسول الخطبة ونزل من المنبر وحمله ووضعه بين يديه ثم قال : صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذا الصبى يمشى ويعثر ، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثى ورفعته . ألا أنعم بهذا البر وهذا الحب من الرسول الكريم .

روى الزبير بن العوام أن الحسن بن على جاء إلى النبى وهو ساجد فركب رقبته ، فلم ينزله حتى كان هو الذى نزل ، كما قال : لقد رأيته يجيء وهو راكع ، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر . حدث حاتم بن إسماعيل عن معاوية بن أبى مزرد عن أبيه عن أبى هريرة قال : سمعتْ أذناى هاتان ، وأبصرت عيناى هاتان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكف الحسن وقدماه على قدم الرسول وهو يقول : حَزَقّة حزقة ترق عين بَقّة ، فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ، ثم يقول له افتح ، ثم يقبله ويقول : اللهم أحبه فانى أحبه .

ومن آيات حب الرسول للحسن ماروى من أن عليا وفاطمة دخلا على

الرسول ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما فى حجره ، فقبلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالاخرى ، فجعل عليهم خميصة سوداء وقال : اللهم إليك لا إلى النار .

وماكاد الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول الكريم يعلمه مما علمه الله وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد . روى عن الحسن أنه قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر : اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يَذِلُّ من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت.

وقد أخذ الرسول الكريم يَبُثُّ فى قلب الحسن الغَضّ حب الحق والعدل والإيثار ، ويَنْفُخُ فى روحه الصبية القناعة والرضى . فقد روى عن الحسن أنه قال : أذكر من رسول الله أنى أخذت تمرة من تمر الصدقة فتركتها فى فمى ، فنزعها بلعابها ، وجعلها فى تمر الصدقة ، فقيل: يارسول الله ! ماكان عليك من هذه التمرة؟ قال : إنا آل محمد لا تَحِلُّ لنا الصدقة. وكان يقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الكذب ريبة والصدق طمأنينة ، وكان يعلمنا هذا الدعاء .

وكان الله جلت قدرته يعلم بحب الرسول بنيه وبره بأهله وذويه ، فأكرمه جلت قدرته وعلت أيما إكرام ، فأنزل هذه الآية على النبى : «إنما يريد الله لِيُذْهِبَ عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . فدعا الرسول فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلىّ خلف ظهره وقال : هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت أم سلمة زوجة الرسول : وأنا معهم يارسول الله ؟ قال: أنت على مكانك ، أنت إلى خير . ولما أحس الرسول أن النهاية قد آذنت وأنه ملاق ربه عما قريب ، أوصى المسلمين بآله خيرا وقال : إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتى أهل بيتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما .

قُبض الرسول صلى الله عليه وسلم والحسن لم يجاوز الثامنة من عمره. ولكنه رغم هذه السن الغضة، وعى الشيء الكثير وتأدب بآداب الرسول الكريم، وتخلق بأخلاقه.

ثم بويع أبو بكر بالخلافة وكان الحسن مازال حدثا صغيرا لم يكن قد بلغ مبلغ الرجال بعد. ولم تذكر الرواية شيئا يذكر عن حياته فى عهد أبى بكر ولا فى عهد عمر. ويخيل إلينا أنه كان ينشأ كما ينشأ فتية الصحابة وأبناؤهم: يحفظ القرآن ويروى الحديث ويتأدب بآداب السنة المحمدية.

فلما آلت الخلافة إلى عثمان، كان الحسن قد بلغ العشرين: اكتملت رجولته، وبلغ فى الأدب وسمو الخلق الغاية، وأشرف فى العلم على النهاية. فلما هم عثمان بفتح طبرستان، أعد لذلك جيشا بقيادة سعيد بن العاص، فانخرط الحسن فى سلكه ومعه من جلة الصحابة رضوان الله عليهم: عبدالله بن العباس، وعمرو بن العاص، والزبير بن العوام، لأنه أحب أن يناله ثواب الغزو فى سبيل الله وأجر السعى فى فى جهاد عدو الله. وقد اضطر ملك جرجان إلى طلب الصلح من سعيد بن العاص، وعادت الحملة موفقة مظفرة، وآب الحسن إلى المدينة يحيا حياته الأولى، من إقبال على القرآن والحديث والتفقه فيهما. ثم امتحن المسلمون بفتنة عثمان وحوصر فى داره بالمدينة، وكان على بن أبى طالب مع اختلافه معه فى الرأى لا يحب أن يسفك ذلك الدم الزكى، فبعث بالحسن إلى دار عثمان ليحميه ويشترك مع شباب قريش فى الدفاع عنه ورد الثائرين.

ولكن الله أراد أن يقتل عثمان وأن يسفك دمه، وأن تجتاح الفتنة العالم الإسلامى، فقد بويع علىّ بالخلافة وانتقل إلى الكوفة. ولا شك أن الحسن والحسين قد رحلا إلى هذه المدينة ليكونا بجوار أبيهما.

ومع أن الرواة لم يذكروا أن الحسن والحسين قد ساهما فى المعارك التى خاضها أبوهما دفاعا عن حقه، يخيل إلينا أنه لابد أن يكون لكل منهما نصيب فى هذه الحرب الضروس التى كادت تفنى الفريقين. فقد كان الحسن قد جاوز الثلاثين من

عمره. ولم تصرف الخلافة وأبهتها عليا عن أخذ الناس بالسَّويَّة، لافرق فى ذلك بين قريب أو بعيد. فقد كان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما، فكانا يعيشان فى الكوفة عيشة الزاهد المتقشف بعدا عن الدنيا وإيثارا للآخرة وثوابها.

فلما قتل على لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ٤٠ للهجرة، قتل قاتل أبيه، ثم بايعه أهل العراق، وبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما يليه من خراسان والحجاز واليمن وغيرها. ومما يوضح أخلاق الحسن خير توضيح هذه الخطبة التى قالها يوم مات أبوه. فقد صعد المنبر وقال بعد حمدالله عز وجل: إنا والله ماثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فسُلبت السلامة بالعداوة. والصبر بالجزع، وكنتم فى منتدبكم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم. ألا وإنا لكم كما كنا ولستم لنا كما كنتم. ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون ثأره. فأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر. ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة؛ فان أردتم الموت وددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بظباء السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضاء.

وإن دل هذا على شىء، فإنما يدل على أن خلافة الحسن لم تثبت أمام قوة معاوية وما كان من رواج الإشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام، مما أدى إلى تخلى أهل العراق عنه، فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين. ومما هو جدير بالذكر أن الحسن كان زاهداً فى الدنيا، عزوفا عن الملك والسلطان. فقد رُوى أنه ترك الملك والدنيا رغبةً فيما عند الله، وكان يقول: ماأحببت أن ألى أمر أمة محمد على أن يهراق فى ذلك محجمة دم. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف فيه دماثة الخلق ورقة الطبع ولين العريكة، فكان يقول: إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به فئتين من المسلمين. روى حماد بن زيد عن على بن زيد وهشام قال: نظر الحسن إلى الناس أمثال الجبال فى الحديد فقال:

اضرب هؤلاء بعضهم ببعض فى ملك من ملك الدنيا لاحاجة لى به .

وقد أرسل الحسن إلى معاوية يعرض تسليم الأمر إليه على ألا يطالب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء مما كان فى أيام أبيه ، فأجابه معاوية إلى ما طلب ، وتم ذلك فى منتصف شهر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين للهجرة ، فتكون خلافته سته أشهر واثنى عشر يوما . روى عقبة بن الحارث قال : صلى بنا أبو بكر العصر ، ثم خرج ، فرأى الحسن بن على يلعب ، فأخذه ، فحمله على عنقه وهو يقول : بأبى ، شبيه بالنبى ، ليس شبيها بعلى ، وعلى يضحك ، كما كانت فاطمة تُنَقِّر الحسن وتقول مثل ذلك .

قدم الحسن على معاوية فقال : لأجيزنك بجائزة ماأجزت بها أحدا قبلك ولا أجزيها أحدا بعدك ، فأعطاه أربعمائة ألف . كما قيل إن معاوية أجرى عليه فى كل سنة ألف ألف درهم . وكان معاوية يعلم أن الحسن أكره الناس للفتنة ، فراسله وأصلح ما بينهما . روى عن الحسن أنه قال لعبد الله بن جعفر : إنى رأيت رأيا أحب أن تتابعنى عليه ، قلت : ماهو ؟ قال : رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل ، قال : فقلت له : جزاك الله خيرا عن أمة محمد ! فقد غضب أهل العراق على الحسن لمبايعته معاوية ، فكانوا يقولون له : يا عار المؤمنين ! فيقول العار خير من النار . وقد خطب الحسن فى وفود أهل العراق فى قصر المدائن فقال : إنكم قد بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى وتحاربوا من حاربنى . وإنى قد بايعت معاوية ، فاسمعوا وأطيعوا !

أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى الولايات الإسلامية كلها . وقد أثر عن الحسن أنه قال يوم دخل معاوية الكوفة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ : « ألا إن أكيس الكَيْس التُّقى وإن أعجز العجز الفجور . وإن هذا الأمر الذى اختلفتُ أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به منى وإما أن يكون حق تركته لله عز وجل لإصلاح أمة محمد وحقن دمائكم . ثم التفت إلى معاوية وقال : وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .

وكان الحسن حليما كريما وورعا : دعاه ورعه وفضله إلى ترك المُلك والدنيا رغبة فيما عند الله تعالى . وكان لا يحج إلا ماشيا ، وكان يقول : إنى لأسْتَحْيى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته . وكان يتصدق بماله ويقاسمه الفقراء والمعوزين . رُوى أنه قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات : فكان يترك نعلا ويأخذ نعلا ، ونزل عن ماله كله مرتين ، وكان حليما جواداً تقياً يصوم النهار ويقوم الليل .

توفى الحسن سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل إنه مات مسموما. روى ابن عون عن عمير بن إسحاق قال : دخلت أنا وصاحب لى على الحسن بن على فقال : لقد لفظت طائفة من كبدى ، وإنى قد سقيت السم مراراً ، فلم أسق مثل هذا ، فأتاه الحسين ، فسأله من سقاه ، فأبى أن يخبره .

وقد اختلف المؤرخون فى سبب موت الحسن، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه فى الطواف بزج مسموم، وقال آخرون: إن معاوية دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس بأن تسم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته ، فقال لها معاوية : إن يزيد منا بمكان ، وقد يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ، وعوضها عنه مائة ألف درهم.

ولما حضرت الحسن الوفاة ، أرسل إلى عائشة يطلب منها أن يُدفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجابته إلى ذلك ، فقال لأخيه الحسين : إذا أنا مِتُّ فاطلب إلى عائشة أن أدفن مع النبي فان أذِنَتْ فادْفِنىِّ فى بيتها ، وإن أبى بنو أمية فادفنى بالبقيع . وقد أبى بنو أمية أن يثوى جدثه إلى جوار جثمان جده الطاهر ، فدفن بالبقيع .

حدث ثعلبة بن أبى مالك قال : شهدت الحسن يوم مات ودفن فى البقيع . فلقد رأيت البقيع ، ولو طرحت فيه إبرة ما وقفت إلا على رأس إنسان .

وهكذا عاش الحسن بن على زاهداً متواضعاً ، ومات زاهداً متواضعاً رحمه الله وأجزل له المثوبة .

٢٣ — الحُسَيْن بن على

سَبْط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة

الآن نعرض لسيرة الحسين بن على بن أبى طالب سبط الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة وخامس أهل الكساء . أمه فاطمة الزهراء بنت خديجة زوج الرسول وأول من أسلم من النساء ، وأبوه على بن أبى طالب العابد الزاهد المتقشف الذى أسلم صبيا ومات شهيدا .

ولد الحسين بالمدينة المنورة بعد أن هاجر الرسول إليها ، وذلك فى خمس خلون من شهر شعبان سنة أربع من الهجرة : فكأنه ولد بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر . فتتابع الحسن والحسين كما تتابع البدور والأقمار . وقد سر الرسول لميلاد الحسين كما سر لميلاد أخيه الحسن من قبل . فلما ولدته أمه ذهب إلى بيتها ، فأكرمها وسماه حسينا . ولما ولدت ابنها الثالث سماه محسنا ، ثم قال : سميتهم بأسماء ولد هارون : شبر وشُبَير ومشبر . وروى عن عمران بن سليمان قال : الحسن والحسين من أسماء أهل الجنة ، لم يكونا فى الجاهلية . وإن فى اختيار الرسول هذا الاسم لحكمة كبرى : فإن الحسين فى طليعة من ولد للمهاجرين بالمدينة ، ولد من أم بتول وأب من أخلص أنصار الرسول ، فاختار له اسما لم يكن للجاهليين به عهد .

شب الحسين فى هذه البيئة الزكية كما شب أخوه الحسن . كانا صنوين فى الخير والفضل ووفرة الإيمان . وقد رضعا من لبان التقى وربيا فى كنف الهداية والإيمان . وأحب الرسول الحسن كما أحب الحسين سواء بسواء ؛ ولكنه كان يفرط فى حب الحسين . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، وحسين سبط من الأسباط » . كما روى عنه أنه قال : الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا » . وقد ضرب صلى الله عليه وسلم أكرم

الأمثال فى رحمة الأبوة وبرها وحدبها . فقد أحب حسينا فأفرط فى حبه ، وقربه من نفسه . فكان يضعه من فؤاده . ومن دلائل بره عليه أفضل الصلاة والسلام ببنيه ، أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يديه وهو يقول : هى حسن ، فقالت فاطمة : لِمَ تقول هى حسن ؟ قال : إن جبريل يقول هى حسين .

ومن آيات بر النبى بحفيده الحسين وحدبه عليه ، ما رواه شداد بن عبدالله من أنه جاء النبى صلى الله عليه وسلم من بيت أم سلمه ، فجاء الحسن فأجلسه على فخذه اليمنى وقبله ، ثم جاء الحسين فأجلسه على فخذه اليسرى وقبله ، ثم جاءت فاطمة فأجلسها بين يديه » . ومن آيات ذلك أيضاً ما رواه أبو هريرة قال : أبصرت عيناى هاتان وسمعت أذناى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكفى حسين وقدماه على قدمه وهو يقول : حزُقة حزقة ترقَّ عينْ بقه ، قال : فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له الرسول : افتح فاك ثم قبله . ألا أكرم به من بر وأنعم به من حب صادر من قلب عامر بالإيمان الحق والحب الصادق لذات الله عز وجل .

نشأ الحسين كما نشأ الحسن فى حجر النبوة الطاهر ، تتفتح أكمامه على نور الهداية وتكتحل عيناه بمشهد أكرم الخلق ، يلتقط منه ما يسمع من حديث أفوح من المسك وأندى من الندى : غذته فاطمة ونشأه على ورعاه النبى وكلأه . فما كاد ينطق حتى أخذ يتعلم الأدب ، وحفظ القرآن والصلاة والصوم والخشوع . يحضر مجالس الصحابة ويدب فى مهابط الوحى ، ترمقه العيون ، وتتبعه الأحداق فى إعجاب وشغف .

ثم انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أكرم جوار ، والحسين لم يزل صبيا لم يشب عن الطوق ، وبويع أبو بكر وهو لم يزل غض الإهاب . ثم ماتت أمه فاطمة ، فذاق مرارة اليتم . ولكن بر أبيه به وحدبه عليه ورعايته إياه قد أنساه ما يعانيه من حزن وحسرة .

وقد أقبل الحسين كما أقبل الحسن على علوم الدين ، يحفظان القرآن ويرويان

الحديث . ويفسران كتاب الله ، ويصومان ويصليان ويتهجدان ويتعبدان . فلما آل الأمر إلى عمر بن الخطاب ، لم يكن الحسين قد بلغ الحلم بعد . فلما بويع عثمان كان قد جاوز العشرين من العمر بشهور قليلة ، فأضحى فتى فى حكمة الشيوخ يافعا فى زهد النساك وتعبدهم ، عالما فى وقار العلماء ومهابتهم ، أخذ من العلم بقسط وافر واغترف من مناهل الفضائل ومكارم الأخلاق . فلما دعا الداعى إلى الجهاد فى سبيل الله ، لم يحجم ، ولم يتردد ، بل كان فى طليعة من سارعوا خفافا غير ثقال . فلما سير عثمان بن عفان جيشاً لفتح طبرستان بقيادة سعيد بن العاص ، اشترك فيه الحسين ليبذل دمه فى سبيل الإسلام .

ولم يركن الحسين إلى الدعة ولم يأخذ نفسه بما يأخذ به الشبان أنفسهم من لهو أو إيثار عاقبة ، بل سارع إلى القتال غير هياب ولا وجل . ولما حاصر الثوار عثمان فى داره بالمدينة ، هب على ينافح عنه ويدرأ المعتدين، فأرسل ابنيه الحسن والحسين يدفعان عنه العدوان ، ولكنهما لم يستطيعا لإرادة الله دفعا . فقد اغتيل عثمان رضى الله عنه، واضطرمت المدينة نارا ،وانقسم المسلمون فريقين، وأخذت البيعة لعلى كرم الله وجهه ، وانتقل إلى الكوفة فانتقل معه ولداه الحسن والحسين : وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ، وحارب معه يوم صفين ، وأسهم فى قتال الخوارج .

ولما قتل على بن أبى طالب وأخذت البيعة للحسن على ما ذكرنا ، كان الحسين فى طليعة من بايعه وأيده وشد أزره ونصره . فلما نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة وآثر العافية ، نهره الحسين عن ذلك وقال : أنشدك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك ، فقال له الحسن : اسكت ! أنا أعلم بهذا الأمر منك ، فسكت الحسين على مضض برا بأخيه واحتراما لرأيه .

ولما مات الحسن وآلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية سنة ٦١ هـ أرسل إلى الوليد بن عتبة ــ وكان عامله على المدينة ــ أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة فى الحجاز . فامتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مكة ، وخرج الحسين بن على من

المدينة وسار إلى مكة دون أن يبايع يزيد . وكاتب الحسين الشيعة فى الكوفة ، فاجتمعوا وأرسلوا اليه مع ابن عمه مسلم بن عقيل كتابا يعرضون فيه بيعتهم له وتأييدهم إياه اذا هو قدم إليهم . وقد جاء فى هذا الكتاب : إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى ؛ فاقدم علينا . وكان النعمان بن بشير الأنصارى واليا على الكوفة ، فبعث الحسين مسلم بن عقيل وقال له : سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى ؛ فإن كان حقا قدمت . فخرج مسلم حتى أتى المدينة ، فأخذ منها دليلين ، فمرا به فى البرية ، فأصابهم عطش ، فمات أحد الدليلين ؛ فقدم الكوفة ، فنزل على رجل يقال له عَوْسَجة . فلما علم أهل الكوفة بقدومه ، دنوا إليه ، فبايعه منهم اثنا عشر ألفا على ذلك . فقام رجل من أنصار يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشير فقال : إنك رجل ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد ، فقال له النعمان : « لأن أكون ضعيفا فى طاعة الله أحب إلىّ من أن أكون فى معصيته ، ما كنت لاهتك سترا » .

ولكن الحسين لم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، إذ عزم على الخروج الى العراق برغم أنه كان يدرك ما يحدق به من خطر إذا بقى فى مكة ، لأن بنى أمية سوف يتعقبونه . ولما رأى عبد الله بن العباس إصرار الحسين على الخروج قال له : « أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا دعوك اليهم وأمير عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلاده ، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال . ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك ، فيكونوا أشد الناس عليك » .

ولكن الحسين أبى إلا أن يمضى إلى غايته ، فقال له عبد الله بن العباس : فإن كنت سائرا ، فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فإنى لخائف أن تقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه . فلم يلتفت الحسين إلى نصح الناصحين ، بل سار إلى الكوفة فى فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا . فلما دنا منها ، بلغه نبأ مصرع

مسلم بن عقيل . كما لقيه الحر بن يزيد التميمى وقال له : ارجع فإنى لم أدَعْ لك خلفى خيرا . فلما أحَسّ الحسين الخطر ، هم بالرجوع . ولكن خيل عبيد الله ابن زياد كانت له بالمرصاد ، فسار إلى كربلاء حيث نشب القتال فى العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ . وقتل الحسين قتلة شنيعة . ولقد ظهر منه من آيات الصبر والاحتساب والشجاعة والورع والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه رضى الله عنهم، من النصر له ، والمواساة بالنفس ، وكراهية الحياة بعده ، ما أثار الإعجاب وأصبح مضرب الأمثال .

نعم ! لقد ذهبت شجاعة الحسين فى القتال مضرب المثل . ذلك أنه لما بقى فى ثلاثة أو أربعة من أصحابه ، دعا بسراويل يمانية يلمع فيها البصر ، فنكثه لكيلا تقع فى أيدى العدو ، فقال له بعض أصحابه : لو لبست تحته تُبانا ، فأبى وقال : ذلك ثوب مذلة ولا ينبغى لى أن ألبسه . ثم قاتل وعليه قميص من خز وعلى رأسه عمامة ، وهو أحسن ما يكون استبسالا واستماتة . قال عبدالله بن عمر : « ما رأيت مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه ولا أجرأ مقدما . والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله . وقد ظل الحسين حتى حُمل عليه من كل جانب ، فضُربت كفه اليسرى ضربة ضربها زرعة بن شريك التميمى ، وضرب على عاتقه . ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو . وحمل عليه وهو فى تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعى ، فطعنه بالرمح فوقع » . وحز رأسه ، ووجد به حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ، وسلب ما كان عليه من ثياب .

وأقام عمر بن سعد بعد قتل الحسين يومين ، ثم ارتحل إلى الكوفة ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان وعلى بن الحسين مريض . ثم أمر عمر بن سعد بحمل نساء الحسين وأخواته وبناته وجواريه وحشمه فى المحامل المستورة على الابل ، فاجتازوا بهم على الحسين وأصحابه صرعى ، فصاح النساء وصاحت أخته زينب : يا محمداه ! صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين

بالعراء مُرَمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، تسفى عليها الصبا ، فأبكت كل عدو وصديق .

ولما رحل عمر بن سعد ، خرج قوم من بنى أسد الى الحسين وأصحابه ، فصلوا عليهم ودفنوا الحسين : حيث قبره الآن ، ودفنوا ابنه علىّ بن الحسين عند رجله ، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صُرعوا حوله مما يلى رجلى الحسين ، وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً ، ودفنوا العباس بن علىّ فى موضعه الذى قتل فيه .

ولما وصل رأس الحسين إلى الكوفة ووصل عمر بن سعد ومعه بنات الحسين وأهله ، جلس عبيد الله بن زياد فى قصر الإمارة ، وأذن للناس بالدخول ، وأمر باحضار الرأس بين يديه ، وجعل ينظر اليه ويبتسم ، وفى يده قضيب يضرب به ثناياه . وكان الى جانبه زيد بن أرقم ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ كبير . فلما رآه لا يرفع قضيبه قال : اُعلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فو الذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبّلهما ، ثم بكى ، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك ! فو الله لو لا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك . فخرج وهو يقول : أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم . قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم .

قال الطبرى : « فلما دخل برأس حسين صبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد ، لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنكرت ، وحف بها إماؤها . فلما دخلت جلست ، فقال عبيد الله بن زياد : من هذه الجالسة ؟ فلم تكلمه ، فقال ذلك ثلاثا . كل ذلك لا تكلمه ، فقال بعض إمائها : هذه زينب ابنة فاطمة . فقال لها عبيد الله : الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم ، فقالت : الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيرا ، لا كما تقول أنت ، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر . قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل

بيتك ؟ قالت : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحتاجون إليه وتخاصمون عنده . وثارت ثائرة ابن زياد فقال لها : قد أشفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من اهل بيتك ، فبكت ثم قالت : لعمرى لقد قتلت كهلى وأبرت(١) أهلى وقطعت فرعى واجتثثت(٢) أصلى. فإن يشفك هذا فقد اشتفيت ، فقال لها عبيد الله : هذه شجاعة ، قد لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعا. قالت : ما للمرأة والشجاعة ، إن لى عن الشجاعة لشغلا »

ولما نظر زياد إلى على بن الحسين قال لشرطى : انظر هل أدرك هذا مايدرك الرجال،فكشف إزاره عنه ، فقال : نعم ! قال : انطلقوا به فاضربوا عنقه ، فقال له على : إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلا يحافظ عليهن. وتعلقت به عمته زينب فقالت : يا ابن زياد ! حسبك منا ، أما رويت من دمائنا . وهل أبقيت منا أحداً ؟ فاعتنقته فقالت : أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه . وناداه على فقال : يا ابن زياد ! إن كانت بينك وبينهم قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة الاسلام ، فنظر ابن زياد إلى زينب ثم نظر إلى الحاضرين فقال : عجبا للرحم ، والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه. دعوا الغلام ! انطلق مع نسائك .

ثم نودى : الصلاة جامعة ! واجتمع الناس فى المسجد ، فصعد ابن زياد المنبر فقال : الحمدلله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن على وشيعته . ولكن عاطفة الحماسة بعد مقتل الحسين قد أصبحت أشد ما تكون حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخيا ، وأصبح الشيعيون لا يبالون بالآلام والأخطار . يؤيد هذا رد ابن عفيف الذى انبرى لابن زياد ، وعبر عن حنقه على بنى أمية وولاتهم فقال : ياعدو الله ! إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه. يا ابن مرجانة! أتقتلون

---

(١) أبرت : أهلكت

(٢) الجثث : القطع

أولاد النبيين ، وتكلمون بكلام الصديقين ؟ ولم يلبث هذا الشيعى أن قتل وصلب.

ولم يكتف عبيد الله بن زياد بما لحق بالحسين وأهل بيته من بلاء وما تعرضوا له من إحن وخطوب ، بل إنه أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة ، ثم طيف به فيها؛ ثم بعث به وبرءوس أصحابه مع زمر بن قيس الذى دخل على يزيد بن معاوية ، وقال له : فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مُرمَّلة وخدودهم مُعَفَّرة، تصهرهم الشمس وتسفى عليهم الريح ،زوارهم العقبان والرخم ، بِقِيٍّ سَبْسَبْ ؛ فدمعت عين يزيد وقال : قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن سُمَيَّة! أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه . فرحم الله الحسين ، ولم يصله بشىء.

ولما جىء بنساء الحسين وأولاده ، وأدخلوا على يزيد بن معاوية ، رق لحالهم ، وأمر فنزل النساء بداره مع على بن الحسين،واستقبلهن النساء من آل يزيد بالبكاء، وأقيمت المناحة على الحسين ثلاثة أيام . ثم أمر يزيد بمسيرهم إلى المدينة وكساهم وأوصى رسوله بهم خيرا .

هكذا روى الدم الذكى أرض العراق، وأهدر دم آل البيت ، ونكل بهم ؛ ولما يمض على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسون سنة . روى أبو خالد الأحمر قال : دخلت على أم سلمة وهى تبكى،فقلت :ما يبكيك؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وعلى رأسه ولحيته التراب،فقلت : مالك يارسول الله؟ قال : شهدت قتل الحسين . وروى عن ابن عباس أنه قال:رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم وهو قائم،أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! ماهذا الدم ؟ قال : هذا دم الحسين لم أزل ألتقطه منذ اليوم .

وكان لمصرع الحسين رنة أسى فى العالم الإسلامى كله ؛ فقد رثاه الشعراء وبكاه الناس . من ذلك قول سليمان بن كثير الخزاعى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الأَرض أَضْحَتْ مريضةً

لفقْدِ حُسَيْنٍ والبلاد اقشعرتِ

وقد اعولت تبكى السماء لفقده
وأنجمه ناحت عليه وصلت

وكان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء أثر بعيد فى إذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة أنصار على بن أبى طالب وأولاده من بعده وتوحيد صفوفهم. وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة مشتتى الأهواء؛ إذ كان التشيع قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا. فلما قتل، امتزج التشيع بدمائهم وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم.

وقد ظهرت طائفة التوابين الذين يدعون الناس للأخذ بثأر الحسين، وينظمون القصائد فى رثائه وتحريض الناس على القتال. من ذلك قول عبدالله ابن الأحمر:

صَحَوْتُ وقد صَحُوا الصبى والعواديا
وقلت لأصحابى: أجيبوا المناديا
وقولوا له إذْ قام يدعو إلى الهدى
وقَبْل الدعى: لبَّيْك لبيك داعيا
ألا وانع خَيْر الناس جَدًّا ووالدا
حُسَيْناً لأهل الدين إنْ كنتَ ناعِيا
وأضحى حسين للرماح دريئةً
وغودر مسلوباً لدى الطَّفِّ ثاويا
فياليتنى إذْ ذاك كنتُ شهدته
فضاربتُ عنه الشانئين الأعاديا

قتل الحسين بن على فى العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ ﻫ على ما تقدم ، وهذا الشهر مبارك يجله العرب قبل الإسلام وبعده . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيها الناس ! سارعوا إلى الخيرات فى هذا اليوم ، فإنه يوم عظيم مبارك،قد بارك الله فيه على آدم.ومن مظاهر احترام المسلمين لهذا اليوم أنهم كانوا يصومونه ؛ فقد روى عن الرسول أنه لما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود يصومون هذا اليوم ، فسألهم عنه ، فأخبروه أنه اليوم الذى أغرق الله فيه فرعون وآله ، ونجىّ موسى ومن معه ، فقال عليه الصلاة والسلام : نحن أحق بموسى منهم،فصامه وأمر أصحابه بصومه .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة الرسول الكريم ، فكانوا يجلون هذا اليوم ويعظمونه ويصومون فيه ، حتى كان عهد يزيد بن معاوية ، واستشهد الحسين ابن على فى موقعة كربلاء فى اليوم العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ ﻫ على ما تقدم، فتركت هذه المأساة فى نفوس المسلمين آثارا مختلفة : فالأمويون السنيون اتخذوا من هذا اليوم عيدا يبتهجون فيه ، فيلبسون فيه الجديد من الثياب ، ويتزينون ويكتحلون ، ويقيمون الولائم ، ويقدمون الحلوى ؛ فيثير ذلك الفرح والسرور فى نفوس أنصارهم . أما الشيعة من أنصار على بن أبى طالب وأولاده ، فإنهم اتخذوا من هذا اليوم مأتما ، يبكون فيه الحسين ، ويظهرون أشد مظاهر الأسى والحزن لقتله . وظل الشيعيون يذكرون هذا اليوم ، فيبكى فيه الرجال والنساء ، وينشدن النساء من أهل البيت الشعر نادبات باكيات .

وقد ظل الشيعيون يلقون فى سبيل الاحتفال بذكرى هذا اليوم ألوان الاضطهاد من الأمويين والعباسيين ، حتى قامت الدولة الفاطمية الشيعية فى بلاد المغرب ومصر ، وأصبح بنو بويه الشيعيون أصحاب الأمر والنهى فى الدولة العباسية السنية ، فغدا يوم عاشوراء عيدا من أعياد الفاطميين والبويهيين .

وقد جعل الفاطميون يوم عاشوراء عيدا من أعياد الدولة، تحتفل به الحكومة والشعب جميعا احتفالا يتفق وما له من مكانة فى نفوس المسلمين،فتتعطل الأسواق،

ويخرج المنشدون يتكسبون بالنوح والنشيد ، ويسير الناس الى جامع عمرو بن العاص ، ويخرجون الى الطرقات بعد الصلاة ينوحون ويبكون . وفى هذا اليوم يحتجب الخليفة الفاطمى عن الناس . ويركب قاضى القضاة والشهود ، وقدلبسوا ملابس الحداد ، ثم يسيرون الى المشهد الحسينى ، فيتخذون مجلسهم الى جانب القراء ، حتى يصل الوزير فيجلس فى صدر المكان ، والقاضى عن يمينه ، والداعى عن شماله . ثم يتناوب القراء تلاوة القرآن ، وينشد الشعراء القصائد فى رثاء أهل البيت زهاء ثلاث ساعات .

ومن مظاهر الاحتفال بيوم عاشوراء ذلك السماط الذى أطلق عليه «سماط الحزن » . وكان يقدم فيه خبز الشعير والعدس والمملحات والمخللات والأجبان والالبان وعسل النحل . وكان الخليفة يحضر هذا السماط ، ويجلس على كرسى الجريد بغير مخدة ، متلثما هو وجميع رجال حاشيته ، فيسلم عليه الوزير والأمراء والقاضى والداعى والأشراف وهم ملثمون حفاة . ويبدى الخليفة ابلغ مظاهر الحزن والأسى فى هذا اليوم . واذا انتهى السماط طاف النواح بالقاهرة ، وأغلق الباعة حوانيتهم الى ما بعد صلاة العصر . وفى يوم عاشوراء ، كان الخلفاء الفاطميون ينحرون الإبل والبقر والغنم عند مشهد الحسين ، وتوزع لحومها على الفقراء . ولا يزال الشيعيون فى العراق وفارس الى اليوم يحتفلون بهذه الذكرى ، فيبكون الحسين ، ويلبسون السواد ، ويقف دولاب الأعمال حدادا عليه .

وقد قيل إن الحسين بن على لما قتل وارسل الى يزيد بن معاوية ، رد الرأس الى الجثة ، ودفنا فى دمشق . ثم نقلت فى عهد الفاطميين الى عسقلان من أعمال فلسطين ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها حين فتحوا بلاد الشام . فلما تقلد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة ، أخرج رأس الحسين ، وعطره ، وحمله على صدره ، وسعى به ماشيا ، إلى أن أحله فى مقره الذى هو فيه بالقاهرة ، حيث نجد المشهد الحسينى .

٢٤ – معاوية بن أبي سفيان

اللهم عَلِّمْ معاويةَ الكتابَ والحساب وقِهِ العذاب

ينتسب معاوية بن أبى سفيان ، ذلك الصحابى الجليل ، إلى أعرق بيوت قريش. وهو الذى أسس الخلافة الاموية ، ونقل حاضرة الخلافة إلى دمشق ، وقام بيته بدور عظيم فى التاريخ الاسلامى وفى الفتوح الاسلامية . وهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . كان جده أمية من سادات قريش فى الجاهلية ، وكان فى الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبدمناف . وكان تاجرا كثير المال والعيال . وكان له عشرة من الاولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وسفيان وابو سفيان .

ولد معاوية فى هذا البيت العريق قبل البعثة بخمس سنين ، وشب فى هذه البيئة المترفة كما يشب فتيان قريش وسراتها . شب على حب الفروسية ورواية الشعر والعناية بالأدب والتفاخر ، حتى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشر الإسلام فى مكة . ولكن معاوية الفتى لم يكن قد فتح الله قلبه للإسلام بعد . ثم هاجر الرسول إلى المدينة ، وأخذ المهاجرون والأنصار يتهيئون لنضال قريش وبث الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ، فالتقوا فى « أحد » وبدر والخندق . وكان نضالا دمويا عنيفا ، نضالا بين مبدأين : مبدأ جديد يغلب الروحية ويطرح المادية ، ويسوى بين السيد والعبد وبين العربى والمولى ، ومبدأ عتيق ينادى بالمادية والأثرة وارستقراطية الدم والعصبية القبلية فى أبشع صورها .

تهيأ المسلمون لفتح مكة والقضاء على آخر معقل للشرك وعبادة الأوثان فى شبه جزيرة العرب ، ثم يسر الله لهم فتح مكة بعد ماذاقوه من ألوان التعذيب . وكان فتح مكة واستيلاء المسلمين على البيت الحرام من أكبر العوامل التى ساعدت على

نجاح الدعوة الاسلامية؛ فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادىء ذى بدء أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها، فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فى دين الله أفواجا. وقد أسلم معاوية فى ذلك اليوم كما أسلم أبو سفيان وأخوه وأمه، وعفا الرسول الكريم عن هؤلاء عفوا جميلا جرى مجرى الأمثال؛ فقد حاربوه وتخلوا عنه وآذوه، ولكنه لما انتصر أبى أن يذيقهم من الكأس التى أذاقوه منها. ذلك أن أبا سفيان أراد أن يمنع الأذى والمذلة عن قومه، وأنهى العباس ذلك إلى الرسول، فأمر مناديا ينادى بمكة: من أغمد سيفه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وبذلك سوى الرسول بين بيت أبى سفيان وبيت الله، وهو شرف عظيم لم ينله أحد مثله.

ومن الغريب أن معاوية برغم أنه أسلم متأخرا، غدا من أشد أتباع الرسول إخلاصا وأوفرهم إيمانا وأكثرهم تعلقا بالدعوة المحمدية والدفاع عنها. وقد وثق الرسول الكريم بمعاوية ثقة عظيمة، فدعاه ليكتب له الوحى، فأقبل على عمله هذا فى إخلاص جم حتى دعا له الرسول وقال: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب». وكان معاوية بدوره يخلص للنبى ويحبه حبا جما. روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج مرة لحاجة، فاتبعه معاوية، فكساه أحد ثوبيه الذى كان على جلده. وقد احتفظ معاوية بذلك الثوب واعتز به. فلما حضرته الوفاة كان هذا الثوب أعز ما أهداه ولده يزيد. وروى أيضا أن الرسول صلى الله عليه وسلم جلس مرة يقص شعره ويقلم أظفاره، فما كان من معاوية إلا أن ابتلع بعض هذا الشعر، ثم خبأ بعضه واعتز به؛ حتى إذا دنا أجله، دعا ابنه يزيد وقال له: احمل ذلك القميص دون كفنى مما يلى جلدى، وخذ ذلك الشعر والأظفار فاجعله فى فمى وعلى عينى ومواضع السجود منى. فان نفع شىء فذاك، والا فان الله غفور رحيم.

ثم توفى الرسول وأخذت البيعة لأبى بكر؛ فبايعه الأمويون وفيهم معاوية وأبوه أبو سفيان. وقد عكف معاوية فى عهد أبى بكر على رواية الحديث، فروى عن أبى بكر وعمر وعثمان وأخته أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان. وقد أبلى بنو أمية

فى حرب الردة بلاء حسنا ، وسار بعضهم إلى الشام فاشتهر أمرهم ونبه ذكرهم .

ثم بويع عمر بن الخطاب وانتشرت جيوش المسلمين فى بلاد الفرس والروم ، تفتح وتغزو وتعلى كلمة الاسلام . فلم يشأ معاوية أن يتخلف عن ذلك الجهاد المقدس ، بل اشترك فى الجيوش التى سيرها عمر لفتح بلاد الشام سنة تسع عشرة روى أنه اشترك فى الجيش الذى كان يقوده يزيد بن أبى سفيان ، فغزوا قيسارية وبها بطارقة الروم حتى فتحها الله عليهم فى شهر شوال سنة تسع عشرة للهجرة ، فولى عليها معاوية أخاه . ثم توفى يزيد فى شهر ذى الحجة من تلك السنة فى دمشق ، فكتب عمر إلى معاوية ، بعهده على ما كان يليه يزيد من عمل الشام ، ورزقه الف دينار فى كل شهر . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عمر بن الخطاب كان يحب يزيد بن أبى سفيان لانه أبلى البلاء الحسن فى فتح بلاد الشام ، فلما مات جزع عليه جزعا شديدا وولى أخاه معاوية تخليدا لذكراه . فلما علم أبو سفيان بذلك أتى عمر وقال له : من وليت مكان يزيد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخاه معاوية ، قال : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين !

ويبدو أن معاوية لما ولى بلاد الشام كان يعمل بالحديث الشريف الذى أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .» فقد كان برغم ورعه وتقواه يعيش عيشة المترفين . فلما دخل عمر بن الخطاب هذه البلاد تلقاه معاوية فى موكب عظيم ؛ فلما دنا منه قال له : إنك صاحب الموكب العظيم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال : مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : مع ما يبلغك من ذلك ، قال : ولم تفعل هذا ؟ قال : نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به ؛ فان امرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت . فقال عمر لمعاوية : ما سألتك عن شيء إلا تركتنى فى مثل رواجب الضرس . ان كان ما قلت حقا إنه لرأى أريب ، إنه لخدعة أديب قال : فمرنى يا أمير المؤمنين ! قال لا آمرك ولا أنهاك .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعرف من ورع معاوية وإيمانه

ما حببه فيه ، فأكبره وأجله. فقد ذم معاوية عند عمر يوما فقال: دعونا من ذم فتى من قريش،من يضحك فى الغضب،ولا ينال ماعنده الا على الرضى ، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه .

ثم توفى عمر وتمت البيعة لعثمان بن عفان رضى الله عنهما،فولى معاوية الشام كلها.وقضى معاوية فى هذه البلاد اثنتى عشرة سنة ، استطاع فيها ان يحبب الناس فيه بحسن سياسته ونفاذ بصيرته ، وأن يؤلف بين القبائل العربية النازحة الى هذه البلاد وأصبحت دمشق فى عهده كعبة القاصدين ومقصد الراغبين فى رفد معاوية وبره . وقد جند الجند واتخذ العدة ليوم قريب . فقد قتل عثمان بن عفان فى المدينة وتمت البيعة لعلى بن أبى طالب ، واعتقد الأمويون ان لعلى يدا فى مقتله؛ فهبوا مطالبين بالأخذ بثأره ، على الرغم من أن عليا نصح المطالبين بدمه أن يتريثوا ، حتى إذا هدأت النفوس وعاد الأمن إلى نصابه،أجرى الحق مجراه وتمكن من إنزال الجزاء بقتلة عثمان . إلا أن نصائحه لم تجد أذنا مصغية ؛ فقد ساء عائشة قتل عثمان ، وانضم إليها طلحة والزبير ،ولم يصغيا لنصح الناصحين ولم يرعيا حرمة لوحدة المسلمين التى كادت تتمزق شر ممزق .

ولم يكد على يفرغ من طلحة والزبير وأنصارهما بعد انتصاره فى يوم الجمل حتى تصدى له داهية العرب معاوية . فقد كان أعظم قرابة عثمان شأنا وأكثرهم تحمسا فى المطالبة بدمه .وأصبح النزاع سافرا بين بنى أمية المظاهرين لمعاوية وبين بنى هاشم المظاهرين لعلى . وكان على ومعاوية فى الشجاعة والبطولة فرسى رهان ، وكادت الفتنة تطيح بالعالم الإسلامى كله . ووقف الفريقان يوم صفين وتهيئوا للصراع وسفك الدماء . وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية الخلاف بين على ومعاوية، وذكرت اسبابه فى تلك الخطبة التى القتها يوم صفين :

يا أيها الناس!اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . إن الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم،فلم يدعكم فى عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة. فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين؟ام فرارا من الزحف؟ أم

رغبة عن الاسلام؟ام ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» (سورة محمد ٤٧ : ٣١) . إنها إحن بدرية ، واحقاد جاهلية ، وضغائن أحُدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس .»

وقد أصر معاوية على أن يقاتل عليا بجند الشام بعد أن أوغر صدورهم عليه، لإيوائه قتلة عثمان فى جيشه . فلما بلغ عليا أن معاوية استعد للقتال ومعه أهل الشام ، توجه إلى الكوفة، ثم سارمنها إلى صفين فى تسعين ألفا، وسارمعاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفا.ثم كانت خدعة التحكيم واجتمع الحكمان : ابو موسى الاشعرى عن على،وعمرو بن العاص عن معاوية،وذلك فى شهر رمضان سنة ٣٧ ه.

فى هذا اليوم المشهود تجلى دهاء عمرو بأجلى مظاهره ، إذ استدرج أبا موسى حتى خلع عليا وثبت عمرو موكله معاوية . وهكذا استطاع معاوية بدهائه وبعد نظره وحسن حيلته أن ينجو من هزيمة محققة . فقد دب الخلاف فى جند على ، وظهر الخوارج،وخذله الكثيرون،وازداد أنصار معاوية عددا،والتف حوله الجند التفافا،وتفانوا فى نصرته والدفاع عنه،فى الوقت الذى كان فيه معاوية يعتمد على أهل الشام المعروفين بالولاء والإبقاء على العهود ، بينما كان على يعتمد على أهل الكوفة .

ثم قتل على بن أبى طالب بالكوفة غدرا،فخلا الجو لمعاوية،وأخذ المسلمون يسارعون إلى بيعته؛فقد بايعه الصحابة فى المدينة والحجاز، كما بايعه الذين تخاذلوا عن بيعته أول الأمر . هكذا نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى . فقد دعا المسلمون إلى الحسن بن على بعد قتل أبيه واستخلفوه.إلا أن خلافته لم تثبت أمام قوة معاوية، وما كان من رواج الاشاعة بانهزام جيوشه أمام جند الشام، مما أدى إلى تخلى أهل العراق عنه، فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين .

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٤١ ه دخل معاوية

الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ابنى على ، واجتمع عليه الناس ، فسمى ذلك العام عام الجماعة. ثم رحل الحسن إلى المدينة ، ولزم منزله حتى مات ، وبقى معاوية فى الخلافة تسع عشرة سنة (٤١ - ٦٠ ﻫ) .

استطاع معاوية فى خلال هذه الفترة الطويلة ، أن يضع للحكومه الإسلامية أسسا قويمة وأن يؤسس دولة وطيدة الأركان ثابتة الدعائم، وأخذ يعمل على تأليف قلوب العرب ونشر الإسلام. فبعث عبدالله بن سوار إلى بلاد السند مما يلى خراسان، كما أغزى المهلب بن أبى صفرة هذه البلاد، حتى وصل إلى لاهور. وتوجهت همة المسلمين فى عهده نحو الشمال والغرب، حيث الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تغير على البلاد الإسلامية القريبة منها ، فرتب معاوية الغزو إليها برا وبحرا ، وبلغ أسطول الشام فى عهده الفا وستمائة سفينة، فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية . أما فى البر فقد رتب الشواتى والصوائف . ودخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان كما دخلوا سمرقند . وفى سنة ٤٨ ﻫ جهز معاوية جيشا لفتح القسطنطينية برا وبحرا ، ولكن جيش العرب لم يستطع فتحها لمتانة أسوارها ومنعة موقعها. وفى سنة ٥٠ ﻫ أرسل معاوية إلى عقبة بن نافع — وكان يقيم ببرقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص عشرة آلاف جندى، فدخل إفريقية وتمكن من فتحها، وأسلم على يديه كثير من البربر الذين عمل العرب على ادخالهم فى جيوشهم، وتسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام حتى وصل إلى بلاد السودان . وفى عهد معاوية تأسست القيروان على يد عقبة بن نافع الفهرى الذى بنى بها المسجد الجامع، فاصبحت مقرا لمعسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم . واتخذ معاوية الوزراء وان لم يلقبوا بلقب وزير، مثل زياد بن أبيه ، كما أدخل نظام البريد فى الاسلام . وشيد بدمشق قصر الخضراء .

كان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظا فى السياسة . كان عاقلا فى دنياه ، لبيبا عالما حليما جيد السياسة حسن التدبير لامور الدنيا، عاقلا حكيما فصيحا بليغا ، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة . الا أن الحلم كان أغلب

عليه . وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة مشغوفا بها . كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا ، فلا يزال أشراف قريش ، مثل عبد الله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبى بكر وأبان بن عثمان ابن أبى بكر يفدون عليه بدمشق، فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم . ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه ، وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنيـــة والصلات الجمة . قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه ، وهو رجل من الأنصار : « ياقيس! والله ماكنت أود أن تنكشف الحروب التى كانت بينى وبين على عليه السلام وأنت حى ، فقال قيس : والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحروب وأنت أمير المؤمنين ، فلم يقل له شيئا» . ومن أمثلة ذلك الحلم أن المسور بن مخرمة وفد على معاوية بدمشق؛ فلما دخل عليه سلم ، فقال له معاوية : « مافعل طعنك على الأئمة يامسور ؟» فقال المسور : دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له . قال: والله لتكلمن بذات نفسك . قال المسور : فلم أدع شيئا أعيبه عليه إلا بينته ، فقال معاوية : لا أتبرأ من الذنوب، فمالك يامسور ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك ؟ قال : بلى ! فقال معاوية : فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة منى ؟ فوالله لما إلىَّ من الإصلاح بين الناس وإقامة الحدود والجهاد فى سبيل الله والأمور العظام التى لست أحصيها ولا تحصيها، وإنى لعلى دين الله ، يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات ، والله لعلى ذلك. ما كنت لأخير بين الله وبين سواه الا اخترت الله على ما سواه .

كان معاويه يجعل يومه قسمة بين الله وبين شئونه الخاصة . كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلى أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه ، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون. ثم يؤتى بالغداء الأصغر، ثم يدخل منزله ، ثم يخرج فيقول : ياغلام! أخرج الكرسى!

فيخرج إلى المسجد فيوضع ، فيسندظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي. ويقدم الأحداث، فيتقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ، ثم يقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم ، ولا يشغلني أحد عن رد السلام .

اتفق الخوارج فيما بينهم على أن يقتلوا أطراف النزاع : عليا ومعاوية وعمرو ابن العاص ، فقتلوا عليا بالكوفة . ولكن معاوية لم يكن أجله قد حان بعد ، حتى كان النصف من رجب سنة ستين، فحضرته الوفاة بدمشق، وتوفى بها وهو ابن ثمان وسبعين سنة. وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

رحم الله معاوية ورحم من ترحم عليه !

٢٥ - عبد الله بن الزبير

كريم الجدّات والأمهات والخالات

من أعلام الإسلام عبد الله بن الزبير بن العَوام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصى بن كلاب . وهو من أكرم بيوتات العرب وأطيبهم منبِتا . فأبوه الزبير بن العوام ابن عمة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وابن أخى خديجة بنت خويلد زوج الرسول . وكانت فاطمة الزهراء بنت عمة الزبير بن العوام الذى يُعدُّ فى طليعة الصحابة الذين آزروا الرسول ونصروه ، واشتركوا فى رفع لواء الإسلام . وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذاتُ النِّطاقين ، التى اشتهرت برواية الحديث ، وعُرفت بالشجاعة والتقوى والورع ؛ وخالته عائشة أم المؤمنين . فعبد الله بن الزبير — كما قال ابن عبد البر — كريم الجدات والأمهات والخالات .

لما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام الى يثرب ، خرجت أسماء بنت أبى بكر ، وهى حامل ، مع من خرج من المهاجرين . فلما بلغت قُباء على مقربة من يثرب ، ولدت عبد الله ، فكان أولَ من وُلد للمسلمين بعد الهجرة . وقد نالت ذلك الطفل نفحة من نفحات النبى الكريم . فقد خرجت به أمه فأتت الرسول فوضعته فى حجره ، فدعا بتمرة فمضغها ، ثم تفَل فى فيه ، فكان أول شىء دخل جوف عبد الله ريق رسول الله . ثم حنّكه الرسول بالتمرة ، ودعا له ، وضمه إليه ، وكناه باسم جده وصديقه أبى بكر ، وسماه باسمه .

هكذا شب عبد الله فى حجر النبوة ، وأصبح من المقربين إلى قلب الرسول بعد أن تزوج من خالته عائشة . وساعد على ذلك أن عائشة لم تنجب ، فعاملت ابن أختها معاملة الأبناء ، فكلأته بعنايتها ، وبسطت له جناح رعايتها . وهكذا

نشأ عبدالله بن الزبير فى بيت أسس على التقوى : فأبوه ذلك الصحابى الجليل الذى شهد المشاهد كلها ، والذى قدّر الرسول له قدره ، وعرف له سبقه الى الإسلام ، وصدق إيمانه بدعوته وتعلقه بمحبته ، حتى قيل إنه أول من سل سيفا فى الله عز وجل . وأم عبدالله هى بنت الصديق حبيب الرسول وصفيه الذى كان له كظله فى سرائه وضرائه . حتى إذا بلغ عبد الله السابعة من عمره أحضره أبوه الزبير الى الرسول ليبايعه ، فلما رآه مقبلا تبسم وبايعه .

فى هذه البيئة المباركة الزكية الطاهرة التى تتضوع بأريج التقى وتزخر بسير الشهداء وأنباء النصر على الأعداء ، أخذ عبد الله يشب عن الطوق ، فتتفتح عيناه على ما يطهر قلبه ويثبت جنانه ، ويحكم صلته بنبيه وبربه . حفظ القرآن وتفقه فى الدين وجمع الحديث ، وكان صواما قواما طويل الصلاة ، نهاره صائم وليله قائم .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وآلت الخلافة إلى جده أبى بكر ثم إلى عمر ، كان صاحبنا قد شب عن الطوق وترعرع ، وأصبح فتى شجاعا ينبض قلبه بالتقوى والورع ، ويجيش صدره بحب الله وخشيته ، فلم يشأ أن يبقى فى الحجاز فيحيا حياة الدعة والخمول ، وهو ابن الزبير البطل المغوار الذى اشترك فى فتح مصر ، وآثر أن ينضوى تحت لواء المجاهدين فى سبيل الله عسى أن يستشهد فيكتب له الخلود مع الخالدين .

ذلك أن الجيش الذى خرج به عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح لغزو إفريقية فى سنة ٢٧ هـ ، قد انقطعت أخباره عن مركز الخلافة ، فأرسل الخليفة عثمان رضى الله عنه عبد الله بن الزبير فى جماعة لموافاته بأخبارهم . فلما وصل عبد الله الى إفريقية ، لم ترقه خطة ابن أبى سرح فى قتال الأعداء ، إذ كان يقاتلهم كل يوم الى وقت الظهيرة ، ثم يعود الجيشان الى معسكرهما فى اليوم التالى . فأشار عليه عبدالله بتقسيم جيش المسلمين إلى فرقتين : إحداهما تسير لقتال العدو أول النهار ، وتأخذ الأخرى قسطها من الراحة وتستعد لمباغتة العدو . فما كان من ابن أبى سرح إلا أن نزل للفتى عبد الله عن قيادة الجيش لتنفيذ الخطة التى أشار بها . فلما حان

الموعد المضروب لانصراف الجيشين ، استعدت الفرقة التى لم تخرج للحرب أول النهار، وهجم بها على العدو الذى نهكته الحرب ، ثم غشيهم فى خيامهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم جُرجير ، وتم النصر للمسلمين. ولولا خطة ابن الزبير وحيلته لما أحرز المسلمون هذا النصر وغنموا من هذه الحرب هذه المغانم الكثيرة، حتى لقد قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

عاد ابن الزبير الى المدينة وأخبر الخليفة عثمان بانتصار المسلمين وما غنموه فى ذلك الفتح ، فسر بذلك سرورا عظيما ، واستبشر المسلمون وفرحوا .

ثم قتل عثمان وانتشرت الفتنة بالمدينة المنورة ، فاضطرمت نارا ، وبويع لعلى بالخلافة . ولكن عبد الله بن الزبير لم تطب نفسه بذلك ، فاشترك مع المطالبين بثأره وقاتل عنه ، فلم يرض على عن مسلكه هذا ، فقال : « مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ عبد الله » . فلما نشب القتال بين جند على من ناحية ، وبين بنى أمية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى ، اشترك عبد الله معهم فى قتال على . وكان عبد الله على رأس الرجالة ، فسقط جريحا بين القتلى ، وظنت عائشة أنه قتل، وجزعت جزعا شديدا ، وأرسلت من يبحث عنه بين جثث الموتى ، فعثروا عليه وقد أثخنته الجراح ، حتى قيل إنه كان به بضع وأربعون جراحا . فلما علمت عائشة بنجاة ابن أختها، سرت سرورا عظيما ، وأعطت البشير الذى بشرها بنجاته عشرة آلاف درهم . كيف لا وقد أرادت أن تجعل منه خليفة للمسلمين؟.

على أن ما أصاب عبد الله فى موقعة الجمل قد زهده فى الانضواء تحت لواء أحد الفريقين المتنافسين، حتى إذا انتصر معاوية بن أبى سفيان على جيش على بن أبى طالب يوم صفين وانتهى التحكيم بمبايعة معاوية ، كان عبد الله فيمن بايعه بالخلافة .

وقد عرف معاوية لعبدالله بن الزبير شدة بأسه فى القتال ، فلما جهز جيشا لفتح القسطنطينية فى سنة ٤٨ هـ ، كان عبد الله بن الزبير فى طليعة المشتركين من

الصحابة ، من أمثال عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وأبى ايوب الأنصارى ، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية ، واقتتل المسلمون والروم ، ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية ، لمتانة أسوارها ومنعة موقعها ، وفتك النار الإغريقية بسفن المسلمين .

ولكن معاوية خرج على ما أجمع عليه المسلمون من جعل الأمر شورى بينهم يختارون للخلافة من يصلح لها ؛ فعمل على أخذ البيعة لابنه يزيد ، فكتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول : « إنى قد كبرت سنى ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى . وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك ؛ فاعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون عليك . . . » فلما عرض مروان هذا الأمر على الناس ، هاج القوم وماجوا ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : « ما الخيار أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ! وقام الحسين ابن على فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبدالله بن الزبير . ومن ثم ظهر حزب المعارضة الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه عبدالرحمن بن أبى بكر ، والحسين ابن على ، وعبد الله بن الزبير . واستعمل معاوية كل ضروب الحيل والدهاء ، وزار المدينة المنورة لأخذ البيعة لابنه ، وتكلم مع المخالفين فى شأن البيعة ، فقال عبدالله ابن الزبير : « نخيرك بين ثلاث خصال . قال : اعرضهن ! قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر » . قال معاوية : « ما صنعوا ؟ » قال : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر . » قال : « ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف . » قالوا : « صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر . » وأخذت البيعة ليزيد برغم معارضة عبد الله وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم . وهذا يدل على الشجاعة الأدبية الفائقة التى كان يتمتع بها عبد الله ، فلم يتردد فى أن يقول الحق

فى وجه معاوية خليفة المسلمين ، وعارضه جهارا ، وامتنع عن بيعة يزيد، وضرب صفحا عما ناله من إيذاء فى سبيل التمسك برأيه .

فلما استخلف يزيد وخرجت بلاد الحجاز عن طاعته ، كان عبدالله بن الزبير على رأس المعارضين لسياسته ، فبعث يزيد مسلم بن عقبة المرى لقتال أهل الحجاز ، فدخل المدينة وأباحها للسلب ثلاثة أيام ، ثم سار إلى مكة، ومات وهو فى طريقه اليها . وبايع عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة وتبعه أهلها ، وانتصر على جيش يزيد بمساعدة أهل الحجاز وبعض الخوارج برغم مخالفتهم له فى مبادئهم . ولما لامه بعض أنصاره على ذلك قال : « لو شايعتنى الترك والديلم على قتال أهل الشام لشايعتها » . كما أعانه أيضا المختار بن أبى عبيد الثقفى ، ورمى الأمويون البيت بالمنجنيق . وقد رأى بعض المسلمين فى الاستيلاء على مكة والمدينة ضرورة دعا إليها موقف أهل الحجاز العدائى ، وأن إحراق الكعبة لم يكن مقصودا ، وإنما الذى قصده الأمويون هو الجزء الذى زاده عبد الله بن الزبير . ولكن يزيد لم يلبث أن توفى، ورفع الحصار عن مكة . وبايع الحصين بن نمير قائد الجند الأموى ابن الزبير على شريطة أن ينتقل الى الشام ، فأبى ابن الزبير، لأنه أراد أن يعيد الى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركزا للخلافة . ولو أن ابن الزبير سار إلى الشام لآلت الخلافة إليه واستقر له الأمر . ولم يكن عبد الله بن الزبير ليجرؤ على أن يدعو إلى نفسه فى حياة الحسين بن على . حتى إذا انتقل الحسين الى جوار ربه فى موقعة كربلاء سنة ٦١ هـ ، أعلن ابن الزبير دعوته وأظهر أحقيته بالخلافة . وكانت مأساة كربلاء من أهم العوامل التى ساعدته على تحقيق أمنيته. ولقد بكى الحسين واستبكى الناس عليه وأطنب فى مآثره ، ولام أهل الكوفة على تخليهم عن الحسين، ونالت خطبه قبولا من نفوس العلويين. وأهل الحجاز والساخطين على الحكم الأموى، فالتفوا حوله، وناصروه وآزروه، ورأوا فيه الزعيم المنشود الذى يأخذ بثأر الحسين ويخلصهم من الحكم الأموى . وقد رأى عبدالله بن الزبير أن الوقت لم يحن بعد لاعلان دعوته، فاحتمى بالكعبة مكتفيا بلقب « العائذ بالبيت » . ولكنه بعمله

هذا أتاح الفرصه للأمويين ليوحدوا كلمتهم ، ويلموا شعثهم ،ويقفوا فى وجه هذا مايراه بعض المؤرخين ؛ أما البعض الآخر ، فيرى أنه لم يطمئن الى وعود القائد الأموى وخشى أن يكون ذلك مكيدة تنطوى على ابعاده عن ذلك المكان الذى تحرز فيه والذى يأوى أنصاره الذين كانوا يستميتون فى الدفاع عنه . ونرى ذلك واضحا فيما قاله ابن الزبير للحصين : «لا والله لا أفعل .لا أؤمن مَن أخاف الناس وأحرق بيته وانتهك حرمة الله .»

انتشرت دعوة ابن الزبير فى العراق ومصر فى خلافة معاوية الثانى ومروان ابن الحكم ، حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى سنة ٦٥ هـ فوجد الأمة العربية كادت تمزقها العصبية القبلية التى دأب النبى صلى الله عليه وسلم على إخمادها، حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال،لولا أن أتاح الله لها عبد الملك بن مروان الذى وجه همه لقتال ابن الزبير ، وسيَّر اليه الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى سار الى مكة،فحاصرها وأرغم أهلها على طلب الأمان . وأخفقت سياسة عبد الله ابن الزبير ، لانه جعل مقر حكومته فى الحجاز الذى انصرفت عنه العناصر السياسية الى الشام والعراق ، فأصبح مأوى الطبقة الارستقراطية التى مالت الى حياة اللهو والمجون ، حتى إن دعوة ابن الزبير لم تلق قبولا لديهم .

على أن العظة والعبرة التى نستخرجها من محنة ابن الزبير،هى أن الأم الطيبة المنبت تنفث فى صدر ابنها من قوتها قوة ، ومن إيمانها إيمانا . فقد كره عبد الله إهدار دماء المسلمين وأراد أن ينكص على عقبه، فدخل على أمه أسماء فقال لها : إن الموت لراحة ، فقالت له : لعلك تمنيته لى ، ما أحب أن أموت حتى يأتى على أحدُ طرفيك : إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عينى ! . ثم دخل عليها فى اليوم التالى فقالت له: لاتقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل، فوالله لضربة بسيف فى عز ، خير من ضربة بسوط فى ذل . فخرج الى الناس وقاتل فى المسجد حتى قتل رحمه الله فى سنة ٧٣ هـ .

وقد ضربت أسماء بنت الصديق أروع الأمثلة لأشجع الأمهات وأكرمهن ؛

فلما حمل اليها نبأ استشهاد ابنها عبد الله غسلته وكفنته ، ثم قامت فصلت عليه . وكانت تقول قبل ذلك : اللهم لاتمتنى حتى تقر عينى بجثته ! . ولكنها برغم هذا ظلت تندبه وتبكيه حتى كف بصرها . وكانت تقول : والله ماكان منافقا ولكنه كان صواما قواماً وصولا ! . ثم ماتت بعد ذلك بقليل .

كان عبدالله — وهذه سيرته — تقيا ورعا ، صواماقواماً ، طويل الصلاة ، عظيم الشجاعة ، قسم الدهر على ثلاث ليال : فليلة هو قائم حتى الصباح ، وليلة هو راكع حتى الصباح ، وليلة هو ساجد حتى الصباح . وكان يطيل القراءة فى الصلاة.

وقد عرف عبدالله بن الزبير كيف يستغل عبث يزيد بن معاوية ومجونه لمصلحة دعوته ، فكان يقول حين يخطب الناس : يزيد الخمور ، ويزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات ، .

روى عن عبدالله بن سعيد أنه قال : ركع ابن الزبير يوما ركعة فقرأت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه . وروى هشيم عن مغيرة أنه قال : رأيت ابن الزبير يواصل من الجمعة الى الجمعة ، فاذا كان عند إفطاره من الليلة المقبلة ، يدعو بقدح ثم يدعو بقَعْب من سمن ، ثم يأمر فيحلب عليه ، ثم يدعو بشىء من صبر فيذره عليه ثم يشربه . فأما اللبن فيعصمه ، وأما السمن فيقطع عنه العطش ، وأما الصبر فيفتح أمعاءه .

أما عن شجاعته ، فقد رأينا موقفه فى حرب إفريقية وماكان من انتصاره على جرجير ملك الروم ، كما رأينا موقفه فى مكة : تفرق عنه أنصاره فأبى أن ينكص على عقبيه ، ثم حمل على أعدائه ، وكان يضرب بسيفين ويقول :

لوكان قربى واحد كُفيته
أوردته الموت وذكّيْته

وكان يقول :

ولسنا على الأعقابَ تَدْمَى كلُومنا

ولكنْ على أقدامِنا يَقطُرُ الدَّم

كما قاتل عن عثمان وحارب عليا ووقف فى وجه معاوية .

هذه سيرة عبد الله بن الزبير ابن بنت الصديق ، وحفيد صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ، وابن أخت عائشة أم المؤمنين ، وأحد مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وأعلام المسلمين المبرزين . جعل الله هذه عظة للمتعظين العاملين ليوم الدين .

٢٦ – عبد الملك بن مَرْوان

ماذاكَرْتُه حديثا إلا زادنى فيه ولاشعراً إلا زادنى فيه

نتحدث عن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبى العَاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيره بن أبى العاص بن أمية . يجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ، وكان يضرب بأمه المثل فى الخصال الحميدة والصفات الكريمة ، وفيها يقول عبيد الله بن الرقيات ممتدحا عبد الملك :

أنت ابنُ عائشةَ التى فَضَلتْ أرومَ نسائها
لم تلتفتْ للداتها ومضتْ على غلوائها
وَلَدَتْ اغرَّ مباركا كالشمس وسطَ سمائها

ولد عبدالملك بالمدينة سنة ست وعشرين من الهجرة ،فى خلافة عثمان بن عفان ونشأ نشأة عالية ، وأخذه أبوه بحفظ القرآن، ورواية الحديث، وحفظ الشعر حتى برع فيه . قضى عبدالملك طفولته فى المدينة المنورة التى أصبحت حاضرة الدولة الاسلامية، وتدفقت إليها الأموال وأخذ المسلمون يبنون فيها القصور ويشيدون الدور ويحيون حياة مترفة هينة. وكان أبوه مروان بن الحكم من أقرب المقربين إلى عثمان الذى قربه إليه وأعطاه مالا كثيراً . فى هذه البيئة المترفة شب عبد الملك ، كما يشب صبية بنى أمية ، وترعرع فى بحبوحة العز والترف بفضل ما حباه الله من أبوين كريمين وثروة طائلة .

ثم قضى عثمان بن عفان وهو لم يزل فى التاسعة من عمره، وثارت الفتنة بين أنصار

على وأنصار معاوية . غير أن مروان بن الحكم آثر أن يبتعد عن هذه الفتن الدامية ، فاعتزل السياسة بعد موقعة الجمل ، وبايع عليا وأقام بالمدينة ، وظل على ذلك حتى آلت الخلافة إلى معاوية . وكان عبدالملك قد بلغ من العمر خمسة عشر ربيعاً . فتى موفور القوة راجح العقل ، قد أخذ من العلم بنصيب كبير . ولا غرو فقد كانت المدينة فى ذلك العصر كعبة القصاد من العلماء والمحدثين والفقهاء ، فاغترف الفتى عبدالملك من ذلك المورد الزاخر ما شاء الله أن يغترف .

ثم توفى معاوية وخلفه ابنه يزيد . وكان عبدالملك قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، اكتملت رجولته ، وتفتق ذهنه ، وصفت نفسه ، فانتقل هو وأبوه إلى دمشق ، حيث قربهما يزيد اليه وأكرمهما وبالغ فى إكرامهما . ولا شك أن عبدالملك نعم بحياته الجديدة بدمشق ، حاضرة الأمويين وملاذهم ، فقد كان البلاط الأموى قد بلغ فى ذلك العهد الغاية فى الروعة والأبهة .

نعم عبدالملك — شأنه فى ذلك شأن شباب بنى أمية — بمباهج هذه الحياة الجديدة . غير أنه كان يستنكر هذه السياسة الطائشة التى كان يسير عليها يزيد بن معاوية حين جهز جيشا إلى أهل مكة . فقد روى أن عبدالملك قال : أعوذ بالله ! أيبعث إلى حرم الله ؟ ولما علم بنبأ الجيش الذى سيره يزيد لقتال عبدالله بن الزبير لم يقره عبد الملك على ذلك . روى يحيى الغسانى قال : لما نزل مسلم بن عقبة المدينة ، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبدالملك ، فقال لى عبدالملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت . نعم قال ثكلتك أمك ! أتدرى إلى من تسير ؟ إلى أول مولود ولد فى الاسلام ، إلى ابن حوارى رسول الله ﷺ وإلى ابن ذات النطاقين . أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ، ولئن جئته ليلا لتجدنه قائما ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لاكبهم الله جميعاً فى النار .

ثم توفى يزيد بن معاوية وخلفه معاوية الثانى فى سنة ثلاث وستين للهجرة ، ثم مات

معاوية الثانى سنة أربع وستين، فهاج عرب الشام، وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم وتماسكهم. غير أن هذه الوحدة ما لبثت أن تفككت أوصالها حين مالت كلب إلى بنى أمية وأصبحت قيس ضلعهم مع عبدالله بن الزبير، وانقسمت كلب نفسها: فمال فريق منهم إلى خالد بن يزيد وهو — وإن كان صغيراً — إلا أنه كان فصيحاً بليغاً. ومال فريق آخر إلى مروان بن الحكم، لسنه وشيخوخته. واستمر النزاع بين أنصار بنى أمية حتى عقدوا مؤتمر الجابية، وبايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة فى ذى القعدة سنة ٦٤هـ. وكان عبدالملك قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره. وقد اضطلع مروان بالحكم فى وقت كادت الأحداث ان تطيح بالدولة الأموية، فقد خرج عبد الله بن الزبير بالحجاز وامتدت دعوته إلى مصر والعراق، غير أن مروان استطاع أن يقف فى وجه ابن الزبير، وأن يقاوم مقاومة الأبطال. فقد استرد مصر وطرد عبدالرحمن ابن جحدم عامل ابن الزبير منها، وولى عليها ابنه عبدالعزيز بن مروان، وأعد جيشين سير أحدهما إلى الحجاز والآخر إلى العراق، ثم عاجلته المنية فى سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة لولده عبدالملك.

اضطلع عبد الملك بن مروان بعبء الخلافة الفادح وهو فى التاسعة والعشرين من عمره، فى وقت كادت الأمة العربية أن تمزقها العصبية القبلية التى دأب النبى ﷺ على إخمادها حتى أشرفت الدولة الأموية على الزوال، لولا أن أتاح لها هذا الفتى الأموى الذى امتاز برجاحة العقل، والقدرة على تصريف الأمور والحزم فى غير عنف واللين فى غير ضعف. ولو لم يقدر لعبد الملك ان تئول إليه أزمة الأمور فى هذه الأوقات العصيبة، لتفرقت كلمة المسلمين وأكلت العصبية الأخضر واليابس، وتبددت الجهود التى بذلها الخلفاء منذ وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لنشر الإسلام وتوطيد دعائمه ووضع لوائه. وتتمثل هذه السياسة الرشيدة التى أخذ عبد الملك نفسه بها فى هذه الخطبة التى خطبها بعد أن تمت له البيعة.

« أما بعد فلست بالخليفة المستضعف ، ولا الخليفة المداهن ، ولا الخليفة المأفون . الا وأن من كان قبلى من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال ، ألا وإنى لا أداوى ادواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم . تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم ؟ . فلم تزدادا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم . هذا عمرو بن سعيد ، قرابته قرابته وموضعه موضعه ، قال برأيه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا . ألا وإنا نحمل لكم كل شىء إلا وثوبا على أمير أو نصب راية » .

وكانت الدولة الاسلامية فى ذلك العهد أحوج ما تكون إلى هذه السياسة الحازمة الصارمة لترأب الصدع وتلم الشعث وتلزم السائرين حدودهم ، وقد استطاعت سياسة عبد الملك ابن مروان أن ترد إلى الأمة الاسلامية قوتها ، وان تقر السكينة والطمأنينة فى الأمصار الاسلامية ، قاصيها ودانيها . ففى مصر انتشر السلام وامتد الأمن فى عهد عبد العزيز بن مروان ، . وفى الحجاز قضى على ابن الزبير قضاء مبرما بفضل ساعده الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ولى الحجاز سنة ٧٣ هـ ، وظل بها إلى سنة ٧٥ هـ حتى استقامت قناته واستسلم المناوئون له . ويؤخذ على عبد الملك حصار مكة وضرب الكعبة بالمجانيق . على أن بعض المؤرخين يرى أن عبد الملك لم يرد أن يحط من شأن الكعبة ، وإنما اضطر إلى قتال عبدالله بن الزبير ، فحدث ما حدث عن غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة ، جعل هدفه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعا فى الدين .

ثم سير عبد الملك الحجاج إلى العراق ، فدخل الكوفة وخطب أهلها خطبته المشهورة ، التى أنذرهم فيها وتوعدهم . ثم سار إلى البصرة وفعل بأهلها ما فعل بأهل الكوفة ، واستطاع بسياسة الحزم والعنف أن يخضع العراق وما والاه من بلاد المشرق

لسلطان عبدالملك الذى توطدت دعائم ملكه، فانتشر الأمن فى بلاده بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه . فقد كان يميل إلى إقرار العدل ويكره تخطى حدود الاعتدال فى عقوبته . وتتمثل هذه السياسة الرشيدة فى وصية عبدالملك لأخيه عبد العزيز حين ولى مصر ، إذ قال له : أبسط بشرك وألن كنفك، وآثر الرفق فى الأمور فانه أبلغ بك . وانظرحاجبك فليكن خير اهلك ، فانه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده .

وفى عهد عبدالملك فتحت هرقلة ، وغزت جيوشه ارمينية وصنهاجة بالمغرب ، وانتشر الاسلام فى ربوع المغرب وبلاد ماوراء النهر ، وبدت الدولة الاسلامية أوفر ما تكون قوة واشد ما تكون وحدة . لذلك يعتبر عبد الملك بن مروان بحق المؤسس الثانى للدولة الأموية ، لانه اقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه اليها من جاء قبله من الخلفاء . ولم يمض سبع سنين على خلافته حتى اسنقامت له الامور وهدأت الاحوال،وساد السلام فى البقية الباقية من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده .

ولكى يقيم ملكة على أسس سليمة ، قام عبدالملك بعدة اصلاحات خلدها له التاريخ فقد ضرب الدينار الاسلامى لاول مرة فى تاريخ الاسلام، وكان يرمى من وراء ذلك الى اصلاحات اقتصادية واسعة النطاق . ذلك أن ضبط الدينار سيضبط الخراج ويضبط الجزية، ويدعم المعاملات التجارية ، فامتلأ بيت المال واستطاع عبد الملك بما تجمع لديه من أموال طائلة، أن يقوم بهذه الاصلاحات الواسعة النطاق. كما عرب الدواوين بعد أن كانت بالفارسية فى العراق واليونانية فى مصر والشام، فنقل ديوان مصر فى اليونانية والقبطية الى العربية فى عهد الوليد بن عبد الملك . وهو أول من كسا الكعبة بالديباج .

ولد عبد الملك فى المدينة كما تقدم ودرج فى ربوعها وشب تحت سمائها ، فأشرب

قلبه الورع والتقوى والايمان الصحيح لمجاورته قبر الرسول عليه افضل الصلاة والسلام. فقد أخذ نفسه بحفظ القرآن ورواية الحديث والتفقه فى الدين. قال ابن سعد: كان عبد الملك زاهدا ناسكا بالمدينة قبل الخلافة. وقال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب اشد تشميرا، ولا افقه ولا انسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان. وكان يكثر من الصلاة والخشوع لله روى يحيى بن سعيد قال: من صلى فى المسجد ما بين الظهر والعصر: عبد الملك بن مروان وفتيان معه، كانوا اذا صلى الامام الظهر قاموا فصلوا الى العصر، فقيل لسعيد بن المسيب؟ لو قمنا فصلينا كما يصلى هؤلاء، فقال سعيد ابن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، وانما العبادة التذكر فى أمر الله والورع عن محارم الله

وقد ضرب عبد الملك فى العلم بسهم وافر، فشهد له عبد الله بن عمر، اذ قيل له: انكم معشر اشياخ قريش يوشك ان تنقرضوا فمن نسأل بعدكم؟ فقال ابن عمر: ان لمروان ابنا فقيها فاسألوه. كما دخل عبد الملك على ابى هريرة رضى الله عنه، فقال أبو هريرة هذا يملك العرب. وقالت ام الدرداء لعبد الملك: ما رأيت أحسن منك محدثا ولا اعلم منك مستمعا. وقال الشعبى: ماجالست احدا الا وجدت لى عليه الفضل الا عبد الملك ابن مروان، فانى ماذاكرته حديثا الا زادنى فيه، ولا شعرا الا زادنى فيه. سمع عبد الملك من عثمان وابى هريرة وأبى سعيد وام سلمة ابن عمر ومعاوية، وروى عنه عروة والزهرى ويونس بن ميسرة وغيرهم.

وكان عبد الملك بحكم ثقافته هذه بليغا فصيحا. روى عن الاصمعى انه قال: اربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل: الشعبى وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية. وكان عبد الملك يحفظ الشعر ويرويه ويستسيغه ويجيز قائله الاجازة الحسنة دخل عليه الاخطل يوما فأنشد:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم   واعظم الناس احلاما اذا قدروا

فقال عبد الملك : خذ بيده ياغلام فاخرجه ثم الق عليه من الخلع مايغمره . ثم قال : ان لكل قوم شاعرا وشاعر بنى أمية الأخطل .

كان عبد الملك حكيما، أجرى كلامه مجرى المثل فقد قيل له : من أفضل الناس؟ قال : من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة،وأنصف عن قوة . وقال ابن عائشة: «كان عبد الملك اذا دخل عليه رجل من افق من الآفاق قال : اعفنى من أربع وقل بعدها ماشئت : « لا تكذبنى فان الكذوب لا رأى له ، ولا تجبنى فيما لا أسألك فإن فيما لا أسألك عنه شغله ، ولا تطرنى فانى اعلم بنفسى منك، ولا تحملنى على الرعية فانى الى الرفق بهم أحوج ، حتى قيل عن عبدالملك : « معاوية احلم وعبد الملك احزم .

مات عبدالملك سنة ست وثمانين للهجرة . ولما اشرف على الموت قال والله لوددت انى كنت منذ ولدت الى يومى هذا حمالا، ثم اوصى بنيه بتقوى الله ونهاهم عن الفرقة والاختلاف وقال : كونوا بنى أم برره ، وكونوا فى الحرب وللمعروف منارا ، فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يبقى اجره وذكره ، واحلوا فى مرارة ، ولينوا فى شدة ، وكونوا كما قال ابن عبد الاعلى .

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق و بطش باليد
عزت فلم تكسر وان هى بددت فالكسر والتوهين للمتبدد

عاش عبد الملك زاهدا ومات زاهدا. اطيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

٢٧ — الوليد بن عبد الملك

« رحِمَ الله الوليد وأيْنَ مثل الوليد » ؟

نتحدث الآن عن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وأبوه عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى العظيم الذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة الاموية ، وجده مروان بن عبد الحكم الذى اقال الدولة الاموية من عثرتها وأنقذها من الأخطار التى كادت أن تودى بها . وعهد الوليد هو العهد الذى اينعت فيه ثمار الحضارة الاموية فربت واهتزت وانبتت من كل زوج بهيج . وفى عهده تألق بلاط الخلفاء بدمشق ، وتكدست الاموال فى بيت مال المسلمين ، واستؤنفت الفتوح الاسلامية الكبرى بعد عمر بن الخطاب . وبلغت الدولة الاسلامية فى عهده أقصى اتساعها ، فامتدت من جبال البرانس غربا الى بلاد الصين شرقا ، ومن آسيا الصغرى شمالا الى بلاد النوبة جنوبا .

توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الوليد ، وكان ابوه قد اوصى له بالخلافة من بعده على أن يخلفه اخوه سليمان . وعلى الرغم من أن الوليد شب مترفا ، استطاع ان يقود الدولة الاسلامية فى حزم اثار إعجاب المؤرخين واصحاب السير واستطاع برغم سوء رأى أهله فيه ان يوجه الفتوح الاسلاميه توجيها يشهد له بحسن الحيلة وسعة الافق ورجاحة العقل .

ولم يحفظ التاريخ من سيرة الوليد الخاصة مايستحق ان يذكر ، إنما خلد ذكر فتوحه العظيمه وآثاره الرائعة التى طاولت الزمن وبقيت على مر الايام وكر العصور . والواقع ان تاريخ الوليد هو تاريخ ثلاثة من أبطال الاسلام وأعلامه وفحوله ومشاهير قواده

الفاتحين ، الذين دوخوا البلاد وأوغلوا فى الغزو وبسطوا رقعة الدولة الاسلامية ، ونعنى بهم : قتيبة بن مسلم الباهلى، فاتح بلاد ماوراء النهر، ومحمد بن القاسم بن محمد الثقفى، فاتح بلاد السند ، وموسى بن نصير ، الذى أتم فتح بلاد المغرب وفتح بلاد الاندلس . وتشهد سير هؤلاء الابطال بما أنجب ذلك العصر من مشاهير الرجال . ولن نخرج عن الموضوع اذا نحن عرضنا لما قام به كل من هؤلاء فى اعلاء لواء الاسلام ، والتضحية فى سبيل ذلك بكل مايملكون من جهد . ولا شك أنهم استمدوا هذه القوة الخارقة والقدرة الفائقة من روح ذلك العاهل الاموى الذى كان يجلس على عرش الخلافة فى دمشق ويوحى الى القادة بما يفعلون .

أما قتيبة بن مسلم، فقد ولاه الحجاج خراسان سنة ٨٦هـ ، فخرج الى بلخ فتلقاه دهاقينها وعظماؤها وساروا معه . ولما عبر نهر جيحون قابله ملك الصغانيان واهدى اليه كثيرا من الهدايا وسلم اليه بلاده . ثم توالت انتصاراته ، ففى سنة ٨٧ غزا بيكند ، وتقع على مرحلة من بخارى، حيث أغار الصغد وقاتلهم قتالا شديدا ، فانهزموا وتفرقوا وطلبوا الصلح . وفى ربيع سنة ٨٨هـ كانت الراية الاسلامية تخفق ببلاد كرمينية بنواحى الصغد بين سمرقند وبخارى . ثم سار قتيبة الى بخارى فتم له فتحها بعد أن لقى عناء كبيرا . وفى سنة ٩٣ هـ فتح مدن خوارزم صلحا، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد، ووطد مركزه فى بلاد ماوراء النهر . وقد قرر هذا الفاتح العظيم أن يمد حدود الدولة العربية فى أواسط آسيا ويعبر نهر جيحون ميمما شطر بخارى ، حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من خوارزم وبخارى وكش ونسف ، وانتصر انتصارا مبينا .

وقد قدر الخليفة الوليد لقائده العظيم هذه الأعمال ، فارسل اليه يقول : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد اعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك . فاتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ، ولاتغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى انظر الى بلائك والثغر الذى أنت فيه . »

وكان من أثر فتح بلاد ماوراء النهر أن دخل الاسلام فيها . ذلك أن قتيبة لما وصل إلى سمرقند، وجد فيها كثيرا من الأصنام . وكان عبادها يعتقدون ان كل من اعتدى عليها مات لساعته . على أن ذلك الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التى أثارتها تلك الخرافات . ومن ثم لم يحجم عن احراق الاصنام . وقد روى المؤرخون أن قتيبة أتى بالاصنام ، فكانت كالقصر العظيم وأخذ ماعليها، وامر بها فاحرقت ، فجاءه غوزك فقال : ان شكرك على واجب . لاتتعرض لهذه الأصنام ، فان منها اصناما من احراقها هلك فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدى ، فدعا بالنار فكبر ، ثم أشعلها فاحترقت . »

ولكن أطماع قتيبة لم تقف عند حد ، إذ أراد أن تدرك جيوش المسلمين مشارف بلاد الصين ، فمضى قدما فى سنة ٩٦ ﻫ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف من المسلمين . وبينما هو فى طريقه إليها ، جاءه نبأ وفاة الوليد ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو ، بل تابع سيره حتى قرب من بلاد الصين . فأرسل إلى ملكها وفدا برياسة هبيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينه وبينهم عدة مراسلات ، قال ملك الصين موجها كلامه إليه : « انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال هبيرة : » كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل ، فان لنا آجالا ، إذا حضرتْ فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه . » فأجابه ملك الصين : « فما الذى يرضى صاحبك ؟ فقال هبيرة . إنه قد حلف ألا ينصرف ، حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوككم ، ويُعْطى الجزية ، فدفع الملك الجزية ، وعاد قتيبة إلى مرو » .

أما القائد الثانى الذى يفخر به عهد الوليد ، فهو محمد بن القاسم بن محمد الثقفى ، الذى عهد إليه الحجاج بن يوسف أن يغزو بلاد الهند . فسار إليها فى سنة ٨٩ ﻫ وحاصر

ثغر الديبل وفتحه عنوة، وواصل فتوحه فى هذه البلاد، حتى بلغ نهر السند، وكان يعرف إذ ذاك باسم نهر مهران . وهنا التقى محمد بن مسلم بداهر ملك السند، وكان هو وجنده يقاتلون الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه ، وقال رجل من محمد مفاخراً :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
إنى فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند
وتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه فى كافة بلاد السند ، ثم تابع هذه الفتوح حتى وصل إلى الملتان ودخلها .

وفى هذه الأثناء كان التوفيق يحالف جنود المسلمين فى جهة أخرى ذلك أن موسى ابن نصير مولى عبد العزيز بن مروان ، قد قلده الوليد بن عبد الملك إفريقية فى سنة ٨٨ هـ، فخرج من مصر على رأس جيش قاصداً هذه البلاد . فلما بلغها ضم إليه جيشاً آخر جعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد . وقد أخذ موسى يقاتل البربر ويبسط نفوذ الأمويين وينشر الإسلام فى أرجاء بلاد المغرب حتى بلغ طنجة ، وكانت قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فحاصرها حتى تم له فتحها وأسلم أهلها . وبهذا تمكن موسى من فتح بلاد المغرب كلها، ولم يقف فى طريقه غير قلاع سبتة الحصينة على مجاز الزقاق . وكانت كغيرها من بلاد جنوبى بحر الروم تحت حكم امبراطور الروم غير أنها لبعدها عن القسطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة اسبانيا بطلب المعونة .

وكما تطلع قتيبة بن مسلم إلى حدود الصين ومحمد بن القاسم إلى بلاد السند، تشوق موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس عبر بحر الزقاق، فأراد أن يكتسب إلى الإسلام نصراً جديداً وأن يكتسب أجر فتح بلاد الأندلس .

وفى شهر شعبان سنة ٩٢ هـ القت السفن التى تقل جند موسى بقيادة طارق مرساها

قبالة الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، ونزل المسلمون فى مكان يقال له البحيرة جنوبى اسبانيا . وبذلك فتح موسى فى التاريخ الإسلامى صفحة جديدة مجيدة، تؤذن بتطور عظيم فى مجرى التاريخ الإسلامى كله . ففى اسبانيا اينعت الحضارة العربية ، فاغترفت منها أوربا المتعطشة ما شاء لها أن تغترف . وأوغل موسى فى بلاد الأندلس وأتم فتحها عدا الأقاليم الجبلية الشمالية التى التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم . ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح فى جنوب بلاد فرنسا الحالية، على أن يتجه شرقا حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها، ثم يستمر فى فتوحه حتى يلحق بدمشق حاضرة الخلافة الأموية فى ذلك الحين. وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية . وكاد أن يهم بتنفيذ مشروعه هذا، لولا أن الوليد استدعاه ، فوصل إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولى أبنه عبد العزيز بلاد الأندلس وابنه عبدالله إفريقية . ولكنه لم يدرك دمشق إلا بعد وفاة الوليد ، وكان قد خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك .

ومن عجب أن ذلك الفاتح العظيم والقائد الشهم قد ختمت حياته خاتمة محزنة لا تليق بجهاده فى سبيل رفع لواء الإسلام واعلاء كلمته . فقد سخط عليه سليمان بن عبدالملك، وانتقم منه شر انتقام، كما انتقم من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم.

غير الفتح الإسلامى حال أهل الأندلس بوجه عام . فقد زال الحكم القوطى وزالت آثاره عن تلك البلاد، ولم يبق للقوط شوكة، وآلت أملاكهم وأموالهم إلى العرب الفاتحين. أما اليهود الذين ذاقوا الذل والهوان فى حكم القوط، فقد سمح لهم العرب بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم . وأحسن العرب معاملة الرقيق الذين حل بهم البؤس والشقاء، فنالوا فى عهد العرب كثيراً من الحقوق الذين حرموا منها فى عهد القوط . وكان هم العرب منصرفا إلى توطيد السلام بين الأجناس المختلفة، فانقاد الأسبان لحكمهم لما أنسوا فيه من التسامح الذى كانوا ينشدونه .

ولم يكن الفتح هو كل شيء في سيرة الوليد . فقد أتم السياسة الإصلاحية التى بدأها أبوه من قبل،وتعنى بها تعريب الدواوين حتى تبدو الدولة الإسلامية عربية فى كل شيء فى تقاليدها وفى نظمها وفى حضارتها . فنقل الوليد ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية . و يعتبر هذا العهد فاتحة غلبة العربية فى مصر. فقد تم تعريبها وبدأ العرب يتولون المناصب الرئيسية فيها . وكان للأموال الطائلة التى تدفقت إلى بيت المال فى عهد الوليد بفضل السياسة الاقتصادية التى وضع أبوه أساسها أثر عظيم. فقد كلف الوليد بالعمارة كلفاً شديداً جعلها مسلاته وملهاته . فجمل دمشق وضواحيها بالمبانى العامة، حتى تصبح بحق الحاضرة الإسلامية الكبرى لهذه الامبراطورية الشاسعة الأطراف . وقد سار كلف الوليد بالعمارة سير الأمثال.قيل : أن الناس فى دمشق كانوا يتكلمون عن العمارات وجمالها، وفى عهد سليمان عن الطعام والنساء . وفى عهد عمر بن عبد العزيز عن الدين والقرآن .

بنى الوليد مسجد دمشق بين سنتى ٨٨ و ٩٦ هـ . ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى فى دمشق ، وعرض عليهم رغبته فى إدماج كنيسة القديس يوحنا فى مسجد المسلمين،واستعداده لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى مكان شاءوا ، وأن يدفع إليهم ثمنها مضاعفا،فأبوا واحتجوا بالعهد الذى أخذه المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء . ولكن الوليد أدخل الكنيسة فى المسجد، وأمر بأن يكتب بالذهب على اللازورد فى حائط المسجد : « ربنا الله لا نعبد إلا الله» أمر ببناء هذا المسجد . وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبدالله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين» . وقيل إن السجلات التى اشتملت على نفقات البناء نقلت الى قصر الوليد على ثمانية عشر بعيرا لبحثها واقرارها، فأقرها الخليفة الأموى دون بحث أو مراجعة وقال : هو شيء أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئا . ومما يذكر أن سفراء امبراطور الروم رغبوا فى زيارة مسجد دمشق الذى بناه الوليد، فلما

مروا بصحن المسجد واستقبلوا القبلة، رفعوا رءوسهم ونكس رئيسهم رأسه واصفر وجهه، فسأله من معه فقال: انا معشر أهل رومة نقول ان بناء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة لابد أن يبلغوها. ولما اتصل هذا القول بمسامع عمر بن عبدالعزيز قال: انى أرى أن مسجدكم هذا غيظ على الكفار، وترك ما عزم عليه من نزع الفسيفساء الموجودة به.

ومما يسجل للوليد بالفخر عمله على اصلاح الحرم النبوى الشريف. فقد أمر عمر ابن عبد العزيز عامله على المدينة بادخال حجرات زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام فى المسجد، فأصبحت مساحته مائتى ذراع فى مثلها. وكتب الى امبراطور الروم يطلب منه العمال لعمارة مسجد الرسول، فبعث اليه أربعين رجلا من الروم، وأربعين من القبط وأربعين ألف مثقال من الذهب، وأحمالا من الفسيفساء. فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة، وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص، وجعل المحراب والمقصورة من خشب الساج

كان الوليد يحب الشعر ويقرضه ويطرب لسماع جيده، كما كانت زوجه أم البنين مشهورة بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر. وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة، وكان الوليد يستشيرها فى مهام الأمور.

كان الوليد محبا للخير، «يختن الأيتام ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للمرضى من يخدمهم وللاضرار من يقودهم. وعمر المسجد النبوى ووسعه، ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء، وحرم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم ما يكفيهم، وضبط الأمور أتم ضبط. قال ابن أبى عبلة: «رحم الله الوليد وأين مثل الوليد؟ افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق، وكان يعطينى قطاع الفضة أقسمها على قراء مسجد بيت المقدس.

وفى سنة ٩٦ هـ توفى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى السمح الجواد البار بالفقراء والمعوزين، ورافع لواء الحق والدين. رحمه الله ورحم من ترحم عليه!

٢٨ — عبد العزيز بن مَرْوان

« قدمت مصر فى إمرة مسلمة بن مخلد فتمنيت بها أمانى فأدركتها »

من أعلام الاسلام وخيرة الولاة الذين حكموا مصر فى العصر الأموى ، عبدالعزيز ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس . ولد عبد العزيز من أبوين كريمين فأبوه مروان بن الحكم ، وكان من ذوى الرأى والفصاحة والشجاعة ، ومن أكثر المسلمين تلاوة للقرآن ورواية للحديث . وأمه ليلى ابنة زياد بن الأصبغ الكندى ، وكان يقال لعبد العزيز ابن ليلى نسبة إلى أمه كما يقال له ابن مروان نسبة الى أبيه مروان

اتخذ عثمان بن عفان مروان وزيرا له ومشيرا ، ولما آلت الخلافة إلى على اعتزل مروان السياسة بعد موقعة الجمل المشهورة ، وبايع عليا وأقام فى المدينة حتى آلت الخلافة إلى معاوية ، فولاه المدينة مرتين . ولما مات معاوية قربه ابنه يزيد اليه ، فظل فى دمشق حتى مات يزيد ، واحتدم النزاع بين اليمن وهم عرب الجنوب ، ومضر وهم عرب الشمال . وعقد أنصار بنى أمية مؤتمر الجابية الذى بايعوا فيه مروان بالخلافة سنة ٦٤ هـ ، ثم خالد بن يزيد ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعده . وانتقل الملك من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى . أما قيس فقد اجتمعت بمرج راهط ، وبايعت عبدالله بن الزبير ، فانحصرت الخلافة بينه وبين مروان ، وامتد النزاع إلى سائر الولايات الاسلامية .

قضى عبد العزيز أيامه مع أبيه مروان فى المدينة حيث الصخب والخلاف وكثرة تبديل عمال بنى أمية ، ليكونوا عيونا للخلفاء على من تحدثه نفسه بالخروج على سلطانهم . وقد قضى عبد العزيز معظم حياته فى المدينة ، حتى أمر ابن الزبير بطرد عمال يزيد بن معاوية من هذه البلاد ، فرحل أبوه مروان بن الحكم بولده وأهل بيته الى دمشق وبقى بها حتى آلت الخلافة اليه .

فى هذه البيئة المترفة وفى ذلك الجو الصاخب، ولد عبد العزيز بالمدينة المنورة التى قضى بها أبوه معظم حياته ، فنشأ عبد العزيز كما كان ينشأ أبناء الأشراف، فتعلم الفروسية وطلب العلم وتفقه فى الدين وروى الحديث وتوفر على دراسة الأدب . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال، تزوج من أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وأنجب منها ابنه عمر بن عبد العزيز الذى أصبح حكمه غرة فى جبين الدولة الأموية ، كما أصبح أبوه عبد العزيز من قبل غرة فى جبين ولاة مصر فى العصر الأموى .

وقد صهرت الحوادث عبدالعزيز وحنكته التجارب قبل أن يتقلد ولاية مصر بثمانى عشرة سنة . فقد قدم هذه البلاد مع مسلمة بن مخلد الذى وليها من قبل معاوية فى سنة ٤٧هـ، وظل بها الى أن مات فى عهد ابنه يزيد سنة ٦٢هـ. وعمل عبدالعزيز تحت إمرة هذا الوالى المصلح الورع السمح الذى عرف بعطفه على القبط، فسمح لهم بأن يبنوا كنيسة فى الفسطاط ، وبنى فى الروضة مقياسا للنيل ودارا للصناعة ، ورد الروم حين كما نزلوا البرلس سنه ٥٣ ، كما عنى ببناء المساجد وإصلاحها، وأم المسلمين فى الصلاة طوال مدة ولايته . بل لقد أفاد عبدالعزيز من اتصاله بقيس بن كليب الذى اتخذه مسلمة حاجبا له. وكان لذلك كله أثر بعيد فيما اكتسبه هذا الشاب من خبرة ، وما عرف عنه من كفاية، وما اتصف به من دماثة الخلق ولين العريكة وفى هذه الفترة السعيدة من حياة عبدالعزيز نمت آماله واكتملت ، حتى لقد أصبحت نفسه تجيش بالأمانى والآمال التى لا يفكر فيها الا الشباب الطموح الى المجد. فقد أثر عنه أنه قال : «قدمت مصر فى إمرة مسلمة ابن مخلد ، فتمنيت بها أمانى فأدركتها : تمنيت ولاية مصر ، وأن أجمع بين امرأتى مسلمة، ويحجبنى قيس بن كُليب حاجبه . فتوفى مسلمة فقدم مصر فوليها، فحجبه قيس، وتزوج امرأتى مسلمة وهما أم كلثوم الساعدية وأروى بنت راشد الخولانى » .

ولما آلت الخلافة الى مروان بن الحكم ، جرد بعد موقعة مرج راهط جيشا بقيادته الى مصر لاستخلاصها من عامل عبد الله بن الزبير ، وسار ابنه عبد العزيز فى جيش

آخر إلى أيلة عند العقبة . ونشط ابن جَحْدَم لحربه ، وأشار عليه بعض رجاله بأن يحفر خندقا موقعه الآن جهة القرافة ، فتم حفره فى شهر واحد . ولكن جيوش هذا الوالى وخندقه ومراكبه لم تنفعه ولم تحل دون إلحاق الهزيمة به ، ودخل مروان عين شمس، ثم دخل الفسطاط فى أول شهر جمادى الأولى من سنة ٦٥ هـ ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقرا له . وبايعه الناس إلا نفرا ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير ، فضرب أعناقهم كما قتل سيد لخم ، فسار زهاء ثلاثين ألفا منهم وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان ثائرين ، فتوسط بعضهم فى الصلح وانصرف الثائرون . وفى ذلك اليوم المشئوم توفى عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولم يستطع الناس أن يشيعوا جنازته ، فدفن فى داره .

ولما عزم مروان بن الحكم على العودة الى دمشق، ولى ابنه عبد العزيز مصر ولاية «طلقة» بمعنى أنه جعل إليه صلاتها وخراجها ، وكان بعض المصريين ، أو بعبارة أدق ، بعض العرب النازلين فى مصر فى ذلك الوقت ، على الشنآن والبغض لمروان ولبنى أمية وخاف عبد العزيز عاقبة مقامه فى هذا البلد وأفضى بذلك الى أبيه ، فرسم له الخطة المثلى التى ينبغى له أن يسير عليها ، فيتألف قلوب الناس على اختلافهم . وفى هذه الخطة بين مروان لابنه أن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا إذا أسرهم بجوده وإحسانه، وجذبهم اليه بالمودة والبشاشة ولين الجانب ، وأظهر لكل زعيم منهم أنه خاصته دون غيره من الزعماء . وبهذا يتفانى الجميع فى خدمته ويجمع الكل على طاعته ، قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ! كيف المُقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال مروان : يابنى ! عُمَّهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طَلْقاً تصفُ لك مودّتهم ، وأوْقع الى كل رئيس منهم أنه خاصَّتُك دون غيره يكن عينا لك على غيره وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا، وجعلت لك موسى بن نُصَير وزيرا ومشيرا وما عليك يابنى أن تكون أميرا بأقصى الأرض ؛ أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك فى منزلك ؟ » .

هذه هى النصيحة الذهبية التى زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته مصر. ولم يفت هذا الخليفة الذى حنكته التجارب وصهرته الحوادث، أن يزيد ابنه من النصائح فى وصية أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة فى هذا البلد : فأوصاه بتقوى الله فى السر والعلانية ، وبالبر بالفقراء ، كما نصح له بأن ينجز وعده إذا وعد ولو حال دون ذلك خرط القتاد ، وبأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمور ولايته. وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل. فقال : «أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيتك ؛ فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأوصيك أن لا تجعل لداعى الله عليك سبيلا، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا» (٤ : ١٠٤) وأوصيك أن لا تعد الناس موعداً إلا أنفذته وإن حملت على الأسنة . وأوصيك أن لا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشير ، فإن الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى محمدا صلى الله عليه وسلم عن ذلك بالوحى الذى يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم فى الأمر (٣ : ١٥٣) .

خرج مروان من مصر فى شهر رجب من سنة ٦٥ هـ ، وولى ابنه عبد العزيز هذه البلاد صلاتها وخراجها على ما تقدم . ثم مات مروان فى مستهل شهر رمضان من تلك السنة ، وكان قد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وأقره أخوه على ولايته . وفى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان كان السلام منتشراً والأمن مستتباً بفضل حسن سياسته حتى كان من خيرة الولاة الذين حكموا مصر فى العهد الأموى. وقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه فنجحت سياسته فى مصر نجاحاً ظاهراً ، وأتى فى عهده بكثير من ضروب الإصلاح : فبنى مقياساً للنيل ، وزاد فى الجامع العتيق الذى بناه عمر بن العاص، فنسب إليه من ناحية الغرب ، وأدخل فى شماله رحبة فسيحة . وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط ونقش عليها اسمه (٦٩ هـ) . واتخذ مدينة

حلوان دارا لإقامته (٧٣هـ) بعد أن أصيب بداء الجذام، أو بسبب انتشار الوباء فى الفسطاط، مما يدل على أنه اعتزم أن يتخذها حاضرة للبلاد، واتخذ بها حرسه وشرطته وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل عيون الماء بالبركة. وفى حلوان غرس عبد العزيز الأشجار والنخيل وبنى المساجد وغيرها من العمارات الفخمة، حتى قيل إنه بذل فى سبيل ذلك مليون دينار وبلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أنه بنى فى الفسطاط حماما لابنه زبان، وأقام على بابه صنما عجيباً من الزجاج على شكل امرأة. وأطلق على هذا الحمام اسم أبى مرة وقد سميت القيسارية التى كانت ملكا لعبد العزيز، قيسارية أبى مرة، وكانت تعرف فى زمن ابن دقماق المتوفى سنة ٧١١ هـ باسم حمام بثينة.

طالت ولاية عبد العزيز على مصر، فأتيح له أن يأتى بكثير من ضروب الإصلاح، واستطاعت البلاد أن تظهر فى عهده بمظهر النشاط الأدبى والمادى. وقد أطنب الشعراء فيما أتاه هذا الوالى من أعمال البر والاحسان والكرم، حتى قيل إنه «كان له ألف جفنة تنصب حول داره ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر». وفى ذلك يقول الشاعر:

كل يوم كأنه يوم أضحى
عند عبد العزيز أو يوم فطر
ولهُ ألفُ جَفْنَةٍ مُتْرَعات
كلَّ يوم تُمِدُّها ألف قدر

وقال الشاعر أيضاً فى وصف جفان عبد العزيز بن مروان:

لا يرْهبُ الناسُ أن يعدلوا
بعبد العزيز بن ليلى أميرا

ترى قدره مُعْلَمنا بالفِناء
يَلْتَقِمُ بعدَ الجزور الجزُورا

كان مروان يطمع فى الخلافة ويرى أنه أحق الناس بها بعد عثمان لأنه كان شيخ بنى أمية ، وغضب بعد أن آلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية. فلما آلت الخلافة إليه، خلع خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد بن العاص من ولاية العهد ، وولاها ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك كتب إلى أخيه أن يخلع نفسه من ولاية العهد ليعهد لولديه الوليد وسليمان ، ولكن عبد العزيز أبى ذلك وكتب إلى أخيه كتابا شديدا قال فيه : إن لم يكن لك وَلد فلنا أولاد ويقضى الله بما يشاء . وقد أثار هذا الكتاب غضب عبد الملك حتى انه دعا عليه

ولكن الأصبغ بن عبد العزيز الذى كان أبوه يرشحه لولاية العهد توفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٦ هـ . وكان لموته أثر بعيد فى نفس أبيه الذى حزن على وفاته حزناً شديداً ، وسارع اليه المرض واشتدت وطأته عليه . ولما أحس بدنو أجله جعل يقول : ألا ليتنى لم أكُ شيئاً مذكوراً ، ألا ليتنى كناسة من الأرض أو كراعى إبل فى طرف الحجاز ثم مات هذا الوالى المصلح الورع ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر جمادى الأولى سنة ٨٦ هـ ، وحمل فى الليل من حلوان إلى الفسطاط فدفن بها .

ولى عبد العزيز بن مروان مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما. ويعد أطول ولاة مصر الإسلامية عهداً. وعلى الرغم من أن مصر كانت طعمة له ، كان له حرية التصرف فى خراجها ، مع امتداد نفوذه إلى بلاد المغرب التى يولى ولاتها من قبله ، فيسير على هديه ويصدرون عن رأيه ويعملون بمشورته — على الرغم من هذا كله — لم يترك عبد العزيز بن مروان عند وفاته من المال النض غير سبعة آلاف دينار — عدا أملاكه فى حلوان وقيسارية أبى مرة وما خلفه من الخيل والرقيق ومن الثياب

المرقع بعضها . فلا عجب إذا أجمع الناس على محبته وَرضوا عنه وعن ولايته، و رثاه الشعراء أحسن رثاء ، فقال سليمان بن أبان الأنصارى :

فمن ذا الذى يبنى المكارم والعلا
ومن ذا الذى يهدى له بعدك الشعر[1]

فكنت حليف العرف والخير والندا
فمتن جميعا حين غيبك القبر

فبعدك لا يرجى وليد لنفعة[2]
وبعدك لا يرجى عوان ولا بكر

ورثى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة — عبد العزيز وابنه الأصبغ فقال :

أبعد الخليفة عبد العزيز
وبعد الأمير كذا وابقه

فما مصر لى بعد عبد العزيـ
ـز والأصبَغ الخير بالمؤنقه[3]

إمامى هدى وهَدْيَى تقِيَ
وأهل الوفاء وأهل الثقه

---

١ — الشعر الكتاب والمراد هنا لازمة وهو المدح .

٢ — لعلها نعمه

٣ — وسط بين الكبر والصغر

٣٠- طارق بن زياد

« ياطارق تقدَّمْ لشأنك »

وهب طارق من نومه مستبشرا وثابت نفسه ببشرى الرسول ولم يشك فى النصر

ان سيرة طارق بن زياد لتصور لنا مدى تسامح الاسلام وعدالته ومساواته بين كافة المسلمين عربهم وعجمهم ، حتى ان كثيرا من الموالى قادوا الجيوش وتسلموا أعلى المناصب ، وعملوا على نشر الاسلام وإعلاء كلمته ورفع لوائه .

كان طارق أحد الموالى الذين كان لهم شأن فى الفتوح الاسلامية . ومن عجب أن يختلف المؤرخون وأصحاب السير فى نسب قائد فذ وفاتح مشهور مثله، فيذكر بعض أنه بربرى الاصل ينتمى الى نفزاوة من بربر إفريقية ، وهى البلاد التى يطلق عليها اسم تونس الآن . وفى رواية اخرى أنه ينتمى الى زنانة ويرى بعض آخر أنه من موالى الفرس من مدينة همذان . وقيل ان اسمه طارق بن عمرو وليس طارق بن زياد . ولكن مما لاشك فيه أنه كان مولى لموسى بن نصير ، وأن موسى وثق به فقربه اليه ، وأمره على بعض الجيوش حين تقلد ولاية افريقيـة من قبل الخليفة الوليد سنة ٨٨ هـ ثم خرج من مصر ، فلما بلغ افريقية ضم اليه جيشا آخر جعـل على مقدمته مـولاه طارق ابن زياد .

أخذ هذان القائدان يقاتلان البربر ويبسطان نفوذ الأمويين وينشران الاسلام فى ربوع هذه البلاد ، حتى بلغا طنجة ، وكانت حاضرة بلادهم وأم مدائنهم ، فحاصراها حتى فتحت وأسلم أهلها .

وبذلك تمكن موسى ومولاه طارق من فتح بلاد المغرب كلها ؛ ولم يقف فى طريقهما غير قلاع سبتة الحصينة على مجاز الزقاق . وكانت سبتة كغيرها من بلاد جنـوبى بحر

الروم تحت حكم امبراطور الروم غيرأنها لبعدها عن القسطنطينية اتجهت الى مملكة اسبانيا بطلب المعونة ، فهى تابعة للروم من ناحية الحكم ، مضافة فى الحقيقة الى ملك طليطلة لحمايتها والدفاع عنها . على أن معاونة أسبانيا لها لم تكن كافية لصد تيار العرب الفاتحين ، الذين امتدت فتوحهم من بلاد الصين شرقا الى أعمدة هرقل غربا ، أى الى سواحل المحيط الاطلسى ، ورأوا مضيق هرقل ورنوا بأنصارهم الى ولايات أسبانيا المشرقة .

وكانت أسبانيا قد أصابها البؤس والشقاء فى أواخر عهد القوط ، بسبب إثقال كاهل الطبقة الوسطى بالضرائب ،التى كانوا يجمعونها للاغنياء ورجال الدين الذين أصبح لهم نفوذ ملحوظ فى شئون الدولة ، وحاول اليهود إشعال نار الثورة غير مرة ، لما نزل بهم من ضيق وعنت ؛ واخلدت الطبقة الدنيا من العبيد الى زراعة ضياع الأغنياء ، وتفشى الوباء حتى مات أكثر من نصف سكان أسبانيا .

تلك حال بلاد الاندلس فى الوقت الذى كان أهل شمال أفريقية يتمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم . فلا عجب اذا تمنى الاسبان ، وبخاصة اليهود والعبيد ، الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر .

وقد جلس على عرش اسبانيا « وتيكا » ويسميه العرب « غيطشة » . لكنه لم يلبث أن عزل وخلفه « أخيلا » ، فعزل فى السنة نفسها على ايدى نبلاء القوط ورجال الكنيسة ، الذين ولوا مكانه « رودريك » قائد الجيش القوطى ، ويسميه العرب « لذريق » ولكن هذا الملك الجديد لم يلبث ان أغرق فى الشهوات حتى نفرت منه القلوب ، ومهد بذلك السبيل لظهور حزب اخيلا الذى حاول استرداد عرشه ، وانضم اليه « جوايان » حاكم سبتة من قبل القوط وقد أضمر هذا الحاكم العداء للملك بسبب سوء مسلكه مع ابنته ، وانضم الى المؤتمرين ، وعول على الانتقام لنفسه ، ووجد فى جيوش البربر والعرب فى شمال افريقية خير من يقوم على تحقيق أغراضه وارواء حقده .

زار جوليان موسى بن نصير وهون عليه حال الاندلس ، ووصف أهلها بضعف البأس ، وعاهده على الانحراف الى المسلمين وتأييدهم فى حروبهم ولكن موسى لم يطمئن اليه ، وخشى أن يكون قد اراد التغرير بجيوش المسلمين. ولكن جوليان عول على أن يثبت له صدق اخلاصه ، فأغار على الجزيرة الخضراء جنوبى أسبانيا ، وعاد محملا بالغنائم ، فاطمأن المسلمون اليه ووثقوا به .

ولم يرموسى بدا من الرجوع الى الخليفة الوليد الذى تردد أول الأمر ثم أمر موسى أن يرتاد الطريق ، فأرسل طريف بن مالك ، وكان من البربر (واليه تنسب جزيرة طريف على المجاز) ، فسار على رأس خمسمائة مقاتل جاز بهم البحر فى أربع من سفن جوليان ، وغزا بعض ثغور أسبانيا الجنوبية بمساعدته ، وعاد محملا بالغنائم بعد أن اقتنع بانعدام وسائل الدفاع فى أسبانيا .

وقد شجع نجاح طريف فى هذه الغزاة موسى بن نصير على فتح اسبانيا . فندب لهذا الأمر الخطير مولاه طارق بن زياد قائد جيشه وحاكم طنجة! وقد توسم فيه صدق العزيمة وقوة الشكيمة ، فوق ما امتاز به من قوة البيان ، والقدرة على التأثير فى قلوب سامعيه ، وما اشتهر عنه من الإخلاص فى الجهاد . . .

رجل هذا شأنه وتلك سريرته خير من يضطلع بهذا العمل الجليل . هذا إلى أن طارقا كان من بربر إفريقية ، وأن جل جنده كانوا من البربر ، فهو يستطيع إذن أن يصل إلى شغف قلوبهم ويؤثر فى نفوسهم ويحسن توجيههم ، ويأخذ بأيديهم فى طريق الفوز والنجاح .

وفى شهر شعبان سنة ٩٢هـ عبر طارق البحر فى أربع سفن أعدها له جوليان ، وسار على بركة الله على رأس سبعة آلاف من المسلمين وأخذ طارق وهو على سطح سفينته يتأمل عجائب الكون ، وينظر إلى السماء متوجها إلى الله بقلبه ، يلتمس منه العون ، ويذكر الرسول الكريم وما لاقاه فى سبيل نشر الدعوة من محن وآلام ، إذ أخذته سنة من النوم « فرأى النبى ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ،

وتنكبوا القسى ، فيقول له رسول الله ﷺ ياطارق تقدم لشأنك ، ونظر إلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه » . ثم هب طارق من نومه مستبشراً ، وثابت نفسه ببشراه ولم يشك فى النصر .

وهذا شأن كل من يخلص لدينه ويتمسك بعقيدته ، ولا يألو جهداً فى تحقيق غايته والظفر بأمنيته .

نعم كان هذا شأن طارق وجنده الذين أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان السفن لما ألقت باذن الله مرساها قبالة الجزيرة الخضراء ، ونزل المسلمون فى مكان يقال له البحيرة جنوبى اسبانيا ، أسرع الملك لذريق ، وكان مشغولا بثورة أخيلا فى بمبلونة شمالى أسبانيا ، نحو الجنوب لتخليص بلاده ، وجمع جيشاً جراراً قيل إنه بلغ سبعين ألفا وقيل مائة ألف .

ولكن ذلك الجيش الجرار المزود بكامل العدة والسلاح ، لم يثن عزيمة طارق أو يضعف إيمانه ، بل أخذ يفتح القلاع والمدن . وقد قيل إن امرأة عجوزا من أهل الجزيرة الخضراء وقعت فى أيدى المسلمين . فلما رأت طارقا قالت : « إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم هذا ، فيتغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن فى كتفه اليسرى شامة عليها شعر ، فإن كانت فيك فأنت هو . فكشف ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ماذكرت فاستبشر بذلك ومن معه .

بعث طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد ، حتى يستطيع الوقوف أمام لذريق ، فأمده بخمسة آلاف ، فبلغ جنده اثنى عشر ألفا . وقد ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش لذريق ، فلم يزد طارق إلا حماسة واستبسالا ، فقام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، وألقى عليهم خطبته الخالدة ، التى حثهم فيها على الجهاد والتدرع بالصبر ، ومناهم الأمانى الطيبة ، و بشرهم بما سيفتحون من بلاد ، و يصيبون من غنائم

ويتنعمون فى دنياهم وآخرتهم فقال :

« أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، واسلحته وأقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم ، الجرأة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذه الطاغية ، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم احذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، ابدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا ، استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان (الذهب) ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وانى عند ملتقى الجمعين ، حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فان هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه ، وان هلكت قبل وصولى اليه ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ،

وا كتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون .»

كان لخطبة طارق الرائعة أثرها البعيد فى نفوس جنده وأنصاره ، فألهبت حماستهم وأججت حميتهم ، وأيقنوا أنهم اذا عملوا بنصيحته ، تغلبوا على عدوهم ، وأزالوا كل عقبة فى سبيلهم ، وحققوا آمالهم على يديه ، فصاحوا صيحة رجل واحد ، وهم يقولون لقائدهم وزعيمهم الذى اطمأنوا اليه وعقدوا آمالهم عليه : «فاننا معك وبين يديك». هذه العبارة القصيرة القوية تصور لنا ذلك الأثر العميق الذى أحدثته خطبة طارق فى نفوس سامعيه .

ولما أصبح الصباح، أقبل لذريق وهو على سريره ، محمولا على دابتين ، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد ، تحف به البنود والاعلام . وبين يديه جنده الكثيف من العبيد والمستضعفين الذين ينقصهم النظام والاخلاص . وأقبل طارق فى بساطته ، يحف به أصحابه الذين عمر الاخلاص قلوبهم،وعليهم الزرد، من فوق رءوسهم «العمائم البيض» ، و بأيديهم القسى العربية. وقد امتشقوا السيوف وتقلدوا الرماح. والتقى جيش طارق بجيش لذريق على مقربة من وادى لـكة (و يسميه العرب وادى بكة) الذى يصب فى المضيق عند رأس الطرف الأغر ، وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو ، ثم هجم على لذريق فضربه بسيفه فقتله . وقيل انه جرح فرمى بنفسه فى وادى لـكة ، فغرق وحمل النهر جثته الى المحيط ، ولا تزال نهايته سرا الى اليوم ، وحلت الهزيمة بجيشه ، وتشتت شمله وتفرق أيدى سبا .

ومما ساعد على انتصار المسلمين ، انحياز أبناء غيطشة الى جند طارق ، وكانوا ينفسون على لذريق اغتصابه العرش بعد موت أبيهم . « فلما تقابل الجيشان ، اجمع اولاد غيطشه على الغدر بلذريق ، وارسلوا الى طارق يسألونه الأمان ، على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وان يسلم اليهم اذا ظفر ضياع أبيهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة «نفائس مختارة»،وهى التى سميت بعد ذلك «صفايا الملوك».

كما استطاع جوليان أن يستميل اليه كثيرا من جند لذريق ، مما رجح كفة العرب ومزق شمل جيش لذريق .

وألقى انتصار المسلمين فى وادى لكة بأسبانيا كلها فى أيدى المسلمين ، ولم يكن طارق بحاجة الا الى القليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة فى بعض المدن . « ولم تقف هزيمة العدو على موضع ، بل كانوا يسلمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا » .

كتب طارق الى موسى يخبره بما أحرزه من نصر وما استولى عليه من غنائم ، فدبت الغيرة الى نفسه ، وأراد ان يكون له شرف فتح بلاد الاندلس ، وان يكون له نصيب فى الغنائم ؛ فكتب الى طارق يأمره الا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف ابنه عبد الله على القيروان ، وخرج فى سنة ٩٣ هـ فى عسكر ضخم .

ولكن طارقا رأى بعد ان استشار رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ، و يعطى القوط فرصة يلمون فيها شعثهم و يوحدون كلمتهم ، فأخذ يزحف على مدن أسبانيا ؛ وقسم جنده ثلاث فرق أو كتائب بثها فى شبه الجزيرة ؛ وما زالوا يتبعون جند الاسبان المنهزمين أمامهم ، حتى وصلوا الى جليقية فى الشمال الغربى من اسبانيا .

ثم جاء موسى بن نصير ، فامتدت فتوحه الى برشلونة شرقا ، وأربونة فى الجوف ، وقادس فى الجنوب الغربى ، وجليقية فى الشمال الغربى . والتقى موسى بطارق فى كل مكان من كورة طلبيرة ؛ فحط شأنه ، فظهر ما فى نفسه من حقد وموجدة عليه ، بل ضربه بالسوط ، ووبخه على استبداده برأيه ، وطالبه بالأموال والنفائس التى استولى عليها ، ثم سجنه .

وهكذا جزى موسى طارقا جزاء سنمار ، برغم مابذل من جهد وأحرز من من نصر واصاب من توفيق . و بدلا من أن يضع على هامته أكاليل الغار ، ألقى به فى غياهب السجن ، وعامله معاملة المجرمين لا معاملة الغزاة الفاتحين .

غير أن طارقا استطاع وهو فى سجنه أن يبث شكواه الخليفة الوليد ؛ وكان عادلا يذكر للمحسن إحسانه ، وَيجزيه بقدر ما قدم لأمته ودينه ، فكتب الى موسى يأمره باطلاقه ورده الى عمله ، فعاد طارق الى انجاز فتح هذه البلاد .

أما موسى بن نصير الذى ظلم طارقا ، فقد لقى جزاء ماقدمت يداه . فان الخليفة الوليد استدعاه الى دمشق سنة ٩٦ هـ ، وقبل وصوله اليها مرض الوليد مرض الموت ، فطلب أخوه سليمانُ الى موسى أن يبطىء فى السير حتى يموت الوليد ، طمعا فى الحصول على الغنائم والتحف التى كان يحملها هذا القائد . غير أن موسى لم يعر طلب سليمان أذنا مصغية ، فحقد عليه الخليفة الجديد وانتقم منه ومن أسرته .

ومن عجب أن طارقا ، ذلك القائد الفذ والبطل المغوار والخطيب المفوه والكاتب البليغ ، قد انتهت حياته فى غموض كما بدأت فى غموض . فلم يذكر المؤرخون شيئا ذا غناء عن حياته ، برغم ماقام به من جلائل الأعمال فى فتوح المغرب وفى ولايته لطنجة . وكل ما ذكره هؤلاء المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير بعد فتح الأندلس الى الشام ، وانقطع خبره .

٢٩ — عُمر بن عبد العزيز

« لَسْتُ بخيرٍ من أحدكم ولكني أثقَلُكم حِملا »

يعد عمر بن عبدالعزيز من أحسن خلفاء بنى أمية سيرة ، وأنقاهم سريرة ، وأنزههم يدا ، وأعفهم لسانا ، وأسبقهم إلى نشر لواء الاسلام وإعلاء كلمة الدين. وقد أصبح حكمه غرة فى جبين ذلك العصر ، حتى لقد شبه المسلمون خلافته بخلافة عمر بن الخطاب فى عدله وزهده .

وفى مدينة حلوان التى نقل اليها عبدالعزيز بن مروان دواوين ولايته ، ولد عمر من أبوين كريمين : فأبوه عبدالعزيز الأمير السمح الكريم الذى اشتهر بالورع والتقوى ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكانت لينة الجانب رضية الخلق ، على جانب عظيم من الورع والتقوى .

حفظ عمر بن عبدالعزيز القرآن وهو صغير ، ثم أرسله أبوه إلى المدينة لطلب العلم ، فتفقه فى الدين ، وروى الحديث ، وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر . وبلغ من علو كعبه وتبحره فى العلم أن قيل : «كانت العلماء مع عمر بن عبدالعزيز تلامذة» .

وقد ظل عمر فى المدينة حتى مات أبوه وآلت الخلافة إلى عبدالملك بن مروان ، فبعث فى طلب ابن أخيه وزوجه من ابنته فاطمة . ثم أقام عمر بدمشق حتى ولى الوليد الخلافة سنة ٨٦ هـ ، فعرف لعمر صلاحه وكفايته ، فولاه المدينة فى تلك السنة ، فظل بها سبع سنين كان فيها مثالا يحتذى فى الورع والتقوى .

على أن عمر كان ، برغم هذا كله ، متأثرا بجاهه وطيب أرومته ، حتى لقد أخذ عليه بعضهم أنه كان فى صباه يبالغ فى تنعمه ، ويختال فى مشيته . ولعل مرجع ذلك إلى أنه كان لا يزال فى ميعة الصبا وشرخ الشباب . حتى إذا تقدمت به السن وأثقلت أعباء الإمارة والخلافة كاهله ، زاد تقشفه وزهد فى الدنيا وزينتها .

نعم ! إن هذا التنعم لم يله هذا الشاب المترف عن التمسك بأهداب الدين

وما يفرضه على المسلم من الوفاء بالعهد والميثاق : فقد أراد الوليد أن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد وأن يبايع لابنه ، وأطاعه كثير من الأشراف رغبة أو رهبة. ولكن عمر أبى أن يخلع رجلا له فى عنقه بيعة، فلم يخش فى الحق لومة لائم ولا سخط خليفة ولا خشية عذاب أو موت حين قال لسليمان : « فى أعناقنا بيعة » وأصر على موقفه ، فضيق عليه الوليد حتى أشرف على الهلاك ، لولا أن بعضهم شفع فيه فأطلقه الخليفه واكتفى بعزله عن المدينة .

ثم دارت الأيام دورتها : وآلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، فلم ينس ذلك الموقف الرائع الذى وقفه منه عمر . فلما مرض سليمان مرض الموت، أراد أن يبايع أحد أولاده، فنهاه بعض أصحابه، قال له : يا أمير المؤمنين إنه مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستحفظ الناس رجلا صالحا. فقال سليمان: أستخير الله وأفعل، ثم استشاره فى عمر بن عبد العزيز، فأثنى عليه خيراً وأشار بتوليته العهد. ولم يتردد هذا الخليفة فى مبايعة عمر، مدفوعا بذلك الموقف الذى وقفه منه ، وبما آنسه فيه من حسن الخلق وكريم السجايا.

ضربت عمر دابة فى جبهته وهو غلام. فجعل أبوه يمسح عنه الدم ويقول : إن كنت أشج بنى أمية ، إنك لسعيد. وقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا . ولقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بالعدل حتى قيل : الأشج والناقص أعدلا بنى مروان . أما الناقص فهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، لأنه نقص من أعطيات الحجاز ما كان قد زادهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ولما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة وقرىء كتاب العهد باسمه قال: والله إن هذا الأمر ما سألته الله قط . ولما قدم اليه مركب الخليفة ، أبى وقال : ائتونى ببغلتى فلما جاء أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمتها قال: أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريدون ، وأجعل أثمانها فى مال الله : تكفينى بغلتى هذه الشهباء .

ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من تشييع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه :

مالى أراك مغتما ؟ قال : لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أصل إليه حقه ، غير كاتب إلى فيه ولا طالب منى . ثم صعد المنبر وقال : «أيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام . ألا وإنى لست بقاض ولكنى منفذ، ولست بمبتدع ولكنى متبع، ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا . وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ، ليس بظالم . ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

بذلك كان عمر بن عبد العزيز أشبه الناس بجده عمر بن الخطاب فى زهده وتقشفه وإيمانه بالله وتمسكه بكتابه وسنة رسوله .

ولقد أدخل عمر كثيراً من الإصلاحات كانت فى الواقع فى مصلحة الإسلام أكثر منها فى مصلحة بيت المال . فقد رفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة . وكان من أثر هذه السياسة أن زاد إقبال الناس على الإسلام ، على حين نقص إيراد بيت المال نقصا محسوسا . ورأى بعض ولاته عندما نقصت جزية الرءوس أثر ازدياد دخول الناس فى الاسلام أن يرفع الجزية عمن أسلم ، فأبى عمر أن يجيب هؤلاء الولاة إلى ما طلبوه ، مدفوعا فى ذلك بشدة إيمانه وحرصه على إعلاء كلمة الدين . يدل على ذلك رده على كتاب واليه على مصر ، وقد شكا اليه أن الاسلام أضر بالجزية، واستأذنه فى أن يفرضها على من أسلم ، فكتب إليه عمر كتابه الخالد الذى يقول فيه : «فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ! فان الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » .

ولا غرو فقد قام عمر بحركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة الاسلامية، وقدم لأهالى البلاد التى فتحها العرب كل لون من ألوان الاغراء لقبول الاسلام ، حتى إنه كان يمنحهم هبات من المال . وقد قيل إنه أعطى فى احدى المناسبات قائداً نصرانيا ألف دينار تألفه بها على الاسلام ، كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى الاسلام . كما قيل إن الجراح بن عبدالله عامله على خراسان ، ادخل فى الاسلام

نحوا من أربعة آلاف شخص . وكذلك أثر عن عمر أنه كتب الى ليو الثالث ملك الروم يدعوه الى الدخول فى الاسلام .

بل لقد كان من دعوة عمر بن عبد العزيز الناس الى الاسلام أن دخل فى هذا الدين خلق كثير من بلاد ماوراء النهر ، كما استجاب كثير من امراء السند لدعوته . «وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلم حليشة بن داهر والملوك وتسموا بأسماء العرب » . وأرسل عمر مع اسماعيل بن عبدالله حين ولاه بلاد المغرب ، عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى البربر فى أمور دينهم . وقد أظهر هذا الوالى الجديد نشاطا ملحوظا فى دعوة البربر الى قبول الاسلام ، فلم يبق واحد منهم لم يدخل فى هذا الدين . وقد بلغ من تسامح عمر ورعايته لأهل الذمة، وما ذاع عن زهده وورعه وتقشفه ، أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس الى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، والى اسماء الخلفاء الأولين كلما عرض لذكرهم، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبدالعزيز .

كان عمر شخصية محببة الى النفوس ، وكان من سياسته أن يجنح الى المسالمة ، ويرى انها كفيلة بحل المشكلات وجمع الشمل وتوحيد الكلمة . ولما خرج الخوارج لم يشأ أن يسلك معهم سبيل العنف والشدة كما فعل عمه عبدالملك بن مروان من قبل ، بل أبت حلمه أخلاقه الكريمة وحبه للسلم ، الا أن يقارعهم بالحجة ، فأرسل الى زعيمهم « شوذب » كتابا يقول فيه : « بلغنى أنك خرجت غضبا لله ونبيه ، ولست أولى منى بذلك. فهلم اناظرك ، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرنا . فكتب اليه شوذب يقول : قد أنصفت ، وقد ارسلت اليك رجلين يدارسانك و يناظرانك. ولما جاءه الرسولان ناظرهما واقنعهما، ثم طلبا اليه العودة لاستشارة زعيمهما . ولكن المنية لم تلبث أن عاجلت عمر ، فلم يجن ثمرة ما زرع .

ولقد كان عمر غاية فى التواضع ولين الجانب والزهد ، حتى إنه لم يكن للشعراء نصيب فى بلاطه الذى امتلأ بأهل التقوى والورع . وقد صرف عمال من كان

قبله من بنى أمية ، « واستعمل أصلح من قدر عليه ، فسلك عماله طريقته ، وترك لعن على عليه السلام على المنابر ، وكان بنو أمية يسبونه . ولا غرو فقد سار عمر سيرة أبيه عبد العزيز فى مصر الذى أثر عنه أنه كان « إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، تتعتع . فلما قال له (ابنه) عمر : لم فعلت ذلك ؟ قال يا بنى ! اعلم أن العوام لو عرفوا من على بن أبى طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ولده . فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، قطع السب ، وجعل مكانه قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

وقد بلغ من زهد عمر أنه كان يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة. روى أنه قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك ، وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها ، لم ير مثله : اختارى : إما أن تردى حليك إلى بيت المال وإما أن تأذنى لى فى فراقك ، فانى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد فقالت: لا ، بل أختارك عليه وعلى أضعافه ، فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين . فلما مات عمر واستخلف يزيد ، قال لأخته فاطمة: إن شئت رددته عليك، قالت : لا ، والله لا أطيب به نفسا فى حياته وأرجع فيه بعد موته .

وكان يشترى لعمر بن عبد العزيز قبل خلافته الحلة بألف دينار ، فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ؛ فلما أتته الخلافة ، كان يشترى له قميص بعشرة دراهم ، فاذا لبسه استلانه .

كان عهد عمر بن عبدالعزيز برغم قصره من أروع عهود الخلفاء ، حتى إن بعض المؤرخين عده متمما لعهد الخلفاء الراشدين ، بل لعهد أبى بكر وعمر ، فقالوا : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبدالعزيز . ولو أن أيامه التى لم تزد على سنتين وخمسة أشهر قد طالت ، لفتح صفحة مجيدة فى تاريخ الإسلام والدولة الأموية . ولقد مات ذلك الخليفة فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ . ولا عجب إذا نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبدالعزيز ، الذى ظل معظما يغشاه كثير من الناس .

٣١ — عبد الرحمن الداخل

صقر قريش

من الناس من يبسم له الدهر فيجد الحياة سهلة هينة ، ومنهم من تتجهم له الحوادث بعد حياة حافلة بالترف والنعيم ، فيعجم الدهر عوده ويكشف عن مواهبه . من هؤلاء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموى ، الذى زال ملك آبائه وأجداده وأحدق به الموت وكاد يقع فريسة فى أيدى العباسيين ، فهام على وجهه ، واستطاع وحده أن يؤسل ملكا ، ويؤسس دولة أصبحت حضارتها منبعا لحضارة أوربا الحديثة ، وكتب فى التاريخ صفحة ناصعة مجيدة خلدت اسمه ورفعته الى مصاف الأبطال والمصلحين .

فعبد الرحمن سليل ذلك البيت الأموى الذى تربع على عرش الخلافة زهاء تسعين سنة ، امتدت فيها رقعة الدولة الأموية من أسوار الصين شرقا الى أعمدة هرقل وجبال البرانس غربا . ولكن هذه الدولة الزاهية الزاهرة لم تلبث أن أحدقت بها الخطوب ، وأشرفت على الفناء ، ولاسيما فى عهد هشام بن عبد الملك جد صاحبنا عبد الرحمن . فاشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية من مضريين ويمنيين ، وتفاقم خطر العباسيين ، وشق الخوارج عصا الطاعة فى اليمن وحضرموت ، وساعدت الاضطرابات التى انتشرت فى خراسان أبا مسلم الخراسانى على الاستيلاء على هذه البلاد . وفى سنة ١٣٢ ﻫ رفرف العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، وزالت الدولة الاموية فى بحر من الدماء ، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية على يد أبى العباس السفاح .

فى هذا الجو المضطرب الملىء بالمحن والمفاجئات ، نرى البقية الباقية من بنى أمية لا يأمنون على حياتهم ، بل ينتظرون ما يبيته لهم القدر على ايدى هؤلاء الذين عولوا على القضاء عليهم . وكان هؤلاء التعساء الذين تنكر لهم الدهر لا يعرفون متى يحل

بهم القضاء المحتوم. يمسى أحدهم فلا يعرف هل يطلع عليه النهار، ويصبح فلا يدرى هل يمسى عليه المساء، لان العيون قد أحدقت به، ورايات العباسيين كانت تطارده أينما حل.

وكان طبعيا فى مثل هذه الاحوال أن يمعن عبد الرحمن فى التفكير فى مصيره ومصير عياله. ولم يكن أمامه الا أحدى خصلتين اثنتين: إما أن يقع فى أيدى العباسيين فيحل به ما حل بغيره من ذوى قرباه وأنصارهم، وإما أن يجد لنفسه مخرجا من ذلك الحصار الذى ضرب عليه، وينجو بنفسه الى حيث يلتمس الأمن والسلامة.

ويصور لنا عبدالرحمن نفسه كيف كان العباسيون يطاردون الامويين، وكيف نجا بنفسه وقطع الفيافى واجتاز المفاوز، وتعرض للاخطار فيقول: «لما أعطينا الأمان ثم نكث بنا على نهر أبى فطرس، وأبيحت دماؤنا، أتانا الخبر. وكنت منتبذا من الناس، فرجعت الى منزلى آيسا، ونظرت فيما يصلحنى وأهلى وخرجت خائفا، حتى صرت على قرية على الفرات ذات شجر وغياض: فبينما أنا ذات يوم بها وولدى سليمان يلعب بين يدى وهو يومئذ ابن اربع سنين، نخرج عنى، ثم دخل الصبي من باب البيت باكيا فزعا، وجعلت أدفعه وهو يتعلق بى. نخرجت لأنظر، إذا بالخوف قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود منحطة عليها، وأخ لى حديث السن يقول لى: النجاة النجاة فهذه رايات المسودة. فاخذت دنانير معى ونجوت وأخى، وأعلمت اخواتى بمتوجهى، فأمرتهن أن يلحقنى مولاى بدرا. واحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لى أثرا، فاتيت رجلا من معارفى، وأمرته فاشترى لى دواب وما يصلحنى. فدل على عبد الله العامل، فاقبل فى خيل له يطلبنى، نخرجنا على ارجلنا هرابا والخيل تبصرنا، فدخلنا فى بساتين على الفرات، فسبقنا الخيل على الفرات فسبحنا. فاما أنا فنجوت والخيل ينادوننا بالأمان ولاأرجع. وأما أخى فانه عجز عن السباحة فى نصف الفرات، فرجع اليهم بالامان وأخذوه فقتلوه وأنا أنظر اليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى، فتواريت فى غيضة أشبة حتى انقطع الطلب عنى، وخرجت فقصدت المغرب حتى بلغت إفريقية».

كان عبد الرحمن شابا لم يجاوز الحادية والعشرين ، ولـكنه كان يتحلى الى سداد الرأى بامتداد القامة والوسامة والقوة والشجاعة . ولولا هذه الصفات لخارت قواه ووقع فريسة فى أيدى العباسيين .

على أن الخطر لم يزل يلاحق عبد الرحمن حتى ألقى عصا التسيار فى إفريقية. ولم يكن معه غير غلامه بدر الذى قاسمه مر العيش والتعرض للاخطار . وجدّ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عامل هذه البلاد من قبل العباسيين فى طلب عبد الرحمن الأموى ، فهرب الى مكناسة إحدى قبائل البربر، فلم يطب له المقام بينهم ، ولقى منهم كثيرا من الشدائد ، فتسلل الى زناتة فأحسنوا اليه ، وقيل انه قصد نفزاوة من برابرة طرابلس ، فأووه وأكرموه وأمنوه . ولكن جند العباسيين لم يدعوا له فرصة لتحقيق أهدافه والفوز بامارة إفريقية . لذلك اتجه ببصره صوب بلاد الاندلس وكانت قد مزقتها الانقسامات والقحط ، ووجد من عالى همته ونسبه الأموى مايكفل له النصر والظفر .

بعث عبدالرحمن الى زعماء الامويين بالاندلس الكتب مع مولاه بدر يدعوهم فيها الى نفسه ويمنيهم الامانى الطيبة ، ورأى بدر من هؤلاء الزعماء رغبة ملحة فى استقبال ذلك الأمير الشاب وتأييده . ثم عاد بدر الى افريقية وقد اطمأن الى ولاء القبائل العربية واليمنيين منهم بوجه خاص .

وكان عبدالرحمن اذ ذاك يبتهل الى الله أن يكتب له التوفيق والسداد . وبينا هو مغرق فى صلاته وتأملاته لاح شراع السفينة القادمة من الاندلس تحمل مولاه بدرا بصحبة أبى غالب تمام موفدا اليه من قبل عرب الاندلس . وتهلل عبدالرحمن بشرا حين لقى مولاه بدرا وصاحبه غالبا ، وصاح قائلا : تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان عبد الرحمن — كغيره من الامويين — يؤمن بالفأل والطيرة .

ركب عبد الرحمن السفينة ، وذاع نبأ دخوله الأندلس ،فخفت القبائل اليمنية الى لقائه ، وأعلنت ولاءها له ، واشتد ساعده بكثرة أنصاره ، وأخذ يدبر أمره

ويجمع جنده ويستعد للنضال فى وجه مناوئيه من الزعماء الذين تخلفوا عن نصرته. وساعده على ذلك حلول موسم الأمطار واستحالة القتال فى فصل الشتاء. وما أن حل الربيع حتى كان عبد الرحمن قد أخذ لهذا الأمر الخطير عدته، وأصبح بحيث يستطيع ملاقاة اعدائه. وسرعان ما استقبل بمظاهر الحماسة والترحيب فى إشبيلية، وتهيأ للاغارة على قرطبة.

على أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى لم يقف مكتوف الايدى، فسار لملاقاة عبد الرحمن وعمل على القضاء على جيوشه قبل أن يستفحل خطرها. وتسابق الجيشان على ضفتى نهر الوادى الكبير. ولم يكد يوسف يجتاز النهر حتى انقضت عليه جيوش عبدالرحمن الذى شتت شمله ودخل قرطبة دخول الظافر المنتصر. وفى أقل من سنة استطاع أن يقضى على منافسيه ومناوئيه، وأن يوحد بلاد الأندلس تحت رايته، واتخذ قرطبة حاضرة لامارته. كما استطاع بما أوتيه من قوة الدهاء وصدق العزيمة وشدة البطش أن يتغلب على ما صادفه من صعاب، وأن يقر الأمن والسلام فى ربوع هذه البلاد.

بيد أن الأخطار التى واجهت عبد الرحمن لم تقتصر على بعض المسلمين فى الاندلس، بل تجاوزتها الى العباسيين من وراء البحر والفرنجة من وراء جبال البرانس. ذلك أن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن، فعمل على القضاء عليه، وبعث الخليفة العباسى ابن المغيث اليحصبى من افريقية، فاجتاز البحر وأقام الدعوة للعباسيين، وانضوى تحت لوائه المناوئون لحكم عبدالرحمن الذى سار الى إفريقية حيث أنزل بجند العباسيين هزيمة ساحقة، وقتل منهم نحو سبعة آلاف. وقتل العلاء وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورءوس جماعة من مشاهير أصحابه الى القيروان والقائها بالسوق سرا. ثم حمل بعضها الى مكة حيث كان الخليفة المنصور يؤدى فريضة الحج، فهاله ما رأى من شدة وطأة ذلك الامير القرشى، وإمعانه فى التنكيل بالعباسيين والثأر لمن قتل من أهل بيته وأنصاره.

ولا شك أن اقتطاع بلاد الاندلس الغنية من الدولة العباسية، كان ضربة

شديدة لهذه الدولة . ولم يستطع أبو جعفر المنصور إعادة سلطان العباسيين أمام قوة شكيمة عبد الرحمن ، فعمل على استمالته وأرسل اليه الرسل . وكثيرا ما كان يظهر أعجابه به وبمقدرته وعزيمته، التي جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع فى تلك البلاد البعيدة . وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لاصحابه : أخبرونى عن صقر قريش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسن الادواء وأباد الأعداء . قال ماصنعتم شيئا ، قالوا : فمعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان قال : ولا هذا ، قالوا : فمن ياأمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميامفردا ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته . ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه . وكثيرا ما كان أبو جعفر المنصور يشيد بذكر عبد الرحمن الداخل ويعدله بنفسه ويقول : لاتعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه؛ فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه وعدمه لأهله ونسبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ؛ فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكا على قطيعته ، قاهرا لاعدائه ، حاميا لذماره ، مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ، ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لايكذب مادحه .

وقف هذان الأميران العربيان أحدهما للآخر برغم ما فى ذلك من إضعاف شأن المسلمين . وكان المنصور كفؤا لمنافسه ، نطرق باب (ببين) ملك الفرنجة رغبة فى مساعدته على عبد الرحمن ، وارسل اليه سفراء أقاموا فى بلاطه

عدة سنين ، ثم عادوا الى المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة، ثم عاد هؤلاء الى ملكهم محملين بهدايا الشرق النفيسة. ولم تؤد هذه المفاوضات الى شيء سوى ما أثارته فى نفس عبد الرحمن من خوف هجوم الفرنجة على بلاده. وقد تحققت رغبة أبى جعفر المنصور فى عهد شرلمان ملك الفرنجة الذى أنفذ جيشا توغل فى الأقاليم الشمالية من بلاد الأندلس حتى بلغ سرقسطة. ولكن هذا الجيش لم يلبث أن ارتد بعد أن عجز عن مواصلة تقدمه، ومنى بخسائر فادحة فى الرجال والمتاع، لأن عبد الرحمن الداخل صقر قريش وقف له بالمرصاد. وقتل فى هذه الموقعة «رولان» الذى خلدته الأنشودة المعروفة بانشودة رولان ، وهى اول ملحمة فى الادب الفرنسى فى العصور الوسيطة.

وهكذا صارع عبدالرحمن الداخل هذين العاهلين العظيمين: خليفة المسلمين، وشارل العظيم، فلم ينالا منه منالا أمام جيشه المنظم الذى كان يتألف من البربر المرتزقة، فدانوا له بالولاء بما أغدقه عليهم من أعطيات وما أدره عليهم من هبات

ولما رسخت أقدام عبدالرحمن، ووطد دعائم الامارة الأموية. وأمن شر أعدائه فى المشرق والمغرب، اتخذ مدينة قرطبة حاضرة لإمارته، وبنى فيها القصر والمسجد الجامع. وقد قيل فى تعليل اختيار عبد الرحمن قرطبة حاضرة لدولته: «ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعلى بصيرة: الديار الكثيرة المنفسحة، والشوارع المنسقة، والمبانى والنهر الجارى، والهواء المعتدل، والخارج النضر، والمحرث العظيم، والشعراء (الأرض الكثيرة الشجر) الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها».

واتخذ هذا الأمير من قصر قرطبة القديم مقرا لإمارته، ثم جمله وأنشأ فيه الرياض الفيحاء، وأجرى من الجبال القريبة من هذه المدينة المياه العذبة فى كل ساحة من ساحاته فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبركة البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. وألحقت بهذا القصر القصور الفخمة والبساتين النضرة: كالكامل والمجدد،

والحائر ، والروضة ، والزاهر ، والمعشوق والمبارك والرستق ، وقصر السرور ، والتاج ، والبديع . كما بنى عبد الرحمن بقرطبة كثيرا من القصور ، كقصر الرصافة الذى جلب اليه شجر الرمان واستنبته حتى أينع وأثمر . وقد قيل إن أخته أم الإصبع كانت ترسل اليه شجر الرمان من الشام . ولا عجب فقد كان هذا الامير الأموى يحن الى مسقط رأسه حتى إنه زرع بقصر الرصافة نخلة لتثير فى نفسه ذكريات وطنه الاصلى . وقد تغنى بذلك فقال :

شـــيدت لنـا بين الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التقرب والنوى ... وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشـــأت بأرض أنت فيهـا غريبة ... فمثلك فى الإقصـاء والمنتأى مثـلى

وكان جامع قرطبة الذى بناه عبدالرحمن سنة ١٦٨ هـ آية من آيات الفن ، وقد أنفق على بنائه ثمانين ألف دينار حصل عليها من غنائم القوط .

كان عبد الرحمن ينظر فى المظالم بنفسه وينصف الضعيف من القوى . فكان اذا حل وقت الطعام دعا الى مائدته أصحابه ومن قصده من أصحاب الحاجات . وقد حكم بلاد الاندلس ثلاثا وثلاثين سنة واربعة اشهر ، ومات سنة ١٧٢ هـ ، وعاصر من الخلفاء العباسيين المنصور والمهدى والرشيد ، وأدرك الغرض الذى سعى اليه وهو فى ميعة الصبا وريعان الشباب ، وأخضع العرب والبربر ، وعدل بين الناس فاحبته الرعية ، وبعث ملك بنى أمية . وما أحسن ما وصفه به ابو حيان :

« كان عبدالرحمن راجح الحلم ، واسع العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ، ثم لا ينفرد فى ابرامها برأيه ، شجاعا مقداما ، بعيد الغور شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغا مفوها ، شاعرا محسنا ، سمحا سخيا ، طلق اللسان . وكان يلبس البياض ، ويعتم به ويؤثره . وكان قد أعطى هيبة من وليه وعدوه . وكان يحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويصلى بالناس إذا كان حاضرا الجمع والأعياد . ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم » .

٢ ــ فهرس الأعلام

«ا»

«ب»

« ش »

« ص »

« ض »

« ط »

« ع »

« غ »

« ف »

« ن »

« هـ »

« و »

٣ ــ فهرس البلدان

« ف »

« ق »

« ك »

« ل ، م »

٤ — فهرس القبائل والجماعات